جَوْهَرتانِ في أكْفَانِ الموْتَى

روايةٌ

تأليف

مُبَاركْ أحْمد عُثْمان

طبعة ٢٠٢٠

عثمان، مبارك أحمد.

جَوْهَرتانِ في أكْفَانِ الموْتَى: رواية/تأليف مبارك أحمد عثمان؛- الجيزة:
أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩.

٣٦٨ ص, ٢٠ سم

تدمك: ١ ١ ٠٨ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

جَوْهَرتَانِ فِي أَكْفَانِ المَوْتَى

رواية

تأليف

مُبَارَكْ أحْمد عُثْمان

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٣٥٤٣

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٨٠١-١

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : جَوْهَرتانِ في أكْفَانِ المَوْتَى

المؤلف : مبارك أحمد عثمان

الغلاف : عبدالله نصر

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٥ ش صبرى أبو علم - ناصية ش شريف - وسط البلد- القاهرة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٢٣٩٥٠٨٧٦ – ٠١٢٧٢٢٢٧٤٤٢

****

إهداء

إلـى ذلـك العـدَّاء النبيـل، والجـوّاد الأصيـل، فهـو مـن ألهمنـي كتابـة هـذه الروايـة...

في مضمـار السـباق، تقـدّم الجميـع عـدوًا، وحـاز قصَـبَ السـبق والقـدح المُعَلَّـى.. فقـد كان أسـرع مـن الصـوت، وأخـفّ مـن الظـل.. فتوشـح بوسـامٍ مـن حريـر، وتحلّـى بميداليـةٍ مـن ذهـب.. فأوجفـت النفـوس وقالـت: تعاطـى عقـارًا مـن المنشـطات؛ فصـرخ في أسـماعهم:

(انتزعوا منّي الوسام لكنهم لم ينتزعوا سرعتي).

كم تشبهني هذه الذكرى...!

في مضمـار الحب...كانت لَكْنَةُ نطقي هـي كل مـا رقّ وعـذب في مسـمعها، وتلعثـم لسـاني هـو كُلّ مـا لطـف وطـاب في قلبهـا.. وأنفـي الأفطـس وشـعري الأجعـد هـو كُلّ مـا حَسُـن في عينيهـا، فأوجفـت النفـوس وقالـت: لـن يتعاطـى معهـا عقـار الحـب.. فزوجوهـا بغيـري علـى عجـل.... فصرخـت في أسـماعهم:

(انتزعوا مني الحسناء لكنهم لم ينتزعوا حبي)

المؤلف

إيقاع لُغة الصَّمت

«مِن شرفِ الحُبّ، أَنَّه لا يُسَاومُ بجمال»

●●●

مَنْ ذَا الّذِي يرى حبيبتي؛ ولا يعجبُ بها؟

وأي حزينٍ يَلْمَحُ نورَ ابتسامةِ شفَتيهَا، وغَضَّ بشرتِهَا، وزهرةِ شبابِهَا؛ ولا يَمْتَلِئُ فؤادُهُ غبْطَةً وسروراً؟

إنّها آلهة الجمال وأيقونة الأناقة بجامعةِ الخرطوم، ونجمُ سعدِهَا، وبدر سمائِها، وفاجعة أكبادِ طُلاّبِهَا.

إنّها مسرح الأنظار، وقِبْلة الآمال، ومَعْبد العُشّاق.

حينَ تَخْطُر.... تكادُ الرّقابُ تنخلعُ مِن أكتافِهَا؛ فتهيمُ النّظرات خلفها هيامًا، وتسبح طويلا.

حين تُخالِسُ النّظرَ.... تملأُ العيونَ أملاً، والقلوبَ رجاء؛ فتحيل كآبة اليأسِ نسيمًا عليلا

إنْ أشرقتْ مُقبلة؛ تحسبُها شمسًا تحتَ أشِعةِ الأصيلِ، إنْ فرَّتْ مُدبِرة؛ فشقة قمرٍ مُضيئ فوقَ غصنِ زيتونة.

إنْ ابتسمت ضاحكة؛ يحَارُ بجمالِهَا الأبصار، وإنْ صكَّتْ مُغَاضبَة يَشِعُّ بهاؤها الأزهار...

هكـذا كانـت تتمثـل لناظـرِي لشـدّة هُيامِـي بهـا.... أمّـا هـي، فـلا تحفـل لهـذا الإطـراء...

كان لا شـيء أشْهَى إلـى نفسِـها مـن محاورتهـا فِي الأدبِ بلغـةٍ مُغلقـة المعانِـي ظاهِرُهـا نُسـكٌ وعِبَـادة...... وبَاطِنُهـا رَغْبَـةٌ واشـتهاء.

ولا شـيء أحـبّ إلـى خيالهـا مِـن كتابتـي قصصًـا قصيـرة فِي دَفْتـرِ مُحَاضراتِهـا بلغـة الصّمـت، أصـفُ تعاريـجَ جسـدِها، وتضاريـسَ أنوثتِهَـا، فتُجارينـي فِي ضـروب الـكلام، بلغـةٍ شـاعِرية معانِيهـا صـدودٌ وامتنـاع، وصوتهـا المُوسِـيقي دعـوةٌ وانجـذاب. فعشـقتْ خيالـي، قبـلَ أنْ تعشـقَ فِـي وجهـي محاسـنه!

بَلُوْتُهَـا؛ فوجـدْتُ الجامعـةَ ومـا فيهـا لا تنبـتُ مثـل بذرتهـا فِي الوفـاء والتصـدِّي للتعالـي العِرقـي. إنّهـا نفـسٌ سـامية، تـرى الدُّنْيـا علـى حقيقتهـا، غيـر مُشـوَّهة، ولا مُزَخْرَفَـة، كَمَـا قـد يراهـا العنصريـون.

●●●

فِي ذاتِ مسـاء، تحت زُرقـة السَّـماء الصَّافيـة... تحـت نسـمات النَّـدى المغسُـولة بميـاه النيـل.

وعلـى بسـاطِ أرضٍ ياقوتـةٍ غـدتْ فِي بُـرْدَةٍ خضـراء بالميـدان الغربـي بجامعـة الخرطـوم، افترشـنا مجلسًـا للأُنس يُوحِـي بالشـاعرية، ويشـمله قليـلٌ مـن الظُلمـة التـي تنعـش الحـبَّ، وتهدهـد العاشـقَ، كنـا نَتَسَـاقَى كـؤوسَ الهـوى دهاقًـا مـرة، ونتحـاورُ فِي الأدب أخـرى. وكنْـتُ وقتئـذٍ طالبًـا بكُليـة الآداب، وهـي طالبـة بكُليـةِ العلـومِ.

أطلّ علينا القمر رقيقًا وشفافًا، وخيوط أشعته الفضِّية بدأت تتساب في فضاءِ مجلسنا فأضفت لونًا سحريًا للقائنا، وهشّت أنفسنا للحديث، فطال سمرنا في جذلٍ عظيم.

وبعدما انعقد حبل الود بيننا، عقدًا لا تنقطع عُراه، مازحتُها في ذلك المساء بلسانٍ قبلي ملتوٍ لا يكاد يبين:

(ما أسعدني! أديبة أرستقراطية من سلالة الفردايس، يقصر الوصف عن نعتِ جمالِهَا، تضمرُ الإعجاب لشخصي، وفي بشرتي سواد، وفي أنفي فَطَس).

أجابتْ بلسانٍ عربي مُبين:

(إنّا بِحسنِ خُلقِكَ نستبينُ، وبالعنصرية والجمال نعمى)

كان لها من سحر الكلمات، ما يتجاوز السمع، ويصل نياط القلب، دون الحاجة إلى تفسير المعاني.

ثم ما عتّمت أنْ أردفت بطرفٍ ناعس وسِنٍّ ضاحكةٍ:

(مَنْ تَحلّى بِحُسْنِ خُلقكَ، و «**صفاتِي السبع**»، تجاهلتُ عن لُكْنة لسانه، حضنتُه بأهداب جفني، وجعلتُ له حظّا من عنايتي)

في إجابتها، شعرتُ بِبَرَدِ الرّاحة في قلبي لِسواد بشرتي، والسكون لوساوسي لأنفي الأفطس، ففصلّتُ حُبي المقدّس على مقاس «**صفاتها السبع**».

ويا له مِن حظٍ شاءَ الرّحمن أن تكون « **صفاتها السبع**» تامّة فِي شخصي، ولازمةٌ في طبعي، ومركبةٌ في جوهري، ومتفرقةٌ في غيري من الطُلاّب، فلم أجد صعوبةً في إتقانِ دور فارسِها... بل بأحسنِ تمثيل، فانطبعت تلك الصورة في مخيلتها التي لا تفارقها، ولو رأتْ منّي صفةً غيرها أنكرتْهَا.

سِرّها، يكمنُ دائماً في حقيبتها اليدوية، كُلّما أدخلتْ يدَها فيها، أخرجتْ، أمراً يثيرُ الدهشةَ.

أخرجتْ منها في ذلك المساء حافظةَ قهوة صغيرة، ومكعبَات مِن السكر، وملْعَقَة ذهبية، وفنجانين، ووضعتْهما أَمامي.

تملّكتْني الدّهشة أنْ كيف تأتِي طالبة بقهوةٍ في الجامعة؟ فقد كانَ ذلك أمراً نادراً الحدوث! فلم أحرّ تعليقاً.

تجود لي بابتسامة، وتَصِف القهوة بأوضح بيان:

(هذه القهوة أعدتها بيديَّ؛ لمجاراتكَ في الأدب، فالقهوة تصفي الذهن، تلين الأريكة، تستبدِل من الكسل نشاطاً، ومن الجمود حِراكاً).

عبق قهوتها خدّر أنفي، فأضفتُ بأدقّ تعبير:

(وهيّاجة للمشاعر..... وغسالة لنياط القلب..... وفتاحة لسُددِ الحُبّ).

إجابتي نفذتْ إلى حواسها الخمس فسألتْني بلغةٍ غامضة، كلماتها طُهر وإيمان، ومعانيها عشقٌ وهيام:

(أتدري، أنّ القهوة عَقِيدة الحُب...وحَلِيفة العِشق، توأمان ملتصقان، يَستحيل فَصْل أحدهما عن الآخر؟)

في الواقع كانت الأديبة تكره الإجابات المباشرة، وتمقت الكلمات العارية من المعاني البعيدة، فأجبتُها بلغتها الغامضة لإشباعِ حواسها المرهفةِ التِي تفتّحتْ على عجل:

(صدقتِ، كلاهما يبدأ بتوقُّد........ ويمرّ باشتعال.... وينتهي بارتشاف بالشفاه).

غَلَبَ على وَجْهها البِشْر والرِضا، فَلَمْ تَزْجرْنِي... ولَمْ تنهرْنِي..... ولم تُبْدِ اعتراضاً جدّياً بِمَا طرق مَسْمعَها، بل كانت تريد أَنْ أُجرّدها مِنْ عقلِها، أُقيِّدهَا بكلماتٍ عارية، واتخذُ مَفَاتِنَ أنوثَتِهَا مَسْرَحاً للفُرْجَةِ.

تسألني بلفظِ السهل الممتع، وتحجِب المعنى البعِيد:

(بأي طُقوسٍ عشقية تريد أنْ تحْتسي قهوتَك؟)

أكشفُ المعنى البعيد، وأجيبها بمعاني إشارية هي وحدها تعرفها:

(أن نحتسيها معًا بفنجانكِ الخاص، لنتقاسم الأنفاس ونتشارك في آثار الشفاه)

أتراها تدري أنّي أتلهفُ لتذوقُ آثارَ طعم شفتيها في الفنجان، ولو وهماً؟ أم تراها تهيؤُ نَفْسَهَا لأرشفهما يقظة؟ فلا عجب، فقد كانتْ في غيبوبة العشق.

تبتسمُ كابتسام الرّوض في أزهاره، تُناولني فنجاناً فأقبضُ على أناملها متعمّدا؛ ترتعش يدي؛ فتتسكب القهوة على الأرضِ.

أعتذر بلفظٍ خفيٌّ معناه، قريبٌ مقصده:

(لفرط حرصي على ارتشافِ آثار شفتيها في الفنجان، سكبتُها)

وبهدوء أشبه بالنّسمةِ العليلةِ، تُخرج مِن حقيبتِها اليدوية دَفْتر محاضراتها، فتنشره بين يديّ، وتقول في ابتهاجٍ وتهلل:

(اكتبْ قِصّة قصيرة بلغةِ الصّمت، تبدأُ بأنغام الحُبّ، وتنتهي ب. «**استحالة رجوع شيء بعد انسكابِه**»، وسأسقيكَ قهوتَكَ هذه المرّة... بيدي).

التقاء أناملِنا، أيْقَظَ شهوة الكتابةِ بداخلي، فدعوتُ كلماتي فأجابتْنِي، وطوّعتُ قلمِي فأطاعَنِي، فتدفق مداده فِي أَسْطُر دفترها، كتدفُّق المياه في القِيْعَانِ.

كتبتُ القِصة وتريثتُ قليلاً لأشعلها، لرفع سقف مضاربي إلى حبٍ لا يموت.

لم تحتمل اشتعال شغفها لقراءة القِصّة، فنزعتْ مِنّي الدفتر انتزاعًا.

اعتدلت في جلستها، ومن فرطِ تلهفها لقراءة النّص، لم تحسّ بسقوطِ طرحتها في حِجرها، فانحسر جزءٌ عارٍ في صدرها، فرسم فستانها الحريري مثلثًا حادَّ الزاوية ينتهي في وسط موضع قِلادة صدرها.

أقبلتْ في قراءة النّص بصوتٍ موسيقي يوقّع لحناً طروباً:

«كان ثمّة عاشق بكُلية الآداب يتمشّى مع فتاتهِ الحسناء الطالبة بكُلية العلومِ بشارعِ النّيل حتّى وافتِ الشّمسَ غروبُها.

وكانتْ يدُه تحيطُ بخصرَها كحزامٍ مُحْكَم الرّباط. تحرّشتِ الشّمس بالمغيب فوضعتْ قبْلَةً حمراء على خدّ الشّفق فاكتسى الشّفق بلونِ قُبْلَةٍ حمراء. فتحرّش العاشق بوجنةِ فتاتهِ الحسناء فطبعَ على خدِها الأسيل، قُبْلَةً قاسية... قاسية كَمِشْطِ الحديدِ، فاكتسى وجهه بلونِ حُمْرَة وجنتيها.

سألته مستفهمة:

(لِمَ فعلتَ هذا؟ فالحُبّ استئذان، وليس اقتحام).

أجابها:

(لتوديعِ الشّمس بقُبْلَة، كما ودَّعَت الشّمس الشّفق بقُبْلَة. فالتّوديع اقتحام، وليس استئذان).

قالت ممازحة:

(لو أبصرتْكَ أمّي، لاستباحتْ دمكَ، وكان في ذلك هلاكك «ولن تحيا؛ لتندمَ على ما فعلت»)

راحتْ تُقارن بين عنوان قِصَّتها «**استحالة رجوع شيء بعد انسكابه**» وبين نهاية قِصَّتي «**لن تحيا؛ لتندمَ على ما فعلت**»

بَدَا لي مِن بشاشةِ وجهها، وامتداد بسمَتها، وتسارع ضربات قلبِهَا الّذِي تلاعبَ بصدرهَا المُكْتَنز صعوداً وانخفاضاً، أنَّ النّصَ صادفَ هواها.

عضّتْ باطن شفتها بشدّة، كأنّها فقدت حاسة الألم وهي تقول:

(القصَّة سيِّئة الإِخراج، ويُسْقى الطّالبَ العاشق، السُّمّ الزُعاف)

ولكنّها ناولتْني فنجانَ قهوتهَا المُنْعِشَة، كَعَبق عبير أنفاسها، فرشفْتُ رضَابَها المُحلّى بحُمْرَةِ شفتيها.

سألتْنِي بلغة تَنِمُّ عن اختبار:

(كيف وجدتَ طعم قهوتي؟)

كُنْتُ أحْذَق مِنْ بيطار:

(إنّها حُلْوة المَذاق، كطعم الحُبِّ تماماً!)

أطرقتْ رأسَها:

(أهي كذلك؟)

عذّبَنِي دلالُها فأجبتُها:

(أجل، وما كنتُ أحسبُ قبل مجالستكِ، أنَّ الحُبَّ يمكن ارتشافه)

نظرتْ إليّ بطرفٍ خجول:

(يا لك مِن عاشقٍ محب!)

ثُمّ فجأةً هبّتْ واقفة، وعيناها تشع بِنور الحُبور:

(لا تُبارحْ مَجْلِسَكَ أبداً، سأعودُ إليكَ غير كثير)

أتراها ذاهبة إلى استراحةِ الطّالباتِ لكي تُعيد زينتها، والاطمئنان على جمالِ شفتيها استعداداً لسخائها المنتظر؟ أم تراها تريد أَنْ تُلهب مشاعري لأكتب لها القصة العاشرة في دفتر محاضراتها؟

اتفق لحظتها أنها كانت تعكف على طباعة جميع قصصي القصيرة التي كتبتها في دفتر محاضراتها، لإعادة صياغتها بأسلوب نمطي يحكمه نظم إيقاعي، لتأليف ديوانها الشّعِري المنتظر «**ضربات الحُبّ النّاعِمَة**» أثناء إجازتها الصيفية بتركيا.

طال انتظاري لها ولم تعد، هممتُ بالمغادرة، فَما إنْ قَفَلتْ راجعة، حتّى عادتْ كالبدر ليل التمام.... كانت أكثر أناقةً، أنضر وجهاً، ولون شفتيها ضاربٌ إلى لونِ البرونز للتمويه على جريمتي المُرْتَجَاة.

جَلَستْ قِبالتي وعبق جسدها يتحرش بأنْفِي، فشكوتُ إليها طول انتظاري:

(هممتُ بالمغادرةِ؛ فالانتظارُ مُهلك لمحبٍ مثلي)

نشرتْ دَفْتر محاضراتها بَيْنَ يديّ، وتقول بكلماتٍ دافئة:

(اكتبْ القِصَّة العاشرة بلغة الصّمت «**الانتظار مُهلك**» لأرى كيف تتألم أثناءَ انتظاركَ للحُبِّ)

لبّت نداء حدسي بكتابة القصّة العاشرة.

هي لا تتلذذ بالقصّة أثناء القراءة... بل أثناء صمتي في لحظة الكتابة، لذا كان صمتي لغة، لها صوت، وصورة، وإيقاع في دفتر محاضراتها حتى داخلها يقين، أنها لا تفهم مركبات الكيمياء إلاّ بعد كتابة قصة قصيرة والدخول بعدها للمحاضرة مباشرة...

كتبتُ لها القصّة. وبدأتْ في قراءةِ النّص كأنّها تُلقي نثراً مسجوعاً:

«أحبّتِ الأميرة الطّالبةُ بكُلية العلوم، حارسَ قصرِها الطّالبَ بكُلية الآداب، وتفانتْ في حبّهِ أيَّمَا تفانِي حتى أطلقتْ على مَخْدَعِها «حارسي».

وإذا خلا بها اللّيل البهيم، يطيرُ بها الخيال، فيتمثَّل لها حارسها وهو يبثّ في أُذُنيها حديث الشّجون، وحين تفتح مُقْلَتَيها، لا ترى غير الوحشة والسّكون.

كابدتْ مِن الانتظار ما كابدتْ؛ لعلَّ حارسها يفهم مَغْزَى نظراتِهَا الغرامِية، حتّى لا يَهَابُ منزلتَهَا الاجتماعية.

ضاقَ بها الصّبر فدعته ليُمثّل بين يديها. وأقبلتْ تَضْفُر شعرَها المسترسلَ على كتفيها لكي تُغريه، لم يَحْتمِل الحارِس دَلَالها فَدَنا مِنْها وضمّها، كَما يضُمّ النّخيلُ ثمارَه.

خانتها أرض قدميها، فاتخذتْ صدره متكأ، وراحت تبحث بشفتيها موضع شفتيه حتى اهتدت إليهما كطفلٍ يهتدي إلى حرارة ثدي أُمّه،

عانـقَ الحـارس جِيّدَهـا الطاهـر، فكسـاها بقُبـلاتٍ مُلتهبـة، لا حصـر لهـا ولا مثيـل.

غاصتْ الأديبـة في لُجةِ الاشـتهاء لا تفهـم ما يجـري حولها ولا تبـين، حتى لقِيتْ حتْفَهَا بسببِ قُبْلَـةٍ طال انتظارُهَا»

صُعِقَتْ....

كأنّما أصابها تيار كهربائي.

تنهّدتْ....

كأنّما أسقطتْ قلبها.

ارتبكتْ ارتبـاكاً جميـلاً..... ومن فرط ارتباكهـا، سـكبتْ لِـي قهوة في فنجانِهـا الخـاص؛ فرشـفتُ أنفاسـها، كمـا علَّمَنـي حُبُّهـا.

وبوجه يتضرّج حياء تقولُ:

(يا لك.... يا لك مِن شَقِي!)

كان اللقاءُ أشبه بعروسٍ تسقي زوجها عشقا.

●●●

ثُمّ ماذا؟ ....

أَبْصَرْنَـا حبيبهـا الوسـيم الّذِي يـروقُ العيـونَ منظـرُهُ، ويهيـم بهـا هُيامًـا جُنونيًـا يبحثُ عنهـا دون أن يرانـا.

تَشَنّجتْ الأديبة مِنْ ظُهورِ حبيبها على هذا النحو المفاجئ وتكدّر صفاؤها، فقد كنتُ أصوّر لها إيقاع لغة الصّمت في أتمّ حِلية ناطقة، ومناهج الخيال في أبدع مسرح تمثيلي.

ومِنْ الحق أنْ نقولَ، أن حبيبها الفتى على درجةٍ مُتناهية من الوسامة في الوجه، والجمال في الأناقة، وكان ذا بيانٍ وتبحرٍ في السِّياسة، به الطالبات يتوسّمن فصار مطمح أنظارهنَّ، وكأنّ أبو نواس نظر إليه بلحظِ الغيب فأنشأ فيه وحده:

يزيدك وجهه حُسنًا.... إذا ما زدته نظرا

وعلى حين فجأة، نهضتُ واقفاً للمغادرة، فلا طائل لي بالجلوس مع الفتى الوسيم، فقد كان شديد الكِبر عليّ، ويَرْشِقني بنظراتِ اشمئزازٍ، وحَسَدٍ، وعنصرية.

ومن فرط حرصِها على بقائي، لم تشْعُر الأديبة أن جسدها السماوي كان يميل نحوي كزهرة عبّاد الشّمس حتى لامسَت ركبتي صدرًا .... طريًا ..... مكتنزًا.

تكاد تقبض بساقي، وهي تقولُ بصوتٍ مُتهدّج يقْطعُ حِبال صوْتها أو يكاد:

(على رَسْلِك... على رَسْلِك، أيْنَ تريدُ الذهاب؟)

أجيبُها بلحظِ الغامِض الباطِن:

(أكْرهُ أنْ أُهانَ بين يديك، الفتى يستقبلني بشيء مِن التعالي والعجرفة، يخاطبُني بأحطِّ النُعوت وأقذعها، ويُمرّغ أنْفِي في وَحْلِ تعاليه العرقي البغيض).

تكْشِفُ الظاهِرِ البيِّن فتجيب:

(ويلاه!، أنتَ أفضل الطُلاّب خُلقاً، فقد كنتَ تَتجلّى دوماً فِي ناظري بمَنْظرٍ نبيل، فلك علينا اليوم حقُ الدفاع عن لونك، رويدك.... سترى كيف تتهاوى العنصرية كجبلٍ جليد)

كادَ الفرحُ يقتُلني من شهادتها .... فوجه الفتى الجميل، لم يخترق جدار قلبها العاشق... وحدها لغتي أشعلت فتيل قلبها الولهان...

أشعرها باليأس من مجالسة الفتى:

(لا موجب بالجلوس معه، يتباهى أنّه ابن شريف، طينته حرّة، وأصله كريم، أَلَيْسَ جماله نبراساً تستضيء به الطالبات أجمعهنّ حتَّى أنتِ يا أديبتي الجميلة؟)

رشفتْ آخر ما تبقى مِن قهوتها لتجيب بفلسفةٍ عجيبة:

(ألا فأعلم، ليس جمال الوجه فضيلة، ولا دمامة الوجه رذيلة، لا يكون الفتى وسيمًا حتى يكون نبيل اللفظ، بعيد التعالي، بعيد الزهو بنفسه، وإن وافق شرف حسب، ومالٍ وجاه)

ثمَّ صرختْ فِي وجهي مِنْ غير سببٍ جرى دون تحرّج لما كان بيننا من وثيق الصِّلة:

(مِنْ شرفِ الحُبّ، أَنَّه لا يُسَاومُ بجمال! ناشدتُك الرّحمن ألاّ تغادر مجلسكَ لتجاريني فِي ضروبِ الكلام)

انغرز فِي أعماق قلبها، لأجسُ نبضها:

(أتْعس الطُلاّب حظّاً، طالب مثلي، يخوض منافسة مؤلمة... خاسرة مع هذا الفتى الوسيم، للظفر بقلب فتاة أرستقراطية، تُذْهلُ كُل ناظرٍ ومُتأمّلٍ إلى شرف منزلتها)

عبثاً حاولت إقناعي للبقاء، فتقول كَأَنَّهَا تبكي:

(إني والله لأجهلُ لُغته الصّماء، وهو لا يفهم للُغتي مَعْنى، ناظرتُه ليحيل لغة الصّمت إلى إيقاع، والخيال إلى مشهد، فكان كاسد العقل، يتهجّم على الألفاظ، ويتعسف على المعاني)

أوشكتُ أنْ أزغردَ كأُنثَى، ولكن اتفق لحظتها، أنّي كنتُ أُزوّد قلبها في غفلة منها، بسبع جرعات متنوعة من خطّتي العاطفية «**إسْقاط قلب الفتاة... في شراكِ الدُهاة**» ليكتمل دورة عشقها لمنافسة الفتى، فلا بد لي من مغادرتها وإيلام مشاعرها.....

قررتُ أخيراً هَتْك سرِّها المستوُر قبل أن يكتشف الفتى مجلسنا:

(إنْ لَمْ تُبارح مكانكَ، كشفتُ لكَ سِرٌ مكنون، ظل مقبوراً في صدري عن أسبابِ علاقتي مع الفتى، ينطوي على مفاجأة مُرعبة ... فقد صبرتُ عليه ما أمكن الصبر)

داهمتني فرحة أخرى أخْرَستني، ورغم أنّها مفاجأة يسرّ معرفتها، إلا أنّي تصاممتُ كأنّي لم أسمع شيئًا.

تعيدُ عليّ القول مَرَّة، ومرتين فأتغافل عنها، فحبها علّم كُلٌّ منّا أن يسير عكس رغبات الآخر في لحظة اشتعاله... ليُداهمه العشق مُبَاغتِاً وجميلاً في لحظةِ يأسه.

توقف الفتى فجأةً أمامنا، فكَسَرتْ لي جَفْنَها الأيمن ألاّ أغادر حتى يملّ الفتى ويتبخر من المكان، فرفعتُ لها حاجبي الأيسر بأني لن أجالس غريمي وانصرفت.

تركتها تتلظّى بجمالِ الفتى بهدوءٍ، لتستوي جرعات الحُبّ التي أعددتها؛ فيطيب طعمُ عشقها... فحُبيبات بُنّ القهوة، لا يطيبُ طعمُهَا، إلاّ إذا احترقتْ تحت جَمّرِ نارٍ هادئة!

●●●

ولكن..... مَنْ أنا، ومِنْ أين قدِمتُ؟

دعُوني أحكي قِصّتي، وحكاية الطّالب، المزارع، الرّاعي، القبلي.... الولهان.

●●●

الباب الأول
التِقَاءُ الخُطُوط المُتوازِية

إيقاع لُكْنة العين

مِـن قُـرى وأريـاف مدينتـا الشّـرقية القحّـة، قدِمـتُ إلـى جامعـة الخرطـوم طالبـاً لأول مـرة في حياتـي.

ومِن حياة الفردوس الأرضي، وعيش الملائكة النّاعم بدولة قطر، جاءت أديبة فاتنة إلى نفسِ الجامعة طالبةً لأوّل مرَّة في حياتها، التقينا مصادفة، وتعارفْنَا مصادفة، وكأنَّ لقاءنا بترتيبٍ مِن بُرجِ الحَظّ لالتقاءِ الأضدادِ، كالتقاء ظُلمة الليل بتباشير الصباح.

جاء الحظُّ يطلبُنِي لملاقاتها، كما يطلبُ الماءُ انحدارَهُ، أبْصرتُها واقفة في كافتيريا كُلية العلوم تنتظر صديقتها، ولكن بقياس القدر، كانت تنتظرني!

وكأَنَّ الحظَّ توخّى أنْ يجمعنا للتّلاقي، في وقتٍ واحد، في مكانٍ واحد، في أوّل يومٍ لنا في الجامعة، أو قُلْ، كأنّنا اتفقنا مُنذُ الأزل للتّلاقي في ذلك المكان المُسمّى، وإلاّ لما اجتمعتْ تلك المصادفات العجيبة كُلها في لحظةٍ واحدة.

أحسستُ بشيءٍ عنيف يدفعني تجاهها، قوة لا سبيل إلى مغالبتها، فالتمستُ طريقي على غير هدى حتَّى توقفتُ خلفها أتأمّلُ جمالها في صمت.

لم يخامرْني شكٌّ في أنّها مَنْ ستزاملني في الجامعة، وحسبي بها مِن زميلة! وتَذَكَّرْتُ ذلك الإحساس بعد حين، عندما وقعَ كفَلَقِ الصُّبْحِ المُبِين.

داخلني يقين منذ الوهلة الأولى، إنّ هذه الطالبة، فريدة في جمالها وفي أُنوثتها، فكأنّما أُوتيتْ مِن كُلِّ شيءٍ أحسنه؛ فوجهها جميلٌ مستديرٌ بالقمرِ أشبه، تُزَيِّنه شفتان مُكتنزتان، وشفتُها السُّفلى حمراء قانية.

أنفُها مُشْرَئِبٌ في إباءٍ. وخدّاها نديان كزهرة بريّة، وشعرُهَا يبدو طويلاً مُنْسَدِلاً فوق ظهرها ينساب كالشلال.

أَمَّا جسدُهَا؛ فمَصْبُوب في قالب سماوي مُفصّل، كأَنَّمَا جُمِعَ فيه مِن كُلِّ شيءٍ أفتَنَهُ، قامتها فوقَ الوسطِ طولا، تزهو بردفين كبيرين بارزين ممزوجين مِن عصارة البداوةِ وحضارة المدينة، وصدرها نافر كَقِسِي يصَوِّبها رماةٌ مهرةٌ مِنْ كُلّ ناحية.

مِن الهِندام، أسبلتْ على جَسَدِهَا مِن كُلِّ شيءٍ أجودَهُ، تنورة سوداء في لونِ الليلِ تلتصقُ بخصرها وأردافها. وبلوزة قرنفلية في لونِ اللوز، تُعَانِقُ صدرَهَا وكَتِفيها.

●●●

رُحتُ أتساءل: كيف لي بإمساك هذا الغزال الشارد قبل أن يفرّ من ناظري؟ ولعُمري ما ضاعت تلك الفرصة مِنْ يدِ رَجُلٍ إلاّ واشتعل في صدرهِ ناراً من الحسرةِ لا تطفأ غابر الدهر.

اهتديتُ أن أداخلها في الحديث مهما كلفني من صدودٍ ونفور، استجمعتُ شتات شجاعتي الأدبية وتقربت منها بقلبٍ يخفق بشدّة كقلب أرنب.

ولعلّها أحسّتْ بحرارةِ بصري تُلامِسُ خَدَّيها فاستدارت لمعرفةِ مصدر حرارتها؛ فأحسستُ بدوري أشعةِ عينيها تلسعُ صميمَ فؤادي.

رمقتْنِي بنظرةٍ لطيفةٍ تنِمُّ عن الترحيب.... ومِن هُنَا بدأَ أوَّل لقاء.

أدامتْ النّظر في وجهي، كأنَّنا كُنَّا، على معرفة وطيدة منذ آمادٍ سحيقةٍ، فافترقنا ثُمَّ تلاقينا.

كان من حظّي أنها من ابتدرت الحديث، سألتْنِي بلغةٍ مُفْصِحَةٍ لا كإِفصاح الآخرين، بصوتٍ ذي إيقاع وتريّ مشدُود:

(أنعمت صباحًا. أليستْ هذه كافتيريا كُلية العلوم؟ لِمَ لا يُعَلِّقون لوحة لتنوير الطُلاّب الجدد؟)

نظرتُ إِليها نِظْرَةَ طُهْرٍ وعفاف، وانحنيتُ لها بأدبٍ، ليس بعده أدب، فأجبْتُها بذوقٍ رفيع:

(«نأم» هي كذلك!)

نظرتْ إِليّ بدهشةٍ عُظمى عندما نطقْتُ حرفَ العين همزة، وكنتُ أريد «نعم».

لا جَرَمَ، كان في نُطقي، لُكْنة قبيلةٍ واضحةٌ، تلك اللُكنات المنحدرة مِن لُغَاتٍ فقدتْ أمومَتَها، وعلى نحوٍ مَا تتجلّى في الأبناءِ.

كنتُ أعاني من نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ، فصرتُ أنطقُ حرفَ الحاء هاءً، والعين همزةً، والضاد دالاً، والطاء تاءً والعكس بسببِ

طبيعة حياتي الرعوية ولغتي الراطِنة، فلمْ أندمجْ في المجتمعِ الّذِي يتحدَّثُ اللغةَ العربية إلاّ في بداية المرحلة الابتدائية.

●●●

قد تُولد دواعي المحبة بين طرفين بحرف، وتكون سبباً لموافقة القلوب عند أول لقاء، حدث ذلك، عندما هزَّتْ رأْسَها عجباً كأنَّها تُكذّب سمعَها، أو كأنّها لم تتوقع يوماً، أنَّ حرفَ العين، من الحروف التي تنطق مرة «عيناً»، وأخرى «همزةً»:

سألتْنِي بلهفة:

(عفواً، هلاّ أعدتَ إجابتكَ لو سمحت؟)

وقبل أن أُجيبها، انحنت وأصاختْ بأذنيها على نحوٍ مبالغ، بهرَنِي جمالُهَا، فنطقتُها كَمَا أَلِفْتُهَا:

(«نَأَم» هي كذلك)

جادتْ لِي بنظرةٍ ساحرة مِن عينيها الجميلتين، كأَنَّها تحتضنني بأهدابِ رموشها، ابتسمتْ، فارتسمتْ على خدّيها غمازتان جميلتان أَضْفَتَا سحراً جميلاً على وجنتيها.

في ساعته...أحسستُ أَنَّها صنو الروح، ففي محيط عينيها الواسعتين، تَخْتَبِئُ المفاجآتُ، وفي سوادِ حاجبيها السميكين، ينطوي الغيبُ الّذِي لم ينكشفْ بعد، فنطقتْ دواخلي فرحاً: «إِنَّها رائعة! حقًا إِنَّها رائعة!»

وبدورها، كأنّما شعرتْ بِحُسْن تهذيبي بانحنائي لها، فانحنتْ لي انحناءة مماثلة، فظلّ ذلك مشهداً في ذاكرتنا لا تطمسه السنين:

(لك الشّكر والتجلّة، ظننتُني أقفُ في كافتيريا أُخرى)

قالت ذلك، وأعرضتْ عنّي صفحاً، وطوتْ دوني بُعْداً، فأوشكت أنْ تأخذَ مُنْعَطَفَاً وتغيبُ عن ناظِري.

ولكن.....

لاحتْ منها التفاتة! كأنَّمَا جذبتْها شدّةُ اندهاشي، ولُكْنة لساني، وحسن تهذيبي، أو حافز إلهي مفاجئ أرغمها على الالتفات.

عادتْ الفاتنة تميسُ الأرض زهواً، كأَنّها تخطُو فوق لوحةِ بيانو.... إِنَّها جَذَّابة المنظر. إِنّها نبيلة كملاكٍ سامي!

توقفتْ أمامي وألقتْ عليَّ نظرةً، كأنَّها تحاول أن تقرأ بطاقتي الجامعية.

(أراك مندهشاً، ثمة صديقة قادمة لملاقاتي؛ فأسرعتُ إلى انتظارها. فبادرتُكَ بالسؤال ليس أكثر)

وكانت تحتضن فوق صدرها أحد أركان كتب الأدب «**الكامل في اللغة والأدب**» لمؤلفه المبرد.

أجبتُها بفرح:

(لعلَّ زميلتكِ في سلامة، وستأتي غير بعيد. وأرى أنْ نتّخذَ مجلساً رَيْثَمَا تأتي؛ فلا يليقُ الوقوفُ هكذا. هَلُمّي بنا)

تـرددتْ الفاتنـة بُرهـة، ولكـن كنـتُ يومهـا فِي بـرج حظّـي، وحسـن طالعي، فأصابـتْ رجائـي، جلسنا تحتَ ظِلّ شجرة وارفة الظلال، وكُلاًّ منّا يتحاشـى نظرات الآخر، فساد صمتٌ طويل بيننا، فحدَّثتني نفسي بكسـرِ حاجز الصّمت، لبدءِ التّعارُف، فسألتُها:

(هل يمكنُنا أن نتعارف؟)

منـذ أوَّل حديثٍ مباشـر دار بيننـا، أحسسـتُ أنَّهـا صريحـة بدرجـةٍ متناهيـة، لا تخبـئُ شـيئاً، رغـم حيائهـا.

أجابتْ بنيةٍ صادقة:

(سلوى عبـد الحليـم المعاليـك، طالبـة بكُليـة العلـوم، قادمـة مِن دولـةِ قطر، من حملة الشهادة الثانوية القطرية، ستعلم أمّي عمّا قليل أنك كنتَ جليسـي، وستسـألني عنـكَ فِي كلَ شـيء، حتّـى عـن قبيلتـك)

طـار قلبـي شـعاعاً مـن صراحتهـا، فداخلنـي يقـين كنبـوءة، إن وُرود اسـم أُمّهـا علـى هـذا النحـو التلقائـي، لـن يبشـر بشـيء مـن الخيـر.

رددتُ اسـمها «سـلوى»، بتـأنٍّ لأسـتبينَ قُـوةَ موسـيقاه؛ فوجدتـه ناعمًـا وموسـيقيًا، فحـرفَ السّـين مِـن أقـوى حـروف الهمـس. تسـاءلتُ، أَتُرَاهـا مُرهِفـة للسّـمع، لتسـمع همسـي؟

وبـدوري عرّفتُهـا بنفسـي، وبقبيلتـي الرعويـة، وحياتـي الزراعيـة فلـم أخبـئ شـيئاً:

(أقدّم لكِ نفسي... أنا أحمد «بيلّو» أبكّر، طالب بكُلية الآداب)

خيّم الصمتُ بيننا مرة أخرى، فخطر بقلبي خاطر: «**إنَّ جمالَ الإنسانِ فِي اللسانِ، وما الإنسانُ لولا جمالُ اللسانِ**»، سأحادثُهَا بأنفس ما حفظْتُ فِي الأدبِ، لعلّها تعجبُ بيّ، وقد يُولَدُ الإعجابُ بكلمة:

(أرجو أنْ تقبلي رجائي بالتّشرُّفِ بتناول مشروبات مع مقامكم. وقد قيل: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه»، ولا أرى أكرمَ منكم)

وبسرورٍ حاضرٍ تجيب:

(إنَّه لكرم، يجلٌّ عَن الوصفِ)

ذهبتُ إلى الكافتيريا وقفلتُ راجعاً أحملُ زجاجتين مِن عصير الفانتا المُنعش. والحياة الأرستقراطية لا تحتاج إلى دليل، فقد أخرجتْ مِن حقيبتها اليدوية الفخمة، كأس زجاجي شفاف مُحلّى بكلمات الشكر والحمد، فسكبتْ عصيرَها، ثُمّ أدخلتْ مصّاصَة، وراحتْ تمص العصيرَ بلذّةٍ تَنِمُّ عن الهناءِ.

نازعتْني رغبةٌ خفية فِي النّظر إلى قدميها عندما مدَّتْهما وتركتهما للرِّيح تلاطفُهُمَا. كأنَّها تعرضهما لإغراءِ شركات التأمين لتأمينهما بقيمة بوصليةِ.

وكانت تنتعلُ حذاءاً أسودَ ذا كعبٍ متوسطٍ أنيق، ينتهي برأسٍ مُدبب، ويرتفعُ برشام مشبك إلى نصفِ ساقيها الملفوفتين كعاج الفيل، وكاحل قدميها ممتلئ كإناءٍ مكفئ، فأضْفَى فتنةً ساحرةً على ساقيها.

بلغْتُ لعابي بصعوبةٍ بالغة، وتنهدتُ في ضيقٍ عميق، وبعدها... ضاعت منّي كُلّ الكلماتِ، لم أجدْ ما أقوله؛ فسألْتُها سؤالاً بَدَا لي غبياً، ولكنّه كان المفتاح السّحري لولوج حياتها الأسرية مُنذَ أوّل لقاء:

(اغفري لي فضولي، أودُّ أنْ أعلمَ، إنْ كان اسمكِ ينطوي على معناه، أمْ له معنى بعيد؟)

الأعجب من فضولي، أَنَّها تلقّتْ سؤالي بارتياح، وصارت تسردُ حياتها الأسرية بطواعية واسترسال، كأنّني أحدُ أفرادِ أسرتِهَا، حتَّى تلبسها عقلي:

(نعم، معناه موجود فيه، أنا هِبةُ أُمّي؛ فقد حملتْ بي بعد الإياس، فأطلقتْ عليَّ اسم سلوى، لتسلو مَا كان مِن حِرْمَانها). ودون سببٍ جرى، تُضيف الفاتنة بطوعية ونِيّةٍ طيّبة: (وأبي، يناديني (سلواي) ويبرني برّ الوالدين لدرجةٍ أنه أهداني جناحًا فندقيًّا بفندقٍ يمتلكه في تركيا أقيم فيه أثناء الصيف)

ثُمَّ ترقرقتْ دمعةٌ على خدّهَا لتواصل:

(لقد عشتُ في أحشائها مرتين، مرَّة عندما حملتْ بي، ومرَّة عندما أصبحتُ وحيدتها، فالْبستني جناح النّعمة، وأعادتْني إلى أحشائها، وأحسبُ أَنَّها تحنُّ إلى لقائي، حنين الظمآن إلى الماءِ الزّلال)

علمتُ بعد حين، أَنَّ أُمّها حملتْ بها بعد خمسِ محاولات إجهاضٍ متكررة، فكَلِفتْ بها كَلفَاً شديدا، فقرّبتْها إلى منزلة الرّوضة.

وبدأتْ أمّها حياتها المهنية كمحاضرة بقسم اللغة العربية وآدابها؛ فنشأتْ سلوى في بيئة أدبية خالصة. كانت شغوفةً بالأدبِ والأُدباء.

كتابةِ الشّعرِ صناعتهاِ؛ وقراءة كتب الأولين لذتها، وقرأتْ كُتب الأدب الأربعة، فجاش بها صدرها، وفاض بيانها.

وكانتْ أمها تصحبُهَا لحضورِ المحاضراتِ الجامعية، والمنتديات الأدبية؛ فتفتّحت موهبتها الفذّة. وبلغت في المناظرات الأدبية وفي ضروب الكلام، ما لم يبلغه أحد، بدرجة أنها تفصل بين القصيد والرجز، والمسجوع والمنثور، والحِيلة والحجة.. والدليل والشُبهة.... ومن أشهر مؤلفاتها الأدبية، روايتها ذائعة الصِّيت، «**متلازمات السَّعادة.... في قلوب حاملات الشِّهادة**»

يؤخذ على سلوى، أَنَّها مُسْرِفةٌ في الصراحةِ، لا تتحرّجُ مِن قولِ الصدقِ مهما كانتْ عواقبه وخيمة.

ولسانها يجلد كالسّوط، يُمزّق الجسد شرّ مُمزّق، فلا عجب؛ فللجمال أحكامه. ولديها مِن الإخوة محمد، ويصغرها بسنواتٍ ثلاث.

وعلى النّقيض منها، عشتُ طفولة قاسية، أفنيتُ ثلاثةَ أرباعِ عمري، متنقّلاً بين حَرْثِ الأراضي الزراعية واستنباتِها، واقتلاعِ الحشائشِ الضارةِ وحرقها، واحتطاب الأشجار لاستخدامها كفحم نباتي.

وتنقلت في الحياةِ الرّعوية، في ربط الأبقار في مرابطها، وحلب الأبكار في حظيرتها، وتعويدها على الحَلْبِ، وترويض العجول المتوحشة،

وتسكينها، وارتياد أطيبَ المَرَاعِي لها، والذّودِ عنها مِمَّا قد يهلكُهَا ويؤذيها، وتغيير مرابطها، مِن الحَرِّ حيناً، إلى القَرِّ أحياناً. لذلك كان اللقاء بيننا، أشبه بلقاء الأضداد.

وفي المرحلة الثانوية، قرأتُ نفائس الكتبِ الأدبية، فنشأتْ معي هواية القراءة بنهمٍ مِن خارج المقرر، وكنت أدسّ في جُراب زادي وأنا أسوق ماشيتي في مناطق الرّعي رسائل الجاحظ وكُتب الحيوان فأجيل فيها عقلي، وفي مناطق التماس، أتصفّحُ كتاب كليلةَ ودمنة والأغاني وأقلب فيها بصري وبصيرتي، وكنتُ شديد الولع بكتاب العقد الفريد وكُتب الفقه والرواية حتى استبدت معانيها بمشاعري وفكري.... وغلبت موسيقاها سمعي، وكان أبي إمامًا في اللغة، ومفتي قريتي الريفية وأطرافها.... ولهذه الأسباب وحدها، حذقت الكتابة.... وفنّ الخطابة. وكان ترديدي الشّعرِ الجاهلي، مصدرَ روحي وإلهامي فِي الأدبِ، وهي العاطفة الوحيدة التِي وثَّقَتْ علاقتي بسلوى منذ أوّل لقاء، وخلا ذلك، لَمَا كان التّواصل بيننا ممكناً أَبَداً؛ لتفاوتِنا في الطَّبَقاتِ الاجتماعية، واختلافنا في الصورة».

●●●

أخرجتْ مِن حقيبتها اليدوية حافظة طعام، بداخلها فطائرَ جبْن، فقدّمتْها كُلَّها لي، ثُمَّ ذهبتْ إِلى الكافتيريا، وعادتْ تحملُ شطيرة لنفسِهَا.

تراءى لي مباشرةُ أَنّها بين الحياءِ والسَّخَاءِ جمعَتْ، فماءُ الحياءِ ينحدرُ مِن أسارير وجهها، وسيولُ السَّخَاءِ، تتدفقُ مِن سُلامى أناملِهَا.

تبادلنا حوارات أدبية شتّى، فأحسستُ أَنّها تُجيد لغةً أدبية عالية، وجدتُ نفسي مَسُوقَاً لمجاراتها في لفظٍ مجازي في غير معناه الحقيقي فقلت:

(ترسل الشمس أشعتها الذهبية، لتُزيِّن الدُّنْيا بضيائها. ولكن ما أسعدني، حياتي الجامعية في أول يوم، تُزيِّنها شمس ساطعة، أشدّ وهجاً، وأقوى إضاءة).

فجأة أخرجتْ مِن حقيبتها اليدوية دفتر محاضراتِهَا، وبدأتْ في تدوين كُلَّ مَا يجري بيننا مِن حوار، فتجيب بلغةٍ مغلقة:

(إخالك تريدُ أنْ تجعلَ مأدُبة التّعارُف عامرةً بالأطباق الشهية؛ باختيارك كلماتٍ حزينة).

وجدتُها مَرْكَباً مُرَوَّضَاً للأدب؛ فركبْتُ. وقلباً مُنْحَدِرًا للحوار فانحدرْت، ولمْ يمضِ على تعارفِنا سوى بضع دقائق، فتحدثتُ بلغةٍ إشاريةٍ أخرى:

(لتشتهي مائدتي غداً، وستكون ألذَّ، وأطيبَ مِن اليوم).

أجابتْ بصوتٍ دافئ:

(ولكنك لَمْ تتركْ وجبةً للغدِ، فقد التهمتَ مائدتكَ كُلَّهَا اليومَ)

نظراتها المتتابعة ألهبتْ خيالي؛ فأطلقَ لساني عنانَه:

(إذن، سأتحلّى بإدامة النَّظر إلى الجمالِ! أليس الجمال حلوى المائدة؟)

تُدَوَّن كلماتي، ثُمَّ تُدَوِّن كلماتِهَا وتردُّ دونَ تفكير:

(لا تَغُرَّنَكَ ملامحُ الجمالِ الظّاهري، وانظر إلى جوهرِ القلبِ، وما يكنُّ من خيرٍ أو شرّ)

أجبتُها بقلبي:

(كلاهما ينبعان من منبعٍ واحد، ألم يبلغكِ أنَّ الجمالَ الظّاهري عنوانٌ للقلبِ الجوهري؟).

بدأتْ تتلذّذ بحديثي، فردّتْ بأسرع من نَفَس:

(ألا ترى ظاهرَ نباتِ الصَّبَّارِ؟ يبتسمُ ابتسامَ الرّوضِ عن زهرته، لكنه يلسعُ بجوهره لسعَ النَّحلِ بأشواكِهِ؟ فأحزر من الجمالِ الظاهري كحذرك من شوك نبات الصبار).

فجأة هبّتْ نسمةٌ باردة، فسقطتْ طرحتُهَا. وانسدلتْ فوقَ ظهرِهَا ضفيرةٌ طويلةٌ... كذيلِ الفرسِ فاحمةُ اللونِ.

يا للهولِ! رفعتْ يَدًا خمرية مرتوية، تفوحُ منها رائحةٌ ذكية، استنشقتُ رائحتها أكثر ممَّا تحتملُه رئتاي حتّى شهقتُ، فتناولتْها، وحجبت بها رأسَهَا؛ فهالَنِي المنظر!

وبين غمضةٍ وانتباهة، جسّدتُ ذلك المنظر البديع في ذهني لترجمته لاحقًا في لوحةٍ تشكيلية تُحاكي المشهد، فَمِنْ هواياتي الرسمُ والعزفُ على آلةِ الطنبور، فالرّسم اكتسبتُه بالفطرة، وكنتُ أجيدُ رسمَ الطبيعة، والأبقار وهي تشرب من الحفائر؛ والثّيران وهي تنتطحُ بقرونها؛ أمَّا الطنبور؛ فحذقتُه بالممارسة أثناء الرّعي للترويح عن النفس، وقتل الملل، وقضاء أوقات ممتعة مع الأبقار.

وفي تلك اللحظة، تذكرتُ لوحةً أخرى، مغايرة صرفاً وعدلا، تكفهرُّ لها الوجوه، وتقشعرُّ لها الأبدان. إذْ كنتُ أسابقُ يوماً في مشروعي الزراعي بمنطقتي الريفية، قرداً قبيح الدّمامة، نتِن الرّائحة، عاري المؤخِّرة.

وشتّان ما بين حضوري اليوم أمام وجه كالقمرِ البدري، وحضوري آنذاك أمام وجه متعرّج كمشارطِ الحديدِ. لم أجد صلة تربط بين اللوحتين سوى حضوري.

●●●

حدَّثتني نفسي ألاّ تنتصر عليَّ هذه الصّبية فقلتُ:

(فمَا تفسيرُكِ إذن لقولِ الشَّاعِر «**يكاد عنوانها لروعتها، ينبيك عن حسنها الّذِي استترَا**»؟ وهذا معناه، أنّ الجمال الظاهري، توأمٌ للجمال الجوهري، ونعتٌ من نعوته).

بديهتُها حاضرة؛ فتجيب:

(تلِكَ لوحة للخط الكوفي لوصفِ جمال القلم، وليس لجمال الوجهِ، فإذا أردتَ الجمالَ الظاهري؛ فتمتع بمناظرِ الطبيعة، فالطبيعة وحدها تصنعُ لكَ الجمالَ، فسقراط لا يهتمُ بالجمالِ الظاهري بقدرِ ما يهتمُّ بالجمال الجوهري، ومكمنه القلب، فخذ حذرك، وكفكف ذيلك).

أجادلُها بلغةٍ أخرى:

(ولكن الجوهرَ قد يحملُ رعباً، فأمريكا أخذتْ مِن الذرّة جوهرها، وصنعت أشدَّ الأسلحةِ فتكًا، لذلك تراني أخشى الجمال الجوهري، وأعشق النّظرَ إلى الجمالِ الظاهري).

فأرسلتُ ناظري في جمال وجهها فاستقرَّ في عينيها برهةً حَتَّى ابتسمتْ، عندئذ قالتْ:

(لا خوف عليك مِن الفتكِ، جوهري لا يحملُ هذا الرُّعب، أنا إِنسانة حسَّاسة كالنباتِ تماماً).

قالتْ ذلك، والرِّضا يلمعُ في محيطِ جفنيها.

أجبتُها كالبرقِ الخاطفِ:

(وأنا حجر، لأكوّن معك «**معادلة الحياة الجامعية**»).

اندهشتْ:

(حجر؟ يا لك من قاسٍ! وأي معادلة تريد؟).

عشقتْ أُذُناي حديثها، فأجبتُها:

(لا أرى قسوةً في ذلك، فهذه لغة سهلة الألفاظ، مُغلقة المعاني لو تعلمين اللغة الباطنية لمعنى الحجر).

ظلتْ صامتة تقطبُ جبينها وأخيراً قالتْ:

(بلى، إنَّ في باطنها معنى عميقًا حَقًّاً، ولكن قد يختلفُ كُلاًّ مِنّا في تفسيرِ لغتِهِ الباطنية، فما فهمُكَ أنت أولاً لمعنى الحجر؟)

أجبتُ بلذّة الانتصار:

(الحجرُ الضلعُ الأوَّل المُكوّن لمعادلةِ الحياةِ الجامعية، والضلْعَان الثاني والثالث اللذان وصفتِ بهما نفسك وهما النبات والإِنسان، مُكَمِّلاَن للمعادلة أفهمتِ؟)

فَكَّرَتْ مَلياً ولم تهتدِ إِلى أيّ إجابة، واستسلمتْ لقوة خيالي. قالتْ:

(أعترفُ لكَ لقد أجهدَني التفكيرُ في فَهْمِ معادلة الحياةِ الجامعية).

أجبتُهَا بفرحٍ ليس بعده فرح:

(خذي المعادلة: «إذا كنتَ «**حجرًا**»؛ فَكُنْ للمشاعر المرهفة صوّاناً، وإذا كنتَ «**نباتًا**»؛ فكُنْ للعواطفِ النبيلةِ حسَّاساً. وإذا كنتْ «**إنسانًا**»؛ فكُنْ للوجوهِ الجميلة مُحبَّاً»).

راحت تردد المعادلة أكثر مِن مَرَّة، وبعد إمعان النظر في باطنهَا، والتعمُّق في معانيها، قامت بتدوينها بخطٍ حسن قَويم في دَفْترها، ثمّ مدحت لغتي:

(مَنْ أشرف منكَ حظّاً في المعاني، وألطفُ مِنْك نسجاً في الخيالِ، وأرقّ مِنك صُنْعَاً في تركيبِ العبارةِ؟)

بهذا المديح، أحسستُ أَنَّ الكُلْفَة زالتْ بيننا سريعاً بسببِ لغتي الرومانسية الراقية، واستسلامها لقوةِ حُجَّتِي.

وبجُرْأَة نادرةٍ... نزعتُ الدفتر من حِجرها، فكتبتُ لها بخطٍ أنيق اللُغز التالي:

((هو يصلحُ لها «حجرًا» و« انسانًا»، وهي تصلحُ له « نباتًا»)).

راحت تقرأ اللُغز في أناة وتأمل، فهمتْ مدلوله واسترسلتْ ضاحكةً ضحكاً، ما أظنّ أنها ضحكت مثلها حتَّى بانتْ أسنانُها، أسنان نضيدة بيضاء كاللؤلؤ النَّظيم تجلو دُجَى الليل البهيم.

عندئذ أجابتْ:

(لعمرُكَ... إنَّ جرأتَكَ مع فتاةٍ لا تعرفها وفي أوَّل لقاء، أشبه بشربِ السُّم المُجهز للتجربة).

يا اللّه! إنها تجيد ملامسة الكلمات، كلمات ما أحسنها في الأسماء! وما أحلاها في الصدور!

تفتَّحتْ لغة الخيال بمهجتي، فأحسستُ أني أستطيع مجاراتها في حُسْنِ بيانها بأحسنِ ما لديها من لغة، فقلتُ:

(إنّ السُّم وإنْ كان قاتلاً في معامل التجربة، إلا أنه ليس من جنس الموت أمام سحر حلوى المائدة، بل ترياق كامل الدسم).

تحلّب ريقها من حسن بياني..... لعقتْ شفتيها...... وبلعتْ رضابها..... وسألتني بلهفة:

(للّه درُّك منْ أين لك هذا البيان الحسن وهذه اللُّغة البديعة؟).

وبهذه الشهادة، أمسكتُ بحبلِ الغرام مِن أنفه أجُرّها إِلى دُنيا هيامي، فأطلتُ النّظر في مقلتيها كأنّي أحسِبُ عدد رموشها فأجبتها:

(فصّلتُ لغتي على مِقْيَاس اختلافنا فِي جمالِ الوجه الظاهري)

ولأنَّها أذكى مِمَّا توقعتُ؛ قالتْ:

(أتدري إِنَّها لغتُنا المشتركة؟، وستكونُ لغة حوارنا في الجامعةِ حَتَّى التخَرُجِ؟)

توقف نبضُ قلبي عند عبارة «حتَّى التخَرُجِ» وضمير المتكلمين «نـــا»، فتمثّل لي نون الضمير شرياناً مُتَّصِلاً في نياطِ قلبينا في محلِّ دعوةٍ مواربةٍ للتّلاقي.

وتمثّلَ لي حرفُ السّين:

لغةً: تكرار تلاقينا.

واصطلاحاً: تأكيدُ وقوع تلاقينا.

تذكرتُ نقاشنا عن الحجر فسألتُها:

(للّه أنْتِ، فما فهمكِ العميق لمعنى الحجر؟).

أجابت بحذر كمن يحبس قلبه من الفرار:

(طَالمَاَ أنّ الحجر مِنْ الدُرَرِ النفيسة، ويحمل ﴿ جوفه العنبر، فَمِن الطبيعي أَنْ يحملَ معنى أغلى مِن الدُرَرِ نفسها، سأكشفُ لك يوماً معناه كيفما اتفق).

وعندما كشفتْ لي بعد حين، عن لغتها الإشارية لمعنى «الحجر» اضطرب كياني من جرأتها، وتعمّقتُ معها ﴿ جرأتها، حتى بلغ منها الخجل وغاب صوتها تماماً، واختلجتْ نبراتها وتحطَّمَتْ..... ولم تنبِسْ بكلمةٍ.

●●●

بدأ حديثي يدغدغُ مشاعرَهَا، وكلماتي تتحكّمُ ﴿ ضبطِ خفقانِ صدرِهَا، ونظراتي تجرِّدها مِن عقلها، وتلسعُ مفاتنها، وهي مستسلمة لحديثي.

رأيتُ فتاة تجولُ حول الكافتيريا ﴿ إقبالٍ وإدبار، فتجاهلتْها محدِّثتي، فأيقنتُ أَنّها صديقتها. باستطاعتي إنهاء مائدة التعارف، وأراها متى ما أشاء، فلا خوف مِن انقطاع تواصلنا بعد اليوم.

سألتُها:

(أليست تلك الفتاة صديقتكِ التي كنتِ تنتظرينها؟).

أفاقتْ مِنْ غيبوبة خيالِي، وعاد إليها صوابها وردّتْ:

(بلى! وليس مِن اللياقة تجاهلها، سألحقُ بها).

وقبـل أن تلحـق بصديقتهـا... كانـتْ بـذرة علاقاتنـا الأدبيـة، قـد توطـدتْ فِي قلبينـا كتوطيـدِ أوتـاد الجبـال الضاربـة فِي باطـنِ الأرضِ.

نهضتْ للمغادرةِ. وعشتُ فِي لحظةٍ واحدة أديمُ النّظرَ إلى وجهها، دهراً طويلاً مِن السَّعادة! قالت:

(لا يسَعُني إلاّ أنْ أشكرَكَ على سَعةِ مجلسك).

(صحبتْك السلامة).

نَسيَتْ حقيبتَها، فلمّا ولَّتْ ناديتُها:

(عفواً، حقيبتُكِ اليدوية قد نَسِيَتْك، وما كنتُ أحسبُ أنّي أستطيعُ أنْ أسلبَ عقلَهَا كما سلبتُ عقل صاحبتها كذلك)

ابتسمتْ ابتسامةً عذبة:

(وتجيدُ لغةَ رسم الكلمات مِن أسفل إلى أعلى؟ إذنْ لي معك غداً شأنٌ مِن الشؤونِ).

●●●

ابتسم لي الحظ مرَّةً أخرى، أنْ تكون صديقتها مِن مدينتي الشرقية، فكانتْ حلقة وصل بيننا، عندما نزلتْ بي ذات يوم نازلةٌ مِن نوازلِ الدّهر حين فرَّقتْ أُسرتها بيننا لأسبابٍ مُوغِلَة فِي التعالي العرقي ورفض الآخر.

عدتُ إلى حجرتي بالمجمّع السكني للطلاب على مقربة مِن مستشفى العيون بالجامعة وصوتها الموسيقي يعزفُ فِي أُذُنيَّ أعذبَ الألحانِ.

●●●

إيقاع لُغة «الهُب»

فـرَّ قلبـي فـراراً، وانعقـدَ لسـاني فـلا يـكاد يُبـين، عندمـا تلاقيـتُ مـع زملائـي الطُـلاّب والطالبـات فِي أولـى محاضراتـي للتّعـارف.

آه.... فرحتـي بدخـول الجامعـة، أنسـتْنِي أنّـي لا أتحلّـى بالشـجاعة الأدبيـة. فمـلأ ذلـك قلبـي همّـاً وغمّـا.

البارحـة، تعرّفْـتُ علـى سـلوى، فأيقنـتُ أنَّنـي أسـعدُ الطُـلاّب طُـرّاً. فهـذه هـي الجامعـة الّتـي أنشـدها، والتـي سـهرتُ مـن أجلهـا، فـاذا سـعادتي دون التحلّـي بالشـجاعة الأدبيـة، مقبـرة موحشـة.

أجل، كنـتُ أتـوارى خَجَـلاً فِي المدارس الثانويـة. وأمسـكُ عـن الإجابة فِي الحصـص. وأتجنـبُ المناسـبات الاجتماعيـة، ولكـن لـم أحسـبْ أَنَّهـا الشـجاعة الأدبيـة التـي ستسـلبُ منّـي سـعادتي.

ولعـلَّ بيئتـي الريفيـة، وانغـلاق نفسـي فِي الحيـاة الزراعيـة حينـاً، والرّعويـة آخـر، غرسـتْ فِي نفسـي حـبَّ الانطـواءِ فمزّقـتْ شـجاعتي الأدبيـة تمزيقـا.

انتشـرَ الطُـلاّب بعـد المحاضـرة أزواجـاً وجماعـاتٍ، يتعارفـون، فوجـدْتُ نفسـي زاهـداً فِي الاختـلاط بهـم؛ فانزويـتُ بعيـداً، تحـتَ ظـلّ شـجرة وارفـة الظـلال، لبثْتُ فيهـا سـاعات طـوال متخـذاً وحدتـي خليـلا.

ولـم أرَ أحـداً فِي الجامعـة أحـزن منّـي وأشـدّ التياعـاً، ولا أشـقى كآبـة، وتمثَّـل لـي أنّ أيَّامِـي القادمـة، إمّـا موتـاً حاضـراً، أو لحـداً منتظـراً!

ولكن...

هَلْ عَدَمُ التَحلّي بالشجَاعةِ الأدبية لا يصنع معجزة؟ وما وجْه الاستِحالة في ذلك؟

أليس مقدار الصفات الزائدة عن حُسنِ الخُلُق هي التي لها أعظم شأناً، وأعلى منزلة في نهاية الأمر؟

ألا يقوم مقدار الصفات الزائدة عن حُسنِ الخُلُق، مَقام النّقص في الشجاعة الأدبية فتصنع معجزة؟

●●●

رحتُ أتساءلُ: كيف لي أنْ أندمجَ في المجتمعِ الجامعي؟ لقد استفزّني انطوائي وخجلي؛ فلا عزاء لي إلاّ اقتحام مجالسهم مهما كلَّفَني ذلك مِن عذاب، إنّها ليستْ حياة، فحياة المقبور أكثر شغفاً منّي. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

دَلَّنِي قلبي على اتخاذ صديقٍ؛ ليشدَّ مِن أزري. ريثما يذهبُ عنّي الانطواءُ والعزلةُ. وبعدها لكُلِّ حادثٍ حديث.

ما لبثتُ إلاّ قليلاً، حتَّى ساقَ اللّهُ لي شاباً عركه الزّمنُ عَرْكَ الأديمِ. وطحنه طحن الرّحى بِثفالها. كان ذلك الشاب هو فاروق «كرنكي»

كانَ لِي صَدِيقاً في الطفُولةِ، ومِنْ بَنِي قبيلتنا، كُنّا مُتَزَامِلين في الفَصْلِ، ومُترافِقين في القرية، إلاّ أنه شقّ طريق دراسته بنجاح، بَيدَ أني أبطأت في المرحلة الابتدائية لانشغالي بالرّعي.

وكان «كرنكي» قصيرًا بيّن القُصر...والقصير إمّا فتِنة، وإمّا حِكمة... والحقُ كان عبقريًا حكيمًا، وهو في الثالثة والعشرين مِن عمره، كأنَّه في السبعين مِن عمرِهِ معرفةً وعلما. كانَ شديد العقل، حاضر الحجة، بعيد الرؤية، وما أردت خصلة مِن خِصَال الشهامةِ، أو رأياً مِن الآراء الصّائبة إلاّ وجدتهما فيه.

علم بِقُدُومِي إِلى الجامعةِ، فجاء لتجنيدي للتنظيم الديمقراطي الّذِي ينتمي إِليه، وهكذا بدأتُ خطوتي الأولى للاندماج مع المجتمع الجامعي بالاستعانةِ بصديقِ الطفولةِ.

كان «كرنكي» فذّاً في التأليف، ومن أشهر مؤلفاته، كتاب الخطة العاطفية «**إسْقاط قلب الفتاة... في شراك الدهاة**» وهو كتاب كثير الفائدة، جمّ النفع وله في المقالاتِ الحائطية الخاصة بالسِّياسةِ كلامٌ.

وكنتُ إِذا حزبني أمر لجأتُ إِليه، فينظر فيه نِظّرة الثاقب الحكيم. فتأتي آراؤه مطابقةً للواقع، ولطالما قرعتُ سنّي، وكسرتُ قوسي، كلّما خالفتُهُ فِي أَمْر.

يُعَاني «كرنكي» مِن فارقٍ في طول رجليه لعيوبٍ خُلقية؛ فينتعل حذاءً طبيًا في رجله اليمنى لتعويض الفارق مع رجله اليسرى. وعندما يسير، تحدث رجله اليمنى إِيقاعَاً على الأرض، ومِن هُنَا نُسِب لقب «كرنكي» إِلى اسمِه

●●●

لساعات مضت، تساءلتُ أَيْنَ أذهبُ لأروّحَ عن نفسي؟ حملتُ «طنبوري» فشققتُ طريقي إلى الجامعة للتعرّف على ملامح هذا الصّرح العظيم، وما كنتُ أحسبُ لحظتها، أنَّ هناك شخصًا أجهده البحث عنّي منذ بزوغ الفجر حتى الساعة.

وجدتُ الجامعة، تحفة معمارية ساحرة، تطلّ على شارع النيل، شيّدتها الإمبراطورية البريطانية على طراز المعمار البريطاني، وافتتحها اللورد كتشنر باشا في عام ١٩٠٢م تخليداً لذكرى غردون باشا، حاكم السودان خلال فترة الحكم الثنائي المصري الإنجليزي، الّذِي اغتاله أنصار الثورة المهدية في عام ١٨٨٥م عندما اقتحموا الخرطوم عنوة واقتدارا.

علمتُ بعد حين، أنّ الجامعة احتلت المرتبة الخامسة في أرجاء الإمبراطورية من حيث التصميم المعماري البريطاني الخالد إلى يومنا هذا.

تجولت في مباني الجامعة ما شاء لي أن أتجول، راح بعض الطُلّاب يتسكعون في الطريق الرئيسي، وهو طريق ظليل يمتد من بداية مدخل الجامعة جنوباً، ويتوسط كليتي القانون والعلوم الإدارية، وينتهي عند مكتبة الجامعة شمالاً.

وعلى جوانب شوارعها، جلست الطالبات على مقاعد صُبت في قوالب إسمنتية، وصُفّت في نسقٍ مُرتب، وطالبات من حملة الشهادة العربية ينشدن السعادة، والحب، والهيام بوجوه تتجلى بشاشة. وفي أرجائها غُرست أشجار عظيمة وارفة الظلال، أما أرضيتها، فتغطيها نجِيلة طبيعية، وعشب أخضر.

وتضُمّ الجامعة عددًا من الكليات والمعاهد والدراسات العليا، ومركزًا للخدمات الطبية، ومجمعات سكنية للطالبات، وأخرى للطُلاّب وهي ثكنات قديمة للجيش الإنجليزي.

●●●

بينما أنا جالسٌ تحتَ شجرةٍ وارفةِ الظلالِ في الميدان الشرقي، أُقَلِّبُ الطرْفَ، وأتأمّلُ في عظمة الجامعة وتاريخها، وأفكّرُ كيف أتفاعلُ سريعًا مع زملائي الطُلاّب، بغتة توقفتْ سلوى أمامي -جليستي البارحة-.

تقول في هالةٍ من العُجالة:

(في أية بقعةٍ من الأرض كان مطرحك؟ لقد أجهدني البحثُ عنك منذ بزوغ تباشير الصباح).

قلت لها وضرباتِ قلبي تزداد خفقاناً:

(تبحثين عنّي؟ ما وراءكِ؟).

(لا تغادر مكانك هذا أبدًا، وإن وافت الشّمس غروبها)

غابتْ عن ناظري مسرعةً.... بل مسرعة أشدّ الإسراع، حتى لا تكاد تطأ قدمها اليُسرى على الأرض، فترفع الأخرى، وتركتْني جالسًا أضربُ أخماسًا لا أسداسٍ، وأتساءلُ متى توثّقتْ علاقاتُنا حتَّى تبحثُ عنّي؟ إنَّ في الأمر لعَجَبَاً حقاً.

●●●

ولـم يلبـثْ كثيـرًا حتـى رأيتُهَـا قـد أقبلـت، وخلفهـا عـددٌ مِـن حسـان الطالبـات، فخفـق قلبـي جزعـاً؛ نهضتُ دفعـة واحـدة مذعـورًا كآلـة ميكانيكيّـة.

تفرّسـتُ في وجوههـنّ، ولشـدّ مـا اسـتولتْ علـيَّ الدّهشـة، وعَلاَنِـي الارتبـاك عندمـا قدَّمتْنِـي لهـنّ بلهجـة تنِـمُّ عـن معرفـة وطيـدة، بـل وطيـدة جـداً بيننـا:

(اسمحن لي أن أقدم إليكنّ الزميل أحمد بيلّو مِن كُلية الآداب).

صافحـتُ أَيْـدِي ناعمـةً، رخصـةً، بضّـة، ثـم قدمتهـن إلـيَّ وهـي تقـول (اسـمح لـي أن أقدّم إليكَ طالبـات مـن حملـة شـهادة الماجسـتير والدكتـوراه في اللغـة العربيـة وآدابهـا). افترشـن النَّجيلـة العُشـبية، فأرسـلتُ نظـرة فاحصـة في وجوههـنّ، فرأيـتُ وجوهـاً ناعمـة، وبسـماتٍ سـاحرة.

قلتُ، وقد تهدَّج صوتي وتخلخلت نبراته:

(ما أسعدَنِي بالتعرّفِ إليكنّ!).

وانتابتْنِـي نوبـة الخـوفِ التِـي ظلّـت تُلازمُنـي عنـد جلسـات الأُنـس والسـمر. وكان الخـوف يسـيطر علـى جميـع حركاتـي سـيطرة لا سـبيل إلـى مغالبتِهَـا. وبإمـكان الطالبـات أنْ يدركـن أنَّ قلبـي يخفـق بشـدّة.

حدَّثتْنِي نفسـي بالفـرار، ولكـن سـلوى حالـت بينـي وبـين ذلـك، عندمـا أحسّـتْ بـأَنَّ حواسـي تنطـقُ، فسـألتني بـلا تحـرّج وبصراحتهـا السـافرة:

(ما بالك مسرفٌ في الوجومِ والتوترِ؟ هدئ روعك!).

خجلـتُ مِـن نفسـي، ونظـرتُ إليهـا نظـرة اسـتغاثة، شـعرتُ بأهدابهـا ترسـلُ وخـزاً في قلبـي؛ فهدَّأَتْ رَوْعِي، وسـقتني شـجاعةً أدبيـة غيـر منتظـرة.

سـادَ صمـتٌ رهيـبٌ بينهـنّ وهـنّ يتبادلـن النظـرات، فرأيـتُ سـلوى تُخْرِجُ مِن حقيبتِهَا اليدوية دَفْتر محاضراتِها، وقلمٌ أنيق، وتفتحُ صفحاتٍ بيضَاواتٍ، ثـم تُثْنـي الدّفْتـر؛ تمهيـداً لتدويـن شـيءٍ مُرْتَقَـب.

ثمّ خاطبتهنّ قائلة:

(هيّـا نبـدأ، ولتطـرح كُلّ واحـدة منكـنّ سـؤالاً واحـداً فقـط، ولتكـن الأسـئلة كيفمـا اتفـق)

والواقع لم تعلمني سلوى لِمَ دعتهنّ، وأية أسئلة سيطرحن.

وفجأة ألقتْ إليّ أشجعهنّ سؤالاً:

(أحـاط علمنـا، أنَّ كلماتَـكَ سـهلةُ الألفـاظِ، صعبـةُ المعانـي، يحـارُ في بهائهـا طـرفُ البصيـرِ، ولـو خُوطـب بهـا الصّـمُّ الصُـلاب؛ لطربـوا! فبـالله عليـك بأيـة لغـة كنـتَ تحـادثُ سـلوى البارحـة؟).

رَكِبَنِي غرور الشَّيْطان؛ فأطلقَ لساني عنانه:

(عنـد مأدبـةِ التّعـارُف، تحدَّثنـا بلغـةِ المعرفـة، وكان مجراهـا العيـون، وعنـد الحـوار، تكلمنـا بلغـةِ الخيـال، وكانَ مجراهـا القلـوب).

رأيتُ سلوى تُدَوِّنُ إجاباتِي فِي دَفْترها، فقالتْ أنضرهنّ خداً:

(أحسنتَ، وما الفرق بين اللغتين يا تُرَى؟).

ترمقُنِـي سـلوى بنظـرةِ إعجـابٍ وابتسـامة، وتُصْغِـي إِلـيَّ بمتعـة لا نهائيـة؛ فيلتهـبُ خيالـي وأجيـبُ بثقـة:

(إنّ لغةَ المعرفةِ محدودة المعنى، ويُعْرَفُ المُرادُ منها باللحظ، ويُفهم باللفظ، ومداد كلماتها نور العقل).

فقالتْ أسحرهنّ طرفاً:

(أصبتَ، وما لغة الخيال؟).

امتدّتْ إِليّ الأنظار:

(إنّ لغة الخيال واسعة المعنى، ويُعْرَف المُرادُ منها بالموارية. ويُفهم بالتورية. ومدادُ كلماتِهَا سحرُ الجمالِ. وتتميّزُ بحرارةِ رَنَّاتِهَا، وجزالة ألفاظها، ودِقَّة معانيها؛ لذلك كانتْ صعبة المعاني. ولا يفهمها إلاّ ذو النفس الجميلة).

وألقيتُ بصري نحو سلوى، فرأيتُ وجنتيها قد احمرّتا.

قالتْ أرشقهنّ قَدّاً:

(قل نصًّا ظاهرًا بالرمز، ومحجوبَ الدلالة).

اعتدلتُ في جلستي، ورحتُ أخاطب سلوى وحدها، كأنَّها هي التي ألقتْ إِليَّ بالسؤال؛ فأطرقتْ حياءً:

(الحياة الجامعية «نسمة حُبٍّ» عليلة، تتسلّلُ إِلى روحي كُلّ صباحٍ، فتداعب قلبي، وتشرح صدري. علمتُ تواً أنَّ جليستي البارحة، كانتْ تِلْكَ «النّسمة»).

وقالت أعذبهنّ صوتاً:

(للّه دُرّكَ! فقد شعللت قلبها)

كلماتي، أحدَثت زلزالاً عنيفاً في قلبِ سلوى، فنهضتْ وغابتْ عنَّا قليلاً، ثمّ إِذا هي تأتينا بشطائر وعصائر، فأصبنا مِن المأكل، ثم أفضنا في المشرب.

قالت أضخمهنّ صدراً:

(أظنّك كاتباً، فكيف وجدتَ الكتابةَ قبلَ أنْ تفوحَ نسمتُكَ؟ (وأشارتْ براحتها إِلى سلوى).

أجبتُها وأنا أطردُ شعوراً بعدمِ الارتباك:

(فنٌّ عسيرٌ لا يخوضُ نَقْعَ تجربتِهِ إلاّ مَنْ غاصَ في بحارِ اللغةِ العربية. وظفر بناصية الأدبِ، وتزوَّد بالشّعرِ، ونهل مِن النّثر، وملك حاسة الإبداع)

قالت أطولهنّ جِيداً:

(إنَّ مِن البيان لسحراً! وكيف وجدتَ الكتابة بعد أنْ فاحتْ نسمتُكَ؟)

داعبتُ شاربي خُيَلاءً:

(فنٌّ ممتعٌ، لا يضاهيه فنّ، ففي مداد كلماتها وجدتُ «سلواي» فتوهّجتْ كلماتي كتوهّجِ البريق في الألماسِ، وتراقصتْ كتراقص الفتاةِ في الأعراسِ، وسيكون قلمي ملاذاً آمناً لمشاعرِهَا)

قالتْ أثقلهنّ وزنًا عندما رأتْ آلة «الطنبور» الّتي كنتُ أحملها:

(ما العلاقةُ بَيْنَ الموسيقى والشخص الجبان؟)

أجبتُ بعد أنْ تسلّحت بالشجاعة:

(الجبان يتكلف القتال تكلفاً، لذلك وُضِعَتْ المارشات العسكرية ليدبَّ الحماس في قلوب الجبناءِ؛ فيكون الجبان أشجع المقاتلين بأساً).

قالت أطولهنّ قامة:

(وما العلاقةُ بَيْنَ الموسيقى والشخص البخيل؟)

كنتُ قد قرأتُ ذلك إبّان فترة ولهي بالمطالعة واقتناء الكتب:

(عندما تداعبُ الموسيقى خيالَ البخيلِ، لن تُبْقى له جارحةً، إلاّ وتمنّتْ أنْ تكونَ هي أُذُنٌ تشربُ مِن الموسيقى؛ فيشق البخيل قميصَهُ مِن غَلَبَةِ الموسيقى، ويفعل أفعال المجانين، فيكون سخياً ساعتئذٍ)

توقفن قليلاً عن طرحِ الأسئلة وتبادلنا الهمساتِ، ثم قالتْ أوسعهنّ جبيناً:

(ما العلاَقة بين الموسيقى والعجول النافرة؟)

كنتُ قد قرأتُ ذلك أيضاً:

(عندما تتوحش العجول في مرابطِهَا، ويصعبُ ترويضُها، يتمُّ تطريبها بالألحانِ الشجية، فتطيب نفسها، ويسهل ربطها بالعقالِ)

سألتني حوراء الطّرف:

(أيُّهما أخطر تأثيراً، الخمر أَم الموسيقى؟)

كنتُ أعلم أَنَّ الخمر أكبرُ الكبائرِ، ولكن لشيء في نفسي قلتُ:

(سُكْر الموسيقى أشدّ خطراً من سُكْر الخمر! لأَنَّها تؤثر في القلبِ وتفعل ما لا يفعله الخمر في العقل).

ضربتْ صدرَها الكبير النافر كرُمّانتين:

(لم تصب في هذا!)

أجبتُها بهدوء:

(لأنَّ سُكْر الموسيقى يُهَيّئ الحواسَ الخمسُ كلها إِلى نشوةِ «الهُبِّ»، وسُكْر الخمرُ تُنفّرها).

أطلقنَ ضحكاتٍ موسيقية متواصلة، رافقها صريخ أشبه بالهستيريا، لا أعلم أمبعثها قوة حُجَّتِي، أم لُكْنة حروفي.

قالتْ نفسُ الطالبة:

(صدقتَ أنّها تنفر «الهُبّ»)

ونَطَقَتْها كما نطقتُها أنا تماماً، فضحكتْ سلوى ضحكة رقيقة ناعمة، وقالتْ مخاطبةً الطالبةَ التِي ألقتْ السؤالَ:

(وحياتكِ... وحياتكِ لقد دونتها «الهُب» تَمَاماً كما نطقَها)

سألتْنِي مليحةُ النَّحْرِ:

(أحسنتَ، والسؤال الأخير يقع هكذا، مع علاقة هذا الطنبور بهذه الطالبة --وأشارتْ إلى سلوى؟).

فكرْتُ ملياً فأجبتُها:

(إنّها تصفي ذهنَها، وتنعشُ فهمها، في المحاضرةِ).

قالتْ إحداهنّ:

(هيّا أعزف لها مقطوعةٍ موسيقية لنسألُهَا لاحقاً هل استوعبتْ المحاضرة؟).

والحقّ، لا يجْرِي في صوتي قاعدةٌ مِن قواعدِ النّغمِ، وبصوتٍ يكاد يخذلني، عزفت لسلوى كلمات الشاعر السوداني الهادي آدم، التي غنّتها كوكب الشرق السيدة، أم كلثوم، ولكن نغمات الطنبور الرّخيمة، طغتْ على صوتي الغليظ، الّذِي هو إِلى صوتِ البُوم أقرب، فنجوتُ مِن إحراج محقق:

أغدًا ألقاك ألقاك يا خوف فؤادي من غدِ

بشوقي واحتراقي في انتظار الموعد

أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني

أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني

قالتْ سلوى لصويحباتها فخراً:

(مَنْ سمعتْ منكنّ هذا الغناء ولَمْ ترتحْ له؛ كانتْ عديمة الحِس؛ سقيمة النفس).

أجبتُ سلوى كأنَّما ألقتِ السؤال إِليّ وحدي:

(أصبتِ! فالموسيقى تشعلُ النّارَ في قلب طالبِ الآداب، وتجعل عيون طالبة العلوم تدمع).

وضجَّتِ الجلسةُ بالتصفيقِ والهديرِ، ونهضن جميعاً للمغادرةِ دونَ أنْ أعرف أسباب أسئلتهنّ.

تهامسن قليلاً، وقلن جميعاً لسلوى بصوت واحد:

(نجاح)

ودعتهنّ بالمصافحةِ، أبطأتِ سلوى لتسوّي طرحتها، فنظرت إليّ لتفاجئني:

(أهنئك مِن صميم فؤادي بنجاحك في الصفة الأولى من «**صفاتي السبع**»)

صمتتِ برهة ثمّ أضافت بأسى عميق:

(ليت شعري، أجدُ فيك بقية الصفات)

أمسكتُ رأسي متعجباً فسألتها بدهشة عظمى:

(الصفة الأولى؟ أيّ صفاتٍ أخرى تشيرين؟).

تنهّدتِ، فأرتفع صدرها المكتنز، وقالتِ:

(لقد أعجبني جداً خيالك البارحة، فمضيتُ مِنْ ساعتهِ أبحثُ عن أحذقِ الطّالباتِ في كُلية الآداب مرتبة الشرف لمحاورتِكَ، والآن يمكنُني القول إنّني كنت أبحثُ عنك، لأنّي أتلذذُ بطعمِ النِّقاش في الأدب).

أحسستُ أنّي أمشي فوق الهواء، وأطيرُ فوقَ السّحاب مِن فرط إعجابها بخيالي.

سألتها بكلمات من الغنوة نفسها:

(واطرباه! وإنّي أفتخرُ حقًّا بذلك، أغداً القاكِ؟).

ألقتْ إلـيّ نظرة حائرة ومترددة، بين القبول والرّفض، ونظرتُ إليها نظرة المتوسِّل المستعطف ألاّ تُخَيِّب رجائي.

أومأتْ رأسها بالموافقة:

(مثلك لا يُرد له طلب بعد اليوم، ولكن ستكون مناظرة بيننا لنرى لمن تكون الغلبة).

●●●

مضتْ إلى سبيلها، تعلّق بصري بها حتّى غابتْ عن ناظري. أحسستُ أنَّ قلبي كان فضاءً قبل موافقتها، فإذا به يمتلئ حباً في سويدائه حتّى ثمالته.

●●●

المُناظرة بالشوكولاتة

في قلبِ حبيبتي، ثمرةُ حُبٍّ دانيةٌ تنتظرُ مَنْ يقطفُها، ثمرةُ حُبٍّ نائمة تبحثُ عَمَّنْ يبثُّ سحره فيها ليوقظها، ثمرة حُبٍّ ناضجةٌ، مرتويةٌ بعصارةِ الجنون العشقِي؛ ظلّتْ تنتفِض تبحثُ عَمَّنْ يأخذ بها إلى دنيا الغرام...

●●●

في صباحِ يوم المُناظرة، استيقظتُ مِن نومي بمواقيت دقّات قلبي، ولساعاتِ اللقاء الأجمل، أخذتُ زينتي ودهنتُ نفسي عطراً، امتطيت فرس الحُبّ الجَامِح، وعلى إيقاع حوافره، مضيتُ صوب المَيْدَانِ الغربي لمناظرة الحُبّ الّذِي سيهزمُنِي إغداقاً ويغرقُنِي إغراقاً في لُجَّتِهِ.

ذهبَ بِي الخوفُ في بادِئ الأمَرِ كُلّ مذهب. ولكن نَفَيْتُ عَنْ نَفسِي خَوَاطِر الفِرار، فخلوتُ بنفسي ساعةً أعالجُ اضطرابَ قلبي، وحَيْرَة نفسي.

وإنّي لكذلك، إذْ رأيتُها قادمة ترفلُ في ثياب الحُبّ، توجّهتْ نحوي لتصافحني؛ فشَخَصَ بصري، خمدتْ أنفاسي، وخفق قلبي وارتجَّ حتَّى كاد أَنْ يحطم ضلوعي، وأحسستُ أنّي سأموتُ واقفاً كنخلةٍ وحيدة.

صافحتْنِي بيدٍ طرية. شعرْتُ بتيارِ الحُبِّ يسري في أعصابي كلَسعَةِ كهرباء فجائية. جلسْنا في عزلةٍ مجيدة، على أرض ياقوتة، غدتْ في بُرْدَةٍ خضراء. تحيطُ بها أشجارٌ كثيفة على شارعِ النّيل، وكان الهواء طلقاً، والجو صحواً.

أخرجتْ مِن حقيبتها حافظة مِياه صغيرة، ودفْتر محاضراتِهَا، وقلم أَنيق، وصندوقا مليئاً بالشكولاتة، وقلبي مَا زَالَ يخفقُ بشدة.

ناولتْني قطعتين مِن الشكولاتة، وماءً ذلالاً. أخذتْ هي قطعة شوكولاتة ووضعتْها فِي فمِها برهة. فذابتْ زبدتُهَا فِي حرارةِ فمِهَا بسببِ أنفاسِهَا اللاهثةِ المتلهفة لحديثي المنتظر.

سادَ السّكونُ بيننا برهة، ثمّ ابتدرتْ الحديث قائلة:

(تَكَرُّماً، صِفْ مجلسنا بلغةٍ تستلهم الخاطرَ، وتستوقف النّاظرَ).

نظرتُ حولي لعَلَّني أجدُ شيئًا أصفه فالتقتْ عينانا بُرهة، فأدركتني كبوة من شدّة سطوع جمال عينيها، فلم يفتح الله لي بكلمة.

أَحَسَّتْ بعجزي ثُمَّ أَعَادَتْ صياغة حديثها، كأنّها بدأتْ تتملكُ زمام المبادرةِ:

(الجوُّ صحوٌ يُوحِي بالشاعريةِ، والمكانُ خالٍ ويُوحِي بالطمأنينةِ، هيّا اقدحْ زناد فكرك، وأطلقْ العنانَ لخيالك، صِفْ ما حولك).

مرَّة أخرى، نفرتْ مني كُلُّ كلمة.

ولكن.... طاف بخيالي خاطرة: إِنَّ النّسوةَ وإنْ مَلَكْنَ الجمال لا يكتملُ جمالُهُنَّ إلاّ بالغزل.

انفجرت أساريري:

(ما دامتْ مناظرة، فلا ضير أنْ تسمعي مني كلماتِ الغزلِ).

فكَّرتْ بُرهةً ثُمَّ استسلمتْ:

(دونك وما بدا لك، ولكن رجائي أن تراعي حدود اللياقة)

رأيتُها تمصُّ الشوكولاتة مصّاً، فمازحتُها أوّلاً لعلّ لساني يطلق عنانه:

(أراكِ تخالفين قوانين الطبيعة، فالحلو يقابله الحامض، والسُّكّر يقابله الملح، ولكنّكِ حلوى تقابلين نفسكِ)

تجيبُ بأدّق عبارة:

(لتعلم قوانين الطبيعة أنّي أعطي الدُّنّيا شكل إرادتي!)

وجدتُ ذلك مدخلاً؛ فمضيتُ قُدُمًا فِي المناظرةِ فأجيبها بأرق أسلوب:

(أمّا أنا، فأخالف رصفائي بأني لا أجالس إلاّ أميرة تتحلّى بخصالٍ خمس!)

كلامُها عذبٌ زُلال، وضحكتُها بلسم:

(لا أرى إلاّ أنّك قد أجهدتَ نفسك للبحثِ عنها، فقل أوّلاً، ما هي خِصالها الخمس؟).

قلتُ فِي سري، سأنفثُ فِي أُذنها غَزَلاً من أرّق الكلمات وأمتعها:

(أولهنّ، أنّ تكون ذات وجه حسن وهي جماع تلك الخصال كلها، ومنطقها مقنع وهي أعظمها منزلة، وصحبتها ممتعة وهي أقواها

صلة، وأن تكون أديبة وهي الخصلة التي يدوم ودها، وعزيزة في أهلها بما أخصها الله بها ما لم يخص أحد سواها)

تُدوِّنَ الخصال في دفترها ترقيماً، وتترك أسفلَ كُلّ خصلة، حقلاً لتدوين إجاباتي.

ثُمّ أمسكتْ رأسها تعجباً:

(لعمرك، قلَّمَا وُجِدَتْ تلك الخصال في أميرةٍ واحدةٍ، فعليكَ الجلوس إذن مع أميراتٍ خمس)

اقتربتُ مِنْهَا حَتَّى لامَسَ نَعْلِي حذاءَهَا:

(لا أرى إلاّ أنَّ خصالَهَا مجتمعةٌ فيها، في مجلسي هذا، ومتفرقة في غيرها من الطالبات).

سحبتْ قدمَهَا. سألتْني:

(انظر ماذا تقولُ! فإنَّ لِكُلِّ شيءٍ دليلاً. فما دليلك الدامغ على أنَّها ذات «**وجه حسن**»؟).

لم أَزَلْ ممسكاً بكأسِ الماءِ التِي زوَّدَتْنِي به، أجبتها:

(تردد العربُ حديثًا: « **ثلاث يحيين القلب: النّظرُ إلى الماءِ، والخضرة، والوجه الحسن**» فالماءُ مبذولٌ في يدي، والخضرة تحيطُ بنا، ووجهك الحسن يتلألأ أمامي. أليس هذا دليلاً؟).

ضحكتْ مِلءِ فيها:

(عفواً، عفواً.. إنّه حديثٌ ضعيف. لكثرةِ رواياته بأكثر مِن وجه. فقد قيل –ثلاثة يجلين البصر، وثلاثة يحيين القلب، وثلاثة يطردن الحزن، وثلاثة يجلبن السَّعادة، فقد طاش سهمك الأول).

نظرتْ فِي دَفْتَرها وسألتْنِي:

(فما دليلك على أنّها «**تتمتع بالمنطق المقنع**»؟)

حاولتُ لمس حذائها ثانيةً لعل كلماتي تتدفقُ، ولكنها سحبتْ قدمَها بعيداً:

(قالتِ العربُ: للأميرةِ علامات «إنّها تقطعُ الأنفاسَ بعذوبةِ ألفاظِها، وتختلسُ الأرواحَ ببراعةِ منطقِهَا، وتذهلُ الألبابَ برخيمِ نغمتِهَا»).

ردّت بأسرع مِن نَفَس:

(مهلاً...مهلاً أَيُّهَا اللّص الأدبي! إنّها ليستْ مِن إنشائك، فقد تغزل بها دعبل بن علي الشّاعر فِي جارية. فلستَ أنتَ الشّاعر، ولا أنا الجارية، أوشكتْ سهامُكَ على النّفاد. فما دليلك فِي أنَّ «**عزّها لا يُرَام**»؟).

حار بي الدّليل:

(للأميرة علامات «كلامها ألينُ مِن الماء، وأعذبُ مِن الهواء، تطعمُ الطعامَ، وعزُّها لا يُرامُ، وجليسها لا يُضامُ، ولا يُرَوّع إذا نامَ»).

وقبل أَنْ تجيبَ أضفْتُ سريعاً:

(لقد أطعمتيني الطعام، وكلماتك لطيفة كالماء العذب وأنا آمن في حضرتكِ، هه؟).

أطلقتْ ضحكة هستيرية طويلة «هأهأهأ» وبلغتِ الضحكة مِن الشدَّةِ أنْ لمعَت في مِحراب جفنيها دمعات توشكَ أَنْ تتدحرجَ. اختزنت ذاكرتي تلك الصورة التي لا تزول ولا تُمحى أبداً، حتى التقيتُ برجلٍ مصادفة ذات يومٍ فضحك نفس الضحكة في صورةٍ صادقةٍ.... وفي دقة بالغة تماماً، فعرفتُ أنه والدها، آه.... لكنه انهال عليّ يومها، ضربا... ورفساً... وصفعًا... وبصقًا.

أجابتْ:

(هذا نثرٌ تغزل به طبيبُ العربِ الحارثُ بن كلدة يمدحُ شمائل العرب، فليس مِن إنشائك أيضاً).

عادتْ تضحك ضحكًا لا تستطيع كتْمُه، فأمسكتْ بفمّها لتخفي أسنانها النّضيدة، وتواصلُ:

(لقد طاشتْ سهامُكَ. ولكن لا بأس مِن التّمتع بالشوكولاتة، أتريدُ المزيدَ؟).

أخرجتْ شوكولاتة فالتهمتها، فسألتها بلذة اشتهاء شوكولاتية:

(ألا تتركين التهامَ الشوكولاتة؟).

تُجيب بطعمها:

(كلا. حتّى أحاورك محاورةَ الأكفاءَ بحديثك الأدبي، فالشكولاتة، تصفي ذهني).

وهذه إحدى شهادات الإعجابِ الصّادرة مِن قلبها، وموقعة بحُمْرَةِ شفتيها، ومزخرفة بجمالها، بأنَّ حديثي يسري في مفاصلها، ويدغدغُ مشاعرَهَا، ويرضي غرورها.

وَجدْتُ باباً مُمَهَّدَاً لتفعيلِ جُرْعَة الحُبِّ؛ فقلتُ:

(لكن حديثي إِلى الحُبِّ أقربُ منه إِلى الأدبِ، فلماذا توارين الحقيقة؟ وأرى أنْ تتعاطي الحُبّ كتجربةٍ، وأنا أصلح لكِ مدرباً).

طأطأت رأسَهاَ خَجَلاً، وهي تعبثُ في الأرضِ بقلمِهَا الأنيق وتجيبُ بضمير المتكلم الغائب:

(لعلَّك تريدُ أنْ تمتلكَ شعورها بالوكالة، لِمَ لا تتركها ترسو في أي بحرٍ تريد؟).

وافرحاتها! فضمير الغائب هنا إنها تعني نفسها...

فلمح في خاطري أن الكلام القبيح في موضعه، لربما أبلغ بيانًا وأمتع أسماعًا من الكلام الحسن في موضعه فقلتُ دون مواربة:

(لكيلا يأخذكِ الهوى بتياره الجارف، ويرمي بكِ في مصبِّ العشاق، فلا توجد سِترات للنجاةِ غير الالتصاق بحرارة صدر المدرب).

ارتبكت، وبسرعة ناولتْني شوكولاتة؛ لإخفاء ارتباكها، فالتهمتُها في ثوانٍ.

(هيّا صِفْ لي طعمَهَا بالتشبيه البليغ، فإنك تحسنُ الوصف).

تَمَعنتُ بحرية في وجهها في غياب نظراتها المتكسرة، فألْجَمَ لساني، ونطق قلبي:

(اكتشفتُ تواً أَنَّ الحُبَّ يُؤكَلُ).

التهب خدّاها ناراً، رأيتُها ترسم كلماتِي في دفترها، كأنّها تُرْسَمها بِحُمْرَةِ شفتيها.

أجابتْ بقلبِهَا ودون أَنْ تنظر إِليَّ:

(لعلّك تعيش في عهد المعجزات إذنْ؛ هات تشبيهًا آخر لأرى كيفَ يَبْدُو عَالمك)

ولو أنَّها أرادتْ عدم الخوض في تلك المشاعر، ما أعوزها تغيير الحديث، أحسستُ أنّي ثملٌ مِن أنفاسها،

سقط قلمها الأنيق مصادفة، فرفعته ملوحاً وأجبتُها:

(اكتشفتُ تواً أَنَّ الحُبّ يمكن لمسه).

آنستْ لهذه المعجزات فأجابتْ بخجلٍ:

(آه... ما أرحب خيالك! لكن يا للخسارة! سبقَكَ بها العندليب الأسمر عندما غنّى «أمسك الهوى بيدي").

وبدفء الحب أجبتها:

(ليس لدي غيرها، هاتِ بلاغة مِن عندكِ لتشاركيني في بناءِ عالمنا الجميل).

تضرَّجَ وجهها حياءً فقد **أصابتها سهام الحب وصرعتها**:

(لمْ أُهيِّئ نفسي لمناظرة الحب).

بَدَا لي أَنَّها مِن اللائي لم يتحصلْنَ على القدر الكافي مِن الحرية للتعبير عن آرائهنَّ ومشاعرهنّ الجياشة التي انتابهنَّ إبان ثورة المراهقة، ممّا جعلها تنطلق اليوم بحماسٍ غير معهود خلف عواطفها المتأججة بمفردها، لإفراغ طاقتها.

ألححتُ عليها إلحاح اللجوج أَنْ تجيبَ:

(أَلَسْنَا في مناظرة؟ هيَّا هاتِ معجزة، وإلاّ ستكون الغلبة لي).

حركات الحُبّ لا تُخْفَى، وبعد لأي قالتْ:

(اكتشفتُ تواً أَنَّ الحُبَّ قد يُمْتَطَى كالفرسِ الأصيلِ).

اضطربت دواخلي، فسألْتُها:

(استحلفك بالله كيف يمكن امتطاء الحب؟)

ردَّتْ بنظراتِ منكسرة حياء وخجلاً:

(إِنَّه فرحك المؤجل بعد أَنْ تتوفرَ فيك «الصفات السبع»).

فطنتُ أنَّها دعوة متوارية لطيفة منها للاسترسال في حديث الحب فسألتُها بلهفةِ الشّوق:

(يحقُّ لِي سؤالكِ، هل أحببتِ مِنْ قبل؟ ومن هو ذلك الرجل السعيد الّذي رأى ليلة القدر؟).

بَانَ على محَيَّاها الخجل، فأجابتْ بعد جهدٍ جهيد:

(اتخذت قرارًا حاسمًا ألا أخوض تجربة الحبّ أبدًا).

لإثارة عواطفها سألتها:

(لِمَاذا؟ ومَا السبب؟ فهكذا تكون المناقشة وجدال العاطفة).

إِنَّها طوع إرادتي. وهي تجاوبني بلغة أدبية رائعة:

(أخاف ألمَ عذابه.... وطولَ سُهَادِهِ........ وشرودَ ذهنِهِ).

ردودها رائعة، محكمة، متقنة.

قالت تلك الكلمات، وعيناها ترقصان، فأجبتها بنفس ما عندها:

(لكن الخوفَ مِن الحُبِّ، هو أعلى درجاتِ الحب، فما قولك؟).

تجيب بلغة أخرى تعطي هذه المرة، اللفظ حظّه من المعنى:

(أعلى درجات الحبّ، أن يكون المُحب دائم الفكر .... طويل الصَّمت، لا يسمع إذا نُودِيَ. وإذا أصيب بجوعٍ فلا يدري، ألا تراني أبْصرُ مِنْ عُقاب، وأسمعُ مِنْ فرس، كثيرة الثرثرة؟، ألا تراني كيف التهم الشكولاتة بنهم؟)

إنها متحدثة بارعة، تجيب بكلماتٍ لم تطرق أذني من قبل!

تضاعف عجبي من لغتها كأنّها قررت أن تخوضَ في تجارب الحُبّ، فلا شيء يُوقف مسيرتها اليوم.

لن ترضى عن الحب بديلاً فتضيف بلهفة:

(لماذا أُخاطرُ بِهلاك نفسي الغالية، وأنا أستطيع غير ذلك؟ سأجعل الحب آخر الحِيل)

إنها أعجوبة حقاً.

أعادتْ النّظرَ في دفترها وتركتْني كالمخبولِ، وسألتْني:

(فما دليلك على أَنَّها «**أديبة**»؟).

كنتُ قد نسيت المناقشة لشدّ ما أجهدني التفسير في «كيف يمتطي الحُبّ كالدابة والفرس الجواد»؟ أجبتُها:

(رأيتكِ البارحة تُهذّبين اللغة الأدبية كاللؤلؤ حين ينثرُ)

فاجأتْنِي مفاجأة ليس بعدها مفاجأة:

(لقد أخذت هذا المعنى مِن بيتِ جارية هارون الرّشيد، عندما مدحتْ نفسها:

«**أنا الّتي لم يرَ مثلي بشرٌ... كلامي اللؤلؤ حين ينثرُ**»).

لقد جمعتْ حقًا بين الجمال والعِلم؛ فأضافتْ قائلة:

(تبقى لك سهم لتخسر المناظرة، فما دليلك على أنَّ « **صحبتها ممتعة**»)

أجبتُها متعباً:

(للأميرة علامات: مجالستها غنيمة، وصحبتها ممتعة، ومودتها عظيمة. ولا يخامرُني شكٌّ أنَّ صحبتكِ ممتعة. وإلاّ لما جلست معكِ ساعات طوال):

(أوشكتَ أنْ تُصيبَ هدفَكَ، سأمنحُكَ فرصةً؛ لكيلا تخسر المناظرة).

فقلتُ بسرعة:

(قالتِ العربُ: «مَنْ اختلجتْ عيناه ثلاثة أيام مُتَّصِلة، أبصرَ جليسه ثلاثة أيام مُتَّصِلة» وتاللّه لقد تكرر ذلك مع شخصكم فكيف رأيتم وقع سهامي الآن!).

ردَّتْ مستبشرةً:

(أمّا هذه فَنَعَم. التقينا ثلاث مرات متتالية، فقد أصابَ آخر سهامك أميرة واحدة. فافرد مزيدًا مِنْ السِّهام لتصيب الأُخريات).

لحظتها، أحسستُ أني قد وُلِدْتُ من جديد مِنْ رحم طالبة، فشعرتُ بعاطفة البنوّة تجاهها، ولكنها عاطفة بطعم الاشتهاء.

تنهّدتْ مِن الأعماق، وقالتْ:

(ما أروع خطابك الأدبي!).

أُلْقِي جناحيها في النّار وأجيبها:

(ولكن خطابي بلا حبّ! كنحلة بلا عطية، وشجرة بلا ثمر، ورعد بلا مطر).

وبخضاب الخجل تسألني:

(هَبْ أَنَّكَ وجدتَ الحُبَّ، فماذا يفيدك؟).

كَادَ الفرحُ يشقُّ صدري فأجبتُها:

(يُلَطِّفُ عقلي، ويسمو بروحي، ويُهذّبُ نفسي).

نشرتْ دَفْتر محاضراتها بين يديَّ، وقالتْ:

(أختم المناظرة بلغة الصّمت» **الحُبُّ يُلَطِّفُ العقلَ**» لأختبرَ مدى حضورك الذهني، لتكون أنت الفائز في المناظرة).

مُلامسة يدها البضّة أيقظتْ شهوةَ الكتابة بداخلي، فخلوتُ بفكري، فتدفقتْ كلماتِي:

«كان ثَمة طالب بكُلية الآداب، وُصف بالبلادةِ وعسر الفهم، فآيس منه المُحاضر فتجاهله أيّامًا ولياليَ.

وفي ذات مساء، أبصره جالسًا في الميدان الغربي مع صديقته الحسناء يبثُّ في أُذُنيها شجونًا، وفي المحاضرة سأله عن مسألة فأجاب، ثُمَّ بأخرى فأجاب فسأله:

(لقد أصبحتَ ذا بصيرة نافذة، وعقل ثاقب. لعلّك أحببتَ؟)

(إي واللّه)

(مَنْ؟)

(أديبة مِن كُلية العلوم)

(وماذا كنتَ تقول لها؟)

(قصتنا الجميلة: في قلب جليستي ثمرة حُبّ دَانِية تَنتظِرُ مَنْ يقْطِفُها)

قال المحاضر:

(الآن أتوقعُ نجاحك، فاقطف ثمرتها. فالحُبّ يُلَطِّفُ العقلَ.... ويُهَذِّبُ النفس...... ويسمو بالروح)

كسا محياها الرّضا فقالت:

(ما أجمل خيالك!، فلا مخافة منك بعد اليوم)

كدتُ أخرج من جلدي وأطير فرحاً، سألتُها بدهاء:

(ألا تخافين أنْ تصيبكِ نظراتي في قلبكِ؟ فإنَّ نظراتي سِهام رسول المنايا)

أجابتني بهدوءٍ:

(ستطيشُ نظراتكَ كما طاشتْ سهامكَ، فلن تلقى إلاّ جموداً إذا لم تتوفر فيكَ «**صفاتها السبع**»)

رحتُ أحدث نفسي سرّاً: «فيا لها من حياة طويلة حتى تتوفر في شخصي صفاتها السبع لأفوز بقلبها العاشق».

سألتها:

(يا لكِ من عالمة!، مِنْ أيْنَ مَنْبَع هذا العِلم؟)

تهذب عباراتها وتجيب:

(مِنْ رِحْمِ بَطْنِ هذا الكتاب)

وألقتْ بين يديّ أحد أركان كُتب الأدب «**البيان والتبين**» لمؤلفه أبي عثمان الجاحظ.

أجبتُها بجرأة ليس بعدها جرأة:

(فمن نفس الرحم وُلِدت، فأنا نُصفكِ الآخر، ولنْ تَكْتمِل حياتكِ إلاّ بنصفي، فليكن شعارنا «**أنا نصفكِ الآخر لحياتك**»)

أجابتْ بلهجة أهل قطر، وبصوتٍ دافئ جميل مقرون بدهشةٍ عُظْمَى:

(إيش دعوة؟ فلن تتمتع بحرارة الوصل، فعند الاجتماع بها كبدك ترتجفُ، وعند التلاقي بها مقلتك ترفُ، فأولى لك أنْ تبحثَ عن «صفاتها السبع»؛ لتنعمَ بِنِعَمِ الصحبة)

●●●

صوَّرتْ لها حواراتنا الأدبية، أنَّ حياتها في الجامعة مُغايرةً صَرْفاً وعدلاً عن حياتها في بُرجها العاجي بدولة قطر. فاكتشفتْ ما أحوجها لتلك الجلسات. فأعجبها خيالي، ولذَّ لها وحنَّتْ إليه.

افترقنا، وعدتُ إلى حجرتي، وذهبتْ بي الوساوس وسوء الظّنون لتفسير لغزها «**إنَّ الحُبّ يُمتطى كالفرس الجواد**» مذاهب سيِّئة إلى أنَّ فاجأتني به ذات مساء فشقَّت رأسي إلى نصفين، حتى صِرت أقولُ في نفسي: « ما أقذر ما في قلبي مِن سوء الظنون!»

●●●

انطلاق الخُطوط المتوازية

لأسبوع مضى، وقعت لي واقعة غريبة في كافتيريا كُلية العلوم، قليلة الشأن في ظاهرها، ولكنها كانت فصلاً مُهمّا في رفع شأن منزلتي في الجامعة، وخاتمتها اكتشاف زاوية جديدة مِن زوايا علم الحساب والهندسة، زاوية التقاء الخطوط المتوازية عبر صفتي العفو والتسامح. وإليكم ما جرى.

كان صباحاً ممطراً، هطل المطر مدراراً، تشرّب الجو بظلالٍ مِنْ الغمام يَحْجُب الرؤيا، وسال الطقس بردًا وقُرًّا،

تشكلتْ بِرك مياه كبيرة في أرجاء الكُلية، فوُضِعَتْ لوحاتٌ خشبية مستطيلة الشّكل فوق البِرك لتكون ممراً آمناً للوصول إلى فناء الكافتيريا.

اتفق آنذاك، أن جلس مجموعة مِن الطُلاّب على مقربة مِن صندوق الدفع ينعمون بوجبة الفول الدّسمة، فبرودة الجو أشعرتهم بالجوع، فانهمكوا في التلذذ بالأكل في صمتٍ ونَهَم،

توجهتُ نحو الصندوق لأطلب فطوراً، بيدّ أني سلكتُ أقصر الطُرق، فيكفي المرء خطوات ثلاث للوصول عبر الالتصاق بإحدى الأرصفة الضيّقة.

دنوتُ مِن الصندوق فقفزتُ عالياً، بل عالياً جداً، وما أنْ وطأتْ قَدَماي إحدى اللوحات الخشبية، حتى تناثرت المياه الملوّثة من إحدى

البِرك في وجوه الفئة التي كانتْ تتناول الفطور، محولة مجلسهم الآمن إلى بيئة آسنة من القذارة والطين فجذب انتباه الجميع.

ما أغباني! ما أفظع ما ارتكبته مِن تصرف! ماذا عساني صانعاً؟ هكذا أقبلتُ ألومُ نفسي.

نظرتُ إليهم بأسى، فشقَّ عليَّ الأمر، بدأ بعضهم يسِّبّ ويلعن، والآخر يرتجف مِن شدّة البرد.

أقبل طالبٌ نحوي مسرعاً بغضب عارم، فقلت لا مندوحة مِن الاعتذار، وتَحَمُّل ردةَ فعله مهما كان قاسياً.

كان أوّل ما قلتُه له:

(أتوسّل إليكَ أنْ تسامحني لسوء تصرّفي الأخرق)

ولكنّه هوى على خدّي بصفعة مُدويَّة.... اهتزت لها احشائي، وبصقَ في وجهي، على مرمى من عيون النّظارة والفضوليين.

رحتُ أُحدث نفسي، ألم يكن تصرّفي الأخرق قد دفعه إلى الغضب فصفعني؟ فَلِمَ الحزن إذن؟ ولِمَ الأسف؟

كان كُلُ شيءٍ يدفعُني لتطيِّب خاطره، تحملتُ الصفعة على مضض، وأما آثار سيول البصاق، فمسحته براحتي دون حرج.

ثمَّ جئتُ بكأسٍ مِن الماءِ، فأزلتُ البقع الطينية من قميصه حتَّى لا يَرَى آثارها إلاّ مَن أمعنَ النظرَ.

والأعجب مِن ذلك الأمر، أنَّني فعلت ذلك دون انتباه مِن المارة والفضوليين.

أحسستُ كما لو تولاه النَّدم، وودَّ لو قال لي: « اصفعني كما صفعتك. ...ابصق فِي وجهي كما بصقتُ فِي وجهك». لكنِّي وضعتُ يدي على عاتقه وعانقته عناقًا حارًا، وأثَّرتُ به ذلك الأثر الّذِي أرضاه، وأثلج صدره.

ما كنت أحسب لحظتها، أن هنالك شخصٌ آخر يصور المشهد، بعيون دامعة، وقلب حزين بموقفي النبيل ليفاجئني يومًا.

مضيتُ إلى الصندوق وتناولتُ شطيرة، جلستُ فِي مكان قصي أتلذذ بها، وبدأتُ أتناسى الأمر كما تعوَّدتُ.

وأني لكذلك، إذ توقفتْ أمامي فجأة فتاة فاتنة، ذات تقاطيع جميلة، متوسِّطة الجمال، تحمل عينين صافيتين، ووجهاً منبسطاً، وخصراً ضامراً، فصيحة اللسان، ولكنها تعاني مِن لثغة السين وتنطقها ثاءً عندما صافحتني قالت:

(الثّلام عليكم) وكانت تريد «السَّلامُ عليكم»

وسألتْنِي دون سبب جرى:

(هلاّ سمحتَ لي بإلقاء بعض الأسئلة من باب البحث. فأنا طالبة فِي علم (Anthropology). أقومُ بتحليل تباين نفوسِ البشر واختلاف طبائعهم؟)

نهضتُ واقفاً؛ فأجبتُها بتردّد:

(ما أسعدني! إنَّه لشرفٌ سيُمجد اسمي في بحثكِ).

وراحت تسألني السؤال الأول:

(يقول عالمٌ انثروبولوجي «**على قدر عزم المذكور بالحلم، يُمتحن صبره**»، لقد انهال عليك ذاك الطالب، سيلاً مِن الشتائم والسباب، فسرّني طبعكَ الجميل، وأنكرتُ سلوكه المشين، لِمَ لَمْ تصفعه كما صفعك؟)

أجبتُها بفطرتي:

(منذ الصبا، وطَّنّتُ نفسي على كفِّ الأذى، وطرحتُها عن الغضب، وأضمرتُ تعويدها على التخلّقِ بالصفات الحميدة، ليسدد الله خُطاي في كُلِّ أمرٍ جعلته أمامي).

دوَّنَتْ إجابتي وأجابت:

(طبعٌ جميلٌ، وسلوكٌ سليمٌ، لهذا سامحته ولم تشفِ غيظك، هه؟)

أجبتُها بتجارب من حياتي:

(نعم...نعم! سأظل أُسَامِحُ وأعفو ما دمتُ أحسُّ ببرد الراحة في نفسي، والسكينة في قلبي).

طفقتْ تسألني بأسئلة منتقاة، أسئلة تَمَّ إعدادها بعناية، وليستْ وليدة المصادفة.

ضيّقت عليّ بالأسئلة:

(كلامٌ جميلٌ، وقولٌ حكيم، وإنْ لَمْ تعفُ، فهل سيتولد في نفسك روح الانتقام؟)

(كلا! أحسُّ كأنّ حِملاً ثقيلاً يجثمُ على صدري، ويكتمُ أنفاسي، فلا مندوحة بالتحرُّر منه بالعفو).

رأيتُها تفتح صفحة ثالثة وتنظرُ إِلى السؤال التالي:

(طالما هذا طبعك، وهذا سلوكك، لا مراء قد مرَّتْ بكَ تجربةٌ مُشابهة في حياتك، فما كانت ثمرتها؟)

تذكرتُ عندما أطلقَ أحد الرّعاة يوماً، قطيعاً مِن الماشية في مشروعي الزراعي فأتلفَ محاصيلي، وضاع مجهودي بسبب منزلة قبيلتي الدُّنيا في نظره، عفوت عنه، فأكرمَنِي اللّهُ بغلّةٍ وفيرة في السنة التالية في موسم زراعي كان فاشلاً لكُلِّ المزارعين، تذكرتُ ذاك وأجبتها:

(ما عفوتُ عن شخص ظلمني غدراً، إلاّ أكرمني الله بأضعاف ما عفوت، ولا سامحتُ شخصاً قطّ عند مقدرتي بِردّ الانتقام، إلاّ التقينا ورأسه غاص في صدره مِن الشعور بالظلم)

تنبشُ سؤالاً آخرا:

(السؤال الأخير يقع هكذا، كيف تُوظّف هذا السلوك الجميل بأزمنة الفعل الثلاث؟)

فكرتُ ملياً، فوجدتُ إجابة مناسبة:

(سأشتلُ بذرة حُسن الخُلُق في قلوبِ العِباد، وأروِيها بالتسامح وأشذبها بالعفو، لأجني ثمرتها مستقبلاً).

وعلى حين بغتة، غمزتْني بعينيها الجميلتين غمزة طويلة، ذهبتْ بي الوسواس بتلك الغمزة مذاهب سيئة، وفجأة، أولتْنِي ظهرها وقالتْ وهي مبتعدة:

(كم أغبطك! .... لكم أغبطك! إنَّ الخطوط المتوازية انطلقت للالتقاء).

غادرتْني مُسرعةً، وشَقَّتْ طريقها مِن حيثُ أتتْ. لبثتُ أياماً أبحثُ عنها، لمعرفة ما تشير إليه، ولم أفلحْ في مقابلتها.

ولشدّ ما أجهدني التفسير من لغزها، طفقتُ أسالُ أذكى الطُلاّب في كُلية الهندسة عن مغزى التقاء الخطوط المتوازية.

بعضهم نظروا إليّ كأنّي بليداً جهولاً لم يزدني دخول الجامعة إلاّ بُعداً من العِلم. فجاءت إجاباتهم متباينة:

(إنّ مسألتك خارجة عن نسق قانون الحساب، وليستْ داخلة في نظرية الهندسة)

وبعضهم ضحكوا منّي وسخروا بي:

(إنها لن تلتقي إلى أبد الدهور، أتلتقي قضبان السكك الحديدية؟)

وحين يعرض الإنسان صفحاً عن أمرٍ أجهده، فمن شأن الأيام أن تكشفه دون التماس منه، حدث ذلك عندما التقيتُ بها ذات يوم، فأثبتتْ لي كيف تلتقي الخطوط المتوازية؛ فانشق رأسي إلى نصفين كزوج سروال مِن هَوْلِ النّظرية.

●●●

كانتْ لقاءاتي مع سلوى في الأشهر الأولى، أيّاماً جميلةً طافحة بالسَّعادة، لم تشبها شائبة، ولم يصدرْ مني أو منها ما يُكدّر صفونا.

أهدتني روايتها الأولى «**متلازمات السَّعادة.... في قلوب حاملات الشهادة**»، وهي رواية تتناول الحرمان العاطفي للفتاة السودانية المراهقة في دول الخليج، فيورثها لباس الخجل والكبت العاطفي، مما يجعلها تنطلق بحماس غير معهود في الجامعات السودانية خلف عواطفها المتأججة بمفردها لإفراغ طاقتها المكبوتة.

تسرد الرواية أن الفتاة ستكون في حالة هياج عاطفي وهستيريا عند ملامسة جسدها ...وقد تدخل في غشية وتصحو وهي فاقدة عذريتها.

وبعد حين، تكتشف سلوى أن روايتها وبالاً عليها، فهي بطلتها، وهي من تقوم بتنفيذ أحداثها بنفسها دورًا... دورًا حين بدأت خلق علاقات عاطفية في الجامعة مع أحد الطُلاّب.

●●●

وكانت تنتظرني للنقاش الأدبي بلهفة الشّوق، وتُودعني بأمل اللقاء، وبلغتُ شدّة الشّغف بها، أن أقف عند مدخل كُليتها كُلّ صباح، أتمنّى مرورها، أُكحلُ عينيَّ من سواد رموشها، لتكونَ زادي في ذلك اليوم، فلا يطيبُ العيش إلاّ معها!

كنَّا نلتقي في الصباح الباكر، في كافتيريا العلوم حيثُ إطلالتها وبداية يومها، وعند الأصيل نتخذ الميدان الغربي مكاناً للجلوس فأطلقنا عليه اسم «مجلسنا الدّائم»، فعلى بساط عشبه الأخضر، كنتُ أفضفضُ لها عن ذكرياتي في عاديات الدهر وغوائل الأيّام؛ وظلم العباد لي في مناطق التماس، يتفجر من قلبها الحنون ينبوعٌ صافٍ مِن الرحمة والحنان، تشاركني حزني الغابر،

وعندما أحكي لها ذكرياتي الجميلة، تمسحها بدموع الفرح.

كان هذا شأننا لبرهة من الزمن، إلى أَنْ رأيتُها تتغير شيئاً فشيئا، فقد تعلّقتْ أوّلاً بالسِّياسة، ثم شغفتْ بأركان النِّقاش، آه... وأخيراً.... رأيتُها ذات مساء تساير طالباً أنيقاً. لم أر قطّ طالباً أكمل منه وسامة ولا أحسن قواما، ويكادُ الطّالب يلاصق جسدها، ويخاصرها أكثر ممّا يحاصرها، كانت لا ترى أن أحدًا ينظر إِليها مِن شدّة اندماج روحيهما!

غاص قلبي في صدري، فأيقنتُ أنّ الحُبَّ زهرةٌ تفوحُ بعبق الياسمين يوماً، وتذبلُ في أوج نضارتها، وويلٌ لمشاعر المحبين مِن عاديات الدهر وتقلباتها.

●●●

سِكِّينةٌ في الخاصِرة

لم تعد الجامعة وأجواؤها المُفعمة برائحة النّيل مسرحاً لسعادتي، ولا عبق أزهارها الشذية متنفساً لروحي، ولا بساطها المخملي الخلاَّب ساحراً لناظري، ولا أطيارها المُغردة بأصواتها الشجية مبعثاً لطربي.

لقد كدمني الدّهرُ بنابه، فلم أعد أجد السُّرور الّذِي كنتُ آلفه مِن سلوى، ولم أعد أُحظى بعطف الحنان الّذِي ارتويت مِن نبعه حتّى الثمالة، لم يخامرْنِي شكٌ في أَنّها ستتخلّى يوماً عن حُبِّنَا الّذِي أضنانا بالجنون، ولا عن السُهاد الّذِي أرقنا كالمنون، فقد دشنتْ سلوى عهداً عُرِف في الأبجديات السِّياسية «بأركان النِّقاش»

ثمَّ بدأتْ مصائب الدّهر، تكبلني بقيود الأسى، فلا تكاد تمضي مصيبةٌ، إلاّ وتتبعها أخرى أشدّ وطأةً، وأثقل حملاً، وأطول عمراً، فقل لعمرك، مَن مثلي فوق أوجاع الزّمان يرقص؟

•••

ذهبتُ إلى كُليتها ذات صباح التمسها، فرأيتُها قادمةً تتهادى في مشيتها كوقار كالطاؤوس. تقرَّبْتُ إليها، والغيرة تنهشُ قلبي نهشاً مُوجعاً.

صافحتْنِي فأحسستُ بتيار نار الغيرة يسري في كُلِّ خلية مِن جسمي.

دعوتها للجلوس، فأدركتُ أَنَّها مرتبكة بعض الشيء، فتجمّدتْ جمود الصّنم.

ابتسمتْ ابتسامة باهتة لمداراة ما بداخل قلبها، صدّت قائلة:

(عفواً، لديّ موعد اليوم)

كنتُ على وشك سؤالها: موعدٌ مع «مَنْ؟» ولكنها قرأتْ دهشتي، وبسرعة سرقتْ سؤالي وأبدلتْه إجابة طبيعية فأجابت.

(مع أصدقائي، في جلسة نقاش سياسي)

أحسستُ أنّها أبدلتْ كلمة (صديقي) المفرد بكلمة الجمع (أصدقائي) فسألتُها متعمّدا:

(ومَنْ هو صديقكِ الذي تُخفين اسمه؟)

تجيب باضطراب وتتحاشى تلاقي أعيننا:

(في الواقع هم زملائي مِن الكُلية)

(هل يسوؤكِ انضمامي إلى مجلسكم؟)

وكأنّها تريد أنْ تطفئ نار غيرتي؛ فتجيب بتردد:

(لكن لا بدّ مِن تزكيتك أولاً، فطبيعة التنظيم مُحاطة بالسِّرية ولا يحبون أنْ يداخلهم غريب)

إنّ شخصية (مَنْ) ليست أكثر مِن حرفين، فكيف أصبحت فجأة كلمتين؟ فتمثل لي «م» مديّة، و «ن» نجلاء، فأحسستُ بمديةٍ نجلاء تخترقُ شغاف خاصرتي!

غابت عن ناظري فأودعت قلبي في نارين، نار الغيرة مِن شخصية «مَنْ» ونار الشجاعة الأدبية الّتي لا أتحلّى بها.

إنني لا أروم للمجالس الاجتماعية، ولا أتحلّى بالشجاعة الأدبية فكيف أثري النِّقاش؟، وكيف أتأكد هل «مَنْ» زميلها مِن حرفين، أم حبيبها مِن كلمتين؟ أيضمر لها وُدّاً وإخاءً؟ أم حباً وعشقاً؟

●●●

جلسنا في فناء الكافتيريا في دائرة واحدة، وكُنَّا ما يقربُ مِن أحد عشر طالباً، منهم من جلس على صناديق البيبسي الفارغة، ومنهم مَن افترشَ النّجيلة العشبية. وتسعاً مِن الطّالبات جلسن في صفٍ واحد، على كراسي حديدية مشدودة بحبال بلاستكية، وجلستُ على مقربة مِن سلوى كأنّي أستنجدُ بها منهم.

كان المجلسُ فوضوياً، تناثرتْ حوله زجاجات البيبسي الفارغة، وأقداح شاي نصف ملأى، وأدوات الرسم الهندسي، وبقايا طعامٍ هجمتْ عليها الأتربة والغبار.

قدَّمَتْنِي سلوى إلى الطّالباتِ:

(اسمحن لي أَنْ أُقَدِّمَ إليكنَّ: الطّالب أحمد بيلّو مِن كُلية الآداب)

كان لا بُدَّ من تزكيتي لقبول عضويتي، فتزكيني:

(لقد عجمتُ ضيفكم، وبلوت أخلاقه، فاكتشفتُ فيه صفات الفضيلة فكان أحسن الطُلاّب عفُوَاً فلزمتُه، وأسرعهم تسامحاً فقرَّبتُه، وهذا ما حملني على دعوته ليشهد جلستنا)

يا للفرحة! إنَّ هذه الشهادة، وعبارات الثناء والمديح، اجتاحتْ دواخلي بحالة نفسية جديدة. لو حكمتْ عليَّ لحظتها حرقاً؛ لطابتْ نفسي بحكمِهَا.

تكرَّعتْ جرعاتٍ من المياه، ثُمَّ استدارتْ نحوي تقدَّم لي صويحباتها:

(هذه ميمي، فيفي، فاطمة، رغد، رهف، شهد، ووعد....)

تواصل في تزكيتي إليهنّ:

(سأحكي إليكنّ مشهداً رأيتُه أمامي، في صباح يومٍ ممطر تسبب ضيفكم في اتساخ هندام أحد الطُلاّب، فانهالَ عليه الطالب بصفعةٍ مدوية، وقذفه بسيل من الشتائم والسباب، بيَدَ أنّ ضيفكم أعرض صفحاً عن الشتائم وبادر بإزالة بقع الاتساخ في قميص الطالب في مشهدٍ مؤثرٍ لا سبيل لوصفه، ثمَّ عانقه زاجراً نفسه بالأسف أملتْهُ عليه يقظة ضميره، وصفاء قلبه، وأدبر عنه مُبْتسِماً ومضى إلى سبِيلِهِ لم ينتظر ثناء، حتى لم ير أنه أتى معروفاً، وترك قلبي يتفطر أسى من موقفه النبيل)

ثمّ إنّ سلوى تقرّبتْ مِن إحدى الطالبات، وأمسكتْ براحتها فتفاجأتُ مفاجأة، ليس بعدها مفاجأة عندما أضافت:

(ومن المصادفات التي تشبه الأقدار، كنتُ برفقة فاطمة، فجلسنا نضع أسئلة منتقاة بعناية، كأنّها بحث جامعي لاختبار ضيفكم في صفتي «العفو والتسامح»، اللتين لا تجدهما إلاّ في كريم).

يـا اللّه! كاد عقلـي ينفجـرُ مِـن شـهادتِهَا، نظـرتُ إلـى الفتـاة بعيـونٍ فاحصـة، فتذكّرتُ أنَّهـا نفس الطالبـة التـي جاءتْ آنذاك فحاورتنـي. إنّهـا نقطـة تَحَـوُّل حقّـاً لمتانـة علاقاتنـا.

ختمت حديثها:

(خُلاصـة المسـألة، إنَّ مَنْ عُـرِف بسـرعةِ التسـامح، سـار لـه الطُـلاّب أَتباعـاً. ومَنْ نُسِـبَ إلـى العفـو، انحنـى لـه الحضـور احترامـاً، وإني أمنحـه ثقـة كاملـة للانضمـام إلـى التنظيـم، وستجدون ضيفـي محدثـاً بارعـاً)

وانحنـتْ لـي احترامـاً فالتـفّ الطُـلاّب حولـي مدهوشـين، ينْظُـرونَ إلـيّ نظـرات انعقـدتْ لهـا الألسـن، وأغرقـوا في التفكيـر: لأي سـببٍ تُظْهِـرُ سـلوى هـذا المديـح؟

والأغـرب مِـن انحنائهـا، كان مظهـري يخطـفُ الانتبـاه، فملابسـي كانـتْ تحمـلُ كُلَّ ألـوان الطيـف، وكأنّـي مراهـقٌ، ثـم جلوسـي علـى مقربـة منهـا، بمنزلتهـا السَّـامية، وهـي تحادثنـي، آيـات للسـائلين.

ثمّ قدّمتنـي إلـى الطُـلاّب واحداً تلو الآخر، وعندمـا أشـارتْ براحتهـا إلـى فتـى جميـل الوجـه، بهـي الطلعـة، وقالـتْ:

(هذا كادرنا الخطابي عادل..........).

هنـا فقـط ... فـارق قلبـي موضعـه، ذلـك مـا كنـتُ أخشـاهُ ولا أتمنّـاه. إنّـه نفس الفتـى الوسـيم الّذِي رأيتـه يرافقهـا.

وسـرعان مـا اسْـتَحالتْ فَرْحَتِـي إلـى جـذوة مـن نـار، إنّ فرحتـي لـم تـدم غيـر ثانيـة. لـم أكـد أضـع فمـي في كأْسِ الحُـبِّ لارتشـفَ منـه رشـفةً، حتَّـى نزعـه منـي هـذا الخطـرُ الداهـمُ.

تفرّستُ في وجهه، فراق لي جماله، إنه لوسيم جميل وما في ذلك ريب. يحمل أنفاً شامخاً، ووجها بيضاوياً، وفماً رقيقاً، وشَعْرًا ناعماً نعومة نسبية تماثل المناخ المداري، بالغ العناية بوجهه، يبدو أنَّه يتوقّف في المرآة كثيراً لتهذيب لحيته، ويأخذ زينته بإفراط، ولكنه فيه شيء كالزهو بجماله، ويخالطه بعض التعالي.

علمتُ بعد حين، أنّ الفتى مِن الكوادر الخطابية المدرّبة في المرحلة الثانوية، والنّشطة في الجامعة لاستقطاب الطُلاّب الجُدُد للتنظيم، وعندما التقى مع سلوى لتجنيدها، رقَّ قلبه لجمالها، واستلهاه روحها، وأصبح أسيرها.

ومن المفارقات أنّ الفتى رغم وسامته، صلبٌ عند الصدام .... عنيدٌ عند النزال ....

●●●

وكان الطُلاّب والطّالبات في غاية الأناقة والهندام، يرتدون ملابس باهظة الثّمن، ذات ماركات عالمية، كأنّهم مِن أرقى الطبقات الاجتماعية، فرأيتُ نفسي غريباً بينهم، فلستُ من ذوي هيئاتهم، وذوي القدر منهم.

اختلطتْ عليّ الوجوه النّاعمة، فلم أعد أفرّقُ بين الطُلاّب والطّالبات، إلاّ مِن خلال النّظر المباشر في الصدورِ المكتنزة، والسيقان المرتوية. فكان اللقاء أشبه بجلسة هيام منها إلى جلسة نقاش سياسي.

●●●

تلاقتْ أعيننا منذ أول نظرة؛ فنفر منّي عابساً فلم أجد ترحيباً منه، رشقني بنظراتٍ تحملُ كُلَّ معاني الكُره والبُغض، كأنّي عارض قبيح دخيل، على واطِد وسيم أصيل.

تغافلتُ عنه، فاكتشفتُ فجأة أنَّ سلوى أحدوثة المجلس، العيون تحار فيها فتنحطّ إلى الأرض غاضة بما يصيبها مِن الانبهار.

فالفتى الوسيم يلتهمُ وجهها التهام الجشع والجوع، محبي الظهور ينهشون بنظراتهم جسدها نهشاً مُوجعاً، الفضوليون لا يكفون عن إبداء الإعجاب بها، والكُلّ يُمنّي نفسه لمحادثتها، وزميلاتها يحطن بها إحاطة الهالة بالقمر.

استفزَّني ذلك المنظر وأفزعني، أفسد كياني، وأمرّ عيشتي؛ أحسستُ أنَّ حبّي يتأرجح بين الفتى عادل تارة، ومحبي الظهور أخرى، والفضوليين ثالثة أخرى.

قِيل: «**المنافسة أُخت العداوة**» فتمثَّل لي الفتى عادل، عدوّاً حقيقياً يَتَوَجَّبُ قتاله، ومحبو الظهور فئة ضالة يتوجب طمس نواظرها، والفضوليون شرذمة يتوجب بتر أوصالها، لقطع كُلّ السُبل المؤدية إلى مرمى قلب حبيبتي.

●●●

كنتُ أرصدُ كُلَّ حركةٍ صادرة في الجلسة، فشدّني ما رأيت، فقد ظَلَّ عادل يرمقُ سلوى بنظراتٍ متقطعة، نظرات تفيض إعجاباً وحُبَّاً، نظرات جريئة تخترقُ سويداء قلبها، وكم حاولتْ جاهدة تجاهُل نظراته، ولكن أطرافها كانتْ تنطق، نظراتها منكسرة، ووجهها يتخضَّبُ بلون الحياء. فأصابُ بسِكّينةٍ أُولى في الخاصرة.

●●●

كنتُ مُحِقّاً إذنْ، فغَيْرَتِي أصابتْ كبد الحقيقة، طارحها الفتى غرامه، فلم تصمد أمام وسامته، فوقعت في حبائله.

يتفطّر كبدي أسى. أجمعُ شتات مشاعري وأتجلّد، ولكن قلبي كان يتأجج في نار الهشيم.

لم يحتمل غريمي الفتى «شهادة المديح» التي أصدرتْها سلوى لشخصي، وشهدتْ عليها صديقتها فاطمة؛ فأفتتح جلسة النقاش، وفتح قلبي للعواصف.

بدأ النِّقاش، فاتراً لا يجذبُ الانتباه، ولكن ما أن تحدَّث الفتى عادل، إلا وأنصتَ الحضورُ خاشعين كخشوع الأتقياء في قيام اللّيل.

ألقى تنويراً عن انتخابات اتحاد الطُّلاّب، وأسهبَ في الحديث. والحق أنَّه كان ذَرِب اللّسان، جذاب العبارة، يجيد فنّ الخطابة؛ فخشيتُ أنْ يجيدَ كذلك فنّ الغزل.

بدأ كُلّ طالب يدلي بدلوه، فأيقنتُ أنّي محدَّثهم اليوم، وعندما اقترب دوري، سرعان ما بدأ الخوف يتملّكني.

راودتني رغبة بالمغادرة ولكن تقرَّب منِّي فتى أمرد، جميل الهيئة يُقال له «ضياء»؛ ليشدَّ مِن أزري، ليذهب عنّي التوتر فقد رأى جسدي يتململ، ويداي تتقبضان وتتبسطان، بيد أنّه عندما مازحني بلغة العيون، وانثنى كالغصن الرطيب، سرعان ما كرهتُه.

كانتْ كُلّ ثانية تمرّ، يتمدّد الألم في قلبي، وتكشف لي أنَّ سلوى وعادل يتبادلان نظرات حيرة واضطراب.

ثمَّ جاء دور سلوى للمشاركة، فتقدمتْ نحو المنصّة وهي عبارة عن كرسي وُضع وسط الجلسة، عليه يستند الطالب للمشاركة برأيه.

نظرتْ إلى الفتى أوّلاً بطرف مُخضّل، فاعتدل الفتى في جلسته، شبك راحتيه فوق ركبتيه، وبدأ يُصغي إليها بجوارحه كلها، كأنَّه يشرب كلامها بأُذنيه، ويؤمن بحديثها، لا يخالف لها رأياً، بخلاف بقية الطالبات، فقد كان يتصدّى لهنّ، ويسحقهنّ بلا رأفة.

وعندما جلستْ، جادتْ له بابتسامة تشع نوراً، وردّ لها بمثلها، فأشرق نهاره.... وأظلم ليلي. ارتسمتْ آياتُ الحُبّ في محياهما تتماوجُ كالأنوار، فأطرقتْ رأسها، لتدخر له بسماتِها لاحقاً.

لقد استبان الأمر إذنْ، فلا يحتاج النّهار إلى دليل فأُصابُ بسِكّينةٍ ثانية في الخاصرة.

●●●

أثناء استغراقي في لجة الألم، أتلقى سؤالاً مِن الفتى عادل؛ فيذهبُ قلبي شعاعاً.

يسألني:

(ماذا تقول يا «بيلّو» في الانتخابات القادمة؟ هيّا تقدَّم إلى المنصة)

فواكبدي! تخذلني الشجاعة الأدبية، فيتصبب جبيني عرقاً، وتنفر مني كُلّ الكلمات وأظل في مكاني لا أُحرك ساكنًا.

تطرقُ سلوى رأسها، وتبدأُ في فرقعة أصابعها، وهي الّتي مدحتني قبل يسير «ستجدون ضيفي محدثاً بارعاً».

يحدجُنِي غريمي بنظرة قاسية، وينتصبُ فوق هامتي واقفاً يعبثُ بشعرِ رأسي الخشن في مرمى نظرها.

يتضاعفُ سروره في عجزي، فيكرّر عليّ السؤال:

(إياك أعني يا «بيلّو»! تقدَّم إلى المنصة، ارفعْ رأسك، وانظر إِلى زملائك، واملأْ جنانك، فأنت محدثٌ بارعٌ)

واخجلتاه!

بدا لي أنّ إعجابه بسلوى، وتقديمها اياي بصورة طيبة، يد خفية في كُرْهِه لشخصي... رأيتُ لا بُدّ ممَّا ليس منه بد، فتقدمتُ نحو المنصَّة ونظرتُ إلى الحضور، فانقطعتْ أنفاسي وظللتُ ساكنًا مُفكرًا ماذا أقول.

فلمَّا طال سكوتي، قلتُ فاشتدّ انتباه الحضور، وليت شِعري اتخذت الصَّمت سرمداً، فالصّمت في موضعه أبلغ مِن الكلام في موضعه، وإن كان فضل الكلام أفضل:

(أعفني، فإنّي لا «أهسن» القول في السِّياسة يا «آدِيل»، هلاّ حوّلت فرصتي إلى « دِياء»؟ - الفتى الّذِي كان يجاورني)

كانت إجابتي وَبَالاً على لفظي... يكتشف غريمي موضع عِلتي، ويُميط اللثام عمّا كنتُ أخفيه، فنظرات الإعجاب بينهما أنستْنِي لُكْنة لساني.

خطا إلى الخلف حتّى انْتَصَبَ وسط المجلس، فمرّغ أنفي في وحل تعاليه العرقي البغيض:

(ماذا تقول؟ ويلك...! لعلّك تريد لا أحسن القول في السِّياسة يا عَادِلُ؟)

انفجـرَ المجلسُ بالضحـك، بـل بالضحـك المتواصـل والمجلجـل، لـم يسـتطعْ أحـدٌ أنْ يكظمـه.

يتابع يُخاطبني بجفاء:

(ومن هو «دِياء»؟ ويحك...! لعلك تريد الفتى ضياء يا «بيلّو»؟)

تعالـت الضحـكات على نحـو مُبالـغ، يتخللها بـين الفينـة والفينـة، همسـات متقطعـة مِن الطّالبـات فأضفـتْ لونـاً مِـن السّـخرية وعاصفـة مـن الاسـتهزاء.

تمنيـتُ لـو تنشـق الأرض، وتبلعنـي دفعـةً واحـدة. أطرقـتُ برأسـي انظـر إلـى الأرض، كأنّ باطنها خيـرٌ مِن ظاهرها. فأصـابُ بسِكّينةٍ ثالثة في الخاصـرة.

●●●

طَفق الوغد يستهزأُ بشخصي فقام بمخاطبة ضياء هذه المرة:

(يا فتى العرب، أترضى لنا دعوتك «دِياء؟»)

كان الفتى ساخراً، فأجاب مُنْكِراً:

(كلاّ، وألف كلاّ، اللهمّ إلاّ إذا ذبح لي «بيلّو» كبشاً).

ضحك عادل ضحكاً مكتوما، حتَّى أمسك ببطنه، ودمعتْ عيناه.

حقـاً ...إنَّ هنـاك سـبباً مقنعـاً يدفعـه إلـى الضحـكِ، طالما أنَّ هنالـك طالبـاً جامعيـاً – وهـو أنـا– ينطـق اسـم ضيـاء «دِيـاء»

أمّـا سـلوى، فكأنّمـا سـقطتْ مِـن عليائهـا بدعوتهـا لطالـبٍ خجـول لمرافقتهـا، يعانـي مِـن مخـارج نطـق الحـروف بطريقـة سـليمة.

وقع في نفسي أنني طريداً في مجلسهم، ولكن سلوى شاركتني فيما نابني من ذلة، فتصدّتْ لعنصرية المجلس، ألجمتْ السنتهم، فخسئوا حتّى الممات:

(وأبيكم هذا الخُلق لا يليق بكم، فلا تحقروا ضيفي، فنعيد تأكيد شعارنا «**لا عنصرية في السِّياسة**» وإلاّ قسماً لا جلوس وسط كومة السخافة)

هدأتْ رياح كرهها للعنصرية قليلاً، ولكن متى تهدأ عواصف حبها للفتى عادل؟

لكنّ الوغد مازال يعبثُ بشعر رأسي:

(أعلم يا بيلّو: إنَّ الانتخابات الجامعية، هي النّشاط السياسي والمتنفس الوحيد لإبراز موهبتك، والتسلح بفنّ الخطابة، ولعمرك إنّها تكسبك الشجاعة الأدبية الّتي لا تتحلّى بها)

ثمّ بدأ الطُلاّب يتغامزون في شخصي همساً، فوجد في ذلك فرصة أخرى، فأثقل عليَّ القول:

(يا بيلّو هؤلاء الفتية والفتيات، سيسجلون صفحات تاريخهم بكلمات المجد، والفخر في هذه الجامعة، فأين منزلتك منهم؟)

عُدتُ أُجرجر أذيال خيبتي، وأنا أحسُّ بنزع شديد، وكأنّما ألمَّت سلوى بما في نفسي من حزنٍ عميق فهمستْ في أُذُني:

(لا جُناح عليك، فقد صعد يزيد بن أبي سفيان منبراً فخطب فأُرتج عليه، فاستأنف فأُرتج عليه، فقطع الخطبة وقال ورأسه مُطرقٌ:

«**سيجعل اللّه بعد عسرٍ يسرًا، وبعد عيٍّ بيانًا**»)

رددتُ لها وأنا ألعن نفسي شرّ لعنة:

(ليس بيننا حشمة.... الخوف يتملكني)

تضخ في نفسي الطمأنينة:

(إياك والخوف، فالخوف يُسلِّمك إلى تعقيد لسانك، ولسانك سيشين ألفاظك)

تضيف:

(وأول خطبة خطبها الخليفة الراشد أُرتج عليه فقال: «**إنَّ أوّلَ مَرْكَبٍ صَعْب، وإنّ بعدَ اليومِ أيّامًا، وإنْ أعش تَأْتكِمُ الخُطَبُ على وَجْهِهَا، وما كنّا خطباء وسيعلمنا اللّه**». تمالكتُ نفسي قليلاً:

(أرى من الحكمة أن أغادر من هذا المجلس المشؤوم قبل أنْ يُلْقَى إليَّ بسؤالٍ آخر يزلزلني زلزالاً شديداً)

تحذرني بأنفاسها اللافحة:

(واخجلتاه! ألست رجلاً؟ إن أقدمتَ على ذلك، فواللّه لن تتمتع معي بحرارة الوصل)

رغم حرارة الموقف مازحتها:

(نسيتُ شعارنا: «**أنا نصفكِ الآخر لحياتكِ**»)

تهمس في أذني بصوت لا يكاد يُسمع:

(ستعود إلى المنصّة، أريدُ أن أثبت لصويحباتي أنّ العيون لتُخطِئُ في الحُكم.... ولم اتخذك جليسًا عبثًا إلا أنك ذو أدب وعلم، فليكن لفظكَ هذه المرَّة رشقًا، عذبًا، فخمًا.... سهلاً)

اندهش المجلس من همساتنا السرية، واتّسعتْ عينا عادل اندهاشاً، فأية منزلة أرفع، وأية مشهد أجمل من تبادل الهمسات مع فتاة ما على ظهر الجامعة من طالب إلاّ وهو يحنَ للظفر بنظرة منها، فما بالك بتبادل الهمسات اللافحة في الأُذن؟

قام الفتى سريعًا بإنهاء النِّقاش بسقوطي المُدوِّي قبل أن أعود إلى المنصة:

(اللقاء غدًا، لمناقشة ما تبقّى... والسَّلام)

واقترب مِن سلوى يحادثُها، ولم يمكنها حتّى مِن التحدُّث إليّ، وحاولتُ الاقتراب منهما فإذا الفضاء ظُلُمَة.

خسرتُ جولة السياسة.... ولكن هل خسرتُ جولة الحب؟

●●●

أزير الخوف

عُدتُ إلى حجرتي، خائر النفس، فاتر النشاط، ولا أرى أحداً في الجامعة أشقى منّي مذلة ومهانة.

سمعتُ خطوات صديقي فاروق «كرنكي» تُحدِث إيقاعاً على الأرض، فسررت بأنَّ الفرجَ آتٍ.

دلف إلى الحجرة، ووجدني أعالج سكرة مِن سكرات الموت فسألني:

(ما بال صديقنا حزيناً؟ ما الّذِي أَلَمَّ به؟)

رحتُ أحدِّثه بما دار في اللقاء الحزين؛ فانفجر فيَّ ساخطاً:

(تبَّاً لك! ولِمَ تخاف؟ الرجل لا يخاف إلاّ ذنبه! هل أذنبتَ؟ إنّه ليس الخوف كما تقولُ، إنّها الشجاعة الأدبية الّتي لا تتحلّى بها)

سألته بلا حرج لما كان بيننا من وثيق الصلة:

(أنت موضع ثقتي، ومَكْمَن سري. فكيف أصنع ليذهب عنّي ما أجد؟).

(عليك بتطبيق ما قاله الممثل جلين فور «**إذا لم تقم بما تخشاه، فسوف يسيطر الخوف على حياتك**»)

(لا رغبة لي لقراءة كتابٍ الآن)

(إذن اقتحام مجلسهم غدًا هي الشجاعة الأدبية وروحها، والتردد هو الانطواء والانهزام. اجعلْ ابتسامتك عنوان وجهك، فتكون بذلك قد أظهرت ثلث شجاعتك الأدبية).

ألقيتُ إليه عجزي:

(إنّـك لا تـدري أنَّ هـذا الفتـى يواتيـه الـكلام تدفقـاً، والحديـث مُسَـخراً، والتاريـخ حفظـاً).

شفى غليله فيّ:

(أتدري أَنّي أكره أمثالك؟ أَلَمْ تقرأ:

«ومَنْ يتهيب صعود الجبـال........ يعش أبَـدَ الدّهـر بيـن الحـفرْ»).

سفتْ نفسي منه فأجبته:

(لكنّـه اكتشـف مَكْمَـن ضعفـي في ركاكـة لغتـي، وتلعثـم لسـاني، ولُكْنَـة حـروفي، فأخشـى أنْ يلحونـي بهـا لحـو العـود).

أنزلني في الحضيض:

(أو مـا بلغـك، أنَّ الطّالـب الّـذِي يتـوارى خجـلاً أمـام أخلائـه، إنّمـا هـو أدنـى منزلـة في الجامعـة، وأحق بمغادرتهـا؟)

أعـاد لـي بصيصـاً مِـن الأمـل لمقابلتهـا، فقـد كنـتُ أرى اسـتحالة تلاقـي أعيننـا.

وكلّما أراد أنْ يقولَ رأياً صائباً، قَطَبَ جبينه:

(إنَّهـم ليسـوا بأعظـم منـك عقـلاً، دعْ عـادل يتحـدَّث، ولا تـرد عليـه طيشًـا فيكونَ ردّك زيـادةً لـه ونقصًـا عليـك، رُدّ عليـه عندمـا تمتلـك الثقـة بالنفـس، وتذكـر أنَّ الحماقـة، السـقوط والانهـزام).

انفتحتْ أساريري، فيضيفُ:

(خاطبه بالرفقِ والأنَاةِ، ونادِه بأفضل الألقاب، ستكبرُ في نظر حبيبتك، وسيعلمُ الجمع أنَّك رجلٌ توجهه أخلاقه).

رائع يا صديقي! لقد عَظمُت في نظري. يواصل:

(إنَّ هذا الانطواء الّذِي يسيطر عليك، إذا تحرَّكتَ نحوه سرعان ما يتلاشى، وسيفقدُ سيطرته عليك، وحينئذٍ ستدبُّ الشّجاعة الأدبية في قلبك. أمّا إذا تقهقرتَ؛ فسوف يتنامى ويتحكم فيك، وسيكون السقوط مدوياً هذه المرة).

قدّم لي شرحاً وافياً عن الانتخابات، وتاريخها، وتنبوآتها، ووعدني بالحضور للمشاركة في النِّقاش.

خلوتُ بنفسي، أعيد حديثه كأنّي أديرُ ركناً للنقاش أخاطبُ به عادل والشامتين في شخصي. وتوسدتُ فراشي، كأنّي أتوسدُ لدغات عقارب وثعابين، لم أكتحل بغمضٍ حتّى لاح ضياءُ الفجرِ.

وفي صبيحة اليوم التالي، وأثناء توجُهي نحو جلسة النِّقاش لتحدّي غريمي، ارتجلتُ أبياتاً فورية من غير تصميم، لعلَّها تُولّد في نفسي شجاعة أدبية غير منتظرة.

لن تسرق حبي يا عادل ●●● حبي لن تسرق بهجتنا
فعلام أراك تنازعُني ●●● في العشق لتأخذَ بسمتنا
اِذهب فإنّي لن أتركها ●●● هي سلوى النفس ودنيتنا

كَمُنْتُ قريباً مِن مكان النِّقاش، وما أَنْ بدأ اللقاءُ حتَّى اقتحمتُ مجلسهم على حين غِرّة، كَمَنْ يقتحمُ ساحات الفداء!

جلستُ قرب سلوى جِلْسَة المتوثبِ للهجوم، فحيّتني تحية جميلة، فما زالت تضمرُ لي الوفاء، فتلاشت العنصرية وولّت هاربة، فابتلعتها الظُلمة.

ولولا وفاؤها، وصفاء قلبها، وإخلاص مودتها، وكُرْهُها للتعالي العرقي؛ لما تشرفتْ بمرافقتي بعدما أصبح الخوف أحد سماتي.

ظلّ عادل شاخصاً ببصره ينظر إليَّ مذهولاً مشدوهاً، كأَنَّه لَمْ يتوقع مجيئي بعدما نال مني بالأمس ما نالَ!

ابتسمتُ إليه ابتسامةً باهتة، كأنّي أقولُ «جئتُ أجسُّ نبضَكَ، قبل الوثوب عليك، فلا أراك إلاّ مُقْبِلاً على الخطر، فقد تلاحقتْ الكُتوفُ، وتساوت الرُّتَب، وبلغ الأمر مبلغ الجد، فلا بدَّ مِن مآلاتِ المواجهةِ، فالرجل لا يخاف إلا ذنبه.

آن للساني الّذي لا يكادُ يبينُ، أنْ يزمجرَ اليومَ، وأنْ يبثَّ حديثاً مؤلماً، وللشامتين أنْ يموتوا غيظاً وكمداً، وأنْ ترفعَ حبيبتي رأسها حيثُ يشيرُ العُلاَ، فلن أكونَ أرجوحةً بين لسانك الزّافر، ورهانك الخاسر، فأنا لا أخاف إلا ذنبي.

أليس عدلاً أَنْ أثبتَ اليوم بأني جدير بمجالستكم؟ فلا شيء يرضي غروري إلاّ أنْ تخرج حبيبتي مِن اللقاء مبتسمة، أو ما بلغك أَني لا أرى نور الدُّنْيا إلاّ مِن خلال ثغرها الباسم؟ واشهد يا إمامَ العنصريين أَنّي أكرهك.

●●●

اشتعال الصّمت

توسط عادل الجلسة، واسترسل في الحديث، وكنتُ انظر إليه باهتمامٍ بالغ، فلا عجب، إنه كادر خطابي مخضرم يتوجب احترامه.

جاء صديقي «كرنكي»، واتخذ موقعاً بين الحضور، وقد كان كاتباً لصحيفتهم الحائطية «مساء الخير»، ونظر إليَّ مبتسماً، وأشارَ بعلامة النَّصرِ.

بدأ النِّقاش فاتراً، كما بدأ بالأمسِ، وظَلَّ كُلّ طالبٍ يتقدّم إلى المنصة بثبات وارتجال، يتحدث بطلاقة وروح مرحة، ويقومُ عادل بضبط الإيقاع مُؤَمِّنَا مَرَّة، ومُعَقِبَاً أخرى، ثم كَثُرَتِ المداخلاتُ، فهاجتِ الجلسةُ وماجتْ، فتصدّى للهرج.

دنا مني فشمَخ بأنفه، وتغيّر لونه، وقال ساخراً:

(قد أدلى كُلّ منكم بدلوه، والآن سيرتجل المنصة بيلّووووو)

قام الوغد بمدّ حرف الواو مداً مُتَّصِلاً ست حركات، وبصوت رنيني عجيب، وتبعتها ضحكاتٌ مِن كافة الطُلاّب، إلاّ مِن سلوى، إنّها طيبة العُنصر.

لاحظتُ أنّ الفتى لا يفتأُ يناديني باستفزاز باسم عائلتي «بيلّو» ولا يناديني باسمي الأول؛ ليُوحي بأثنيتي للسامعين، تسويقاً للاستعلاء المقيت.

داخلتنِي ذكرى نزال الملاكم /محمد علي كلاي مع الأسطورة إيرني تيريل، حيثُ ظَلَّ الأخير يناديه باسم «كاسيوس» لأسباب

عقائدية، فتلقى ضربات وجيعة في العيون، فانتفخ جفناه، وتورمت شفتاه، فلم يجد بُداً سوى مناداته باسمه الأول «محمد»، فرأيتُ أنَّ هذه الذّكرى تشبهني، وسأجعلُه يناديني باسمي الأول «أحمد».. ولكن بكلماتٍ طيبة في صميمِ الفؤاد، كما يتخلَّق بها بنُو أُرومتنا.

نهضت سلوى تخاطب الحضور:

(لا تُعجِّلُوا بالحكم على ضيفي، حتى يبلغ أقصى العذر)

وقفتُ كالأسد الهصور للمشاركة حتّى يدبّ الحماس في روحي كما أوصاني صديقي. استندتُ على المنصّة، ولكن أعياني العيّ والحصر، وخذلتني الشجاعة الأدبية كالعادة، فبدأ عليّ الارتباك واضحًا.

تطلّع إليّ الجميع باهتمام بالغ، وبدأت الضحكات تتعالى مُجلجِلة فشعرتُ بالقهر.

تقرّب منّي الفتى وقال متعالياً:

(ما بال «بيلّو» صامتاً، ولسانه معتقلاً، وقلبه جذعاً)

ارتسمتْ في وجهه علامات الظفر والفوز فعاد إلى مكانه ينتظر احتضاري.

ثمّ شرع في الإجهاز عليّ على رؤوسِ الأشْهَاد:

(هذا مُريع...هذا فظيع... انضمام أعضاء بمستوى «بيلّو» نقيصة لا يقبلها تاريخ التنظيم)

مَسح على وَجْهِ الجَميل بارتياح، لا يَشُك أنّه لن يراني بعد اليوم.

قال مخاطبًا سلوى:

(لعلَّكِ توافقين بأنَّ الفرصة انتهت، فليذهب: بيلّو» غير مأسوفٍ عليه)

بلغتُ غاية الكرب، واليأس يدفعني للمغادرة ولن أروم رُجوعًا أبدًا.

ولكن....

تساءلتُ: أليس عهدي مع سلوى أنْ يأتِي حُبها دائماً فِي صرخة اليأس؟ ألسْتُ فِي لُجّةِ اليأس؟ وصمتي؟ ...

ألم تؤمن أنّ لصمتي صوتًا، وصورة، وإيقاع على دفتر محاضراتها؟ .....

لَمْ يَدُمْ عَلى أسْئلتي إلاّ معْشار ثانية، نهضتْ سلوى قائمة على نحوٍ مفاجئ، دَنَتْ منِّي، وعَلى مَرْأى مِنْ الحضور، همستْ فِي طبل أذني بأنفاسها الحارة:

(من أقوال الكاتب مارك توين «**إنَّ الشجاعة إِتقان الخوف، وليس غياب الخوف**»)

ثمّ عادت أدراجها وجلستْ تنتظر اشتعال صمتي.

صعق الفتى وتشنّج، بُوغت الطُلاب وشخصت أبصارهم، تزلزلت الأرض تحت أقدام الطالبات بتلك الجرأة.

بعدها، لم يدم على خوفِي إلاّ هُنيهة، واليأس إلا فَيْنة.

كلماتها الساحرة.... نفذت إلى أعماق قلبي، فدبّت الشجاعة الأدبية فِي كُلِّ خلية من خلايا جسمي، فأحسستُ كَمَن نَشط من عُقال!

رحـتُ أحـادث نفسـي سـراً: «سـأفتكُ بـك اليـوم أيهـا الوغـد، والشّـمسُ ضُحـى».

●●●

تقدمـتُ نحـو الفتـى برباطـةِ جـأش، وسـكون جـوارح، حتّـى توقفـتُ أمامـه كالتمثـال.

خاطبتُـه بكلمـاتٍ لطيفـةٍ... ودودة... إلـى أبعـد حـدود اللطـف والـوُد:

(يـا شـموخ العِلـم والمعرفـة، لـمَ جعلتَنـي سـخرية السّـاخر، وأضحوكـة الضاحـك؟ لِـمَ لا تخاطُبنـي ببشاشـة الوجـه، وطيـب الـكلام، وتناديـني بأفضـل الأسـماء؟ ظللـتَ تناديـني باسـم «بيلّـو» لأسـباب عنصريـة يعلمهـا الجميـع، فهـذا الخُلـق لا يليـق بـك ككادرٍ خطابـي عظيـم، للتنظيـمِ الديمقراطـي العظيـم).

ألقيتُ ناظري نحو سلوى، فأشارت بعلامة النّصر، ثم أضفتُ بهدوء:

(لـو كنـتَ تسـخر منّـي عمـداً؛ فسـامحك اللّه، ولـو كنـتَ جاهـلاً، فادعونـي باسـمي الأول، فأنـا أحمـلُ أجمـلَ الأسـماءِ اسـمي «أحمـد»، لا حمـد اللّه أبـداً مَـنْ يكرهـك)

تنهـضُ سـلوى مـن مكانهـا، وتحـرقُ يديهـا البضتـين بالتصفيـق. وتأخـذ بيـدي وهـي تقـول بصراحتهـا السـافرة:

(إنـه هـو! ... مهمـا تكـن الإسـاءة مؤلمـة، فـلا شـيء قـد يستشـيط غضبـه؟، إنَّ ضيفـي يسـوق الأخـلاق إلـى حـدٍّ نسـيان الإسـاءات. وعندمـا تكـون الحقيقـة ماثلـة تفقـع العينـين، فـلا داعـي للـكلام!)

عُدتُ فتوقفتُ قرب المنصّة، مخاطباً الفتى:

(اعترفُ لكَ أنّي أجهل صراعاتكم الحزبية، ولكن بعدما قرأتُ تاريخَ الانتخابات، سأشاركَ برائي، والرأي قد يخيبُ، وقد يصيبُ).

سألتِ سلوى الفتى:

(أتريد أنْ تسمع رأيَ ضيفي ما قبل الانتخابات أم بعده؟)

(شهادة المديح) هذه، اقتدحتِ الجينات المتعالية لغريمي، فتولّد الكُره والمُقت بداخله، هبَّ فجأة، وتوجه نحوي مسرعاً كأَنَّه بصدد صفعي؛ ليدخلَ الرّعب في نفسي، ولكن رجل مثلي لا يخاف إلا ذنبه.

أجَابَ باستفزاز:

(قل لنا ماذا تفقه في الانتخابات أوّلاً؟)

أوسعته حكمة، وأشبعته هداية:

(إنَّ هذه الانتخابات، تحملُ في طيّاتها لوحتين. لوحة مرئية ما قبل الانتخابات، وأخرى معتمة ما بعد الانتخابات، وكلاهما ينبعان مِن منبع الفصيل الطُلابي الموالي للحكومة، فأي لوحة تريد أن أرسمها لك أصلحك اللّه).

فجأة تراجع وبدأ ينصتُ بكُلِّ حواسه. أيقنَ أنَّ هذه المقدمة جديرة بالاهتمام.

أواصل:

(في مرحلة ما قبل الانتخابات، نشط الفصيل الطُلاّبي وطرح برامجه الانتخابية، فتجسّد في أذهانِ الطُلاّب استقرار الجامعة بفوز الفصيل، وإغلاق الجامعة بسقوطه، وقد استخدم الفصيل هذا الهاجس كورقة سياسية وجدتْ رواجاً وقبولاً بينَ الطُلاّب، بينما نحن نغط في نومٍ عميق).

كانت سلوى تنظر إليه، فتداركَ نعرة التعالي العرقي، وتحدث بلغة لطيفة أكثر أدباً:

(نحنُ لا نغطُ في نومٍ عميق، ولكن قل تمَّ تسخير الإمكانيات لهم، وهذا رأيك الّذِي لا يمثلنا).

أواصل بهدوء مريب:

(مرحلة ما بعد الانتخابات، ويُقصد بها كيفية التعاطي مع الفصيل الحكومي كرئيس جديد لاتحاد الطُلاّب، و...)

قاطعني متعجباً:

(وما أدراك بفوز الفصيل الحكومي؟)

أجيبُ بثقة:

(وفقاً لمعطيات الانتخابات السابقة، عندما تنازل التّجمع لصالح التنظيم الحيادي، سيتكرر نفس السيناريو، فقد ظل الاتحاد عصياً على الفصيل الحكومي، وخاصّة أنَّ الحكومة تعُول عليهم في هذا المنبر، ثم أنَّ الاستفتاء الّذِي جرى لتحديد عضوية الاتحاد

هل ستكون ((٤٠ عضواً أم (٦٠) عضواً؟ كشف هِزَال عضويتهم، ولا إخال إلاّ أنّهم وضعوا سيناريوهات متعددة للتزوير)

دهمهم الذهول، ولبست وجوههم أقنعة كالمعجزة، فقد استهانوا بي البارحة وتبيّن لهم شدّة عقلي، ورأوا أنّي لترؤُّس الجلسة أهلٌ فاعتذروا لي.

وما مضى من الزمن دقائق، حتى تحولت الجلسة إلى مؤتمر صحفي، أصبح شخصي من يدير النِّقاش دون منازع.

أمّا غريمي، فقد كان أثراً بعد عين... سقط سقطةً، ليس بعدها إقالة، بطلتْ عنده الخطابة، وجثم على قلبه الحسد، وسكن في جوفه ألمٌ مثل خنجر مسموم، فَكَرِه الجلسة قاطِبة

سؤال يأتي من طالبة بتوسّل، وقد كانت من أشدّ الطالبات سخرية بلوني:

(ما هي المعطيات المتوقعة في قولك هذا؟)

تَوَغّر قلب الفتى، وهو يرى الفتاة تلقي إليّ السؤال وتتجاهله.

أُجيبُها:

(الانتخابات القادمة لا تصبُّ في مصلحة الفصيل الحكومي، وهذه حقيقة لا ينكرها الفصيل، لذلك أخذ الأمرُ بالحزم، ويعكف لتغيير قواعد الانتخابات في كُلِّ مرحلة ليتماشى مع سيناريو التزوير المتوقع، وسيعقبُ ذلك احتجاجات لا تكاد تُسمع، بعدها ستقوم عمادة الطُلاّب باعتماد النتائج الأولية).

وصدقتْ تنبؤآتي، فقد تَمَّ تزوير الانتخابات. وفاز برئاسة الاتحاد في الربع الأخير في العام التالي طالبٌ من كُلية الهندسة الّذِي صار فيما بعد مديراً لقناة الشروق الفضائية، ثم سفيراً.

خاطبتْ سلوى زميلاتها:

(أَلَمْ أقل لَكُنَّ ستجدْن ضيفي محدثاً بارعاً؟ هكذا عرفتُه وإلاّ فلا خير فيه).

التفتتْ إِليّ، وأشارتْ بحركةٍ مِن يدها:

(رويدكنّ... ستظهر ينابيع الحكمة من لسانه، هكذا صمته).

ولكن أضفتُ إليها وحدها:

(إِنَّ هذهِ الانتخابات قد تختلف عن أنماط سابقاتِهَا؛ بسببِ تأييدِ الحكومة للفصيلِ، ولرُبَّمَا قد يؤدِي ذلك إِلى نتائج لا يدركها أخي العزيز عادل).

وكنتُ حريصاً ألاّ أنطقُ حرف العين همزةً، فحاولَ مقاطعتي وإِحراجي، ولكن سلوى كانتْ أسرع، فتركها تتحدثُ فسألتني.

(ما هي تِلْكَ النتائج التي لا يدركها أخيك العزيز عادل؟)

أصغى غريمي إِلى حديثي مذهولاً:

(إِمكانية التصويت لأكثر مِن يومين لإرهاق الطُلاّب المناوئين للفصيل الحكومي، وسيضمنُ هذا أَنْ ترتفعَ نسبة التصويت للفصيل بنسبتين مختلفتين، وأَنْ تقلَّ نسبة التصويتِ للمناوئين بنفس النسبتين، وهي نِسَب خفية لا يراها الطالبُ العادِي، وأَرْقَام غامضة لا يعرفُها كادرُنا الخطابي عادل).

تَحَجَّرَتِ العقولُ مِن فكِّ طلاسم النِّسب المئوية، فسألتْنِي طالبة ترتدي بلوزة حمراء:

(وما هي الأرقام الخفية التي لا يراها الطالبُ العادِي؟)

(هي أنّ نسبة ٧٥٪ مِمَّنْ يقولون أنَّهم سيصوتون لصالح التنظيمات المناوئة، ستذهبُ منهم ٥٠٪ فقط، والنسبة المتبقية ٢٥٪ ستذهبُ حَتْمَاً إلى الفصيل الحكومي)

صدقت تنبؤآتي، حيث أنّ الفئة المترددة للتصويت، وجدت سهولة للتصويت للفصيل الحكومي، بينما وُضِعتْ متاريس للفئة المناوئة لها.

سألتْنِي طالبة كنتُ أحسبها طالب، إلا أن صدرها كان نافراً:

(ومِن أيْنَ ستأتِي النسبةُ الثانية للفصيل الحكومي؟)

أضيف بزهوٍ، وسلوى تنظر إليّ بإعجاب:

(سيتمُّ تحصيلها مِن سيناريو التزوير المتوقع خلال السهَر. والإرهاق والتمويه لترحيل صناديق الاقتراع، وهي الأرْقَام الغامضة التي لا يعرفُها كادرُنا الخطابي عادل)

وصدقت تنبؤآتي مرة ثالثة، فقد قررتْ اللجنةُ، التصويت لمدَّة يومين متتالين، خلافاً لما كان سائداً آنذاك، وهو التصويت ليومٍ واحد.

فجأة وجدت نفسي محاصراً من جميع الطالبات، فأجبتُ على جميع الأسئلة بمعايير التحليل السياسي فطال حديثي أكثر مِمّا توقع، فختمتُ حديثي:

(خلاصة المسألة، ستخسرُ التنظيمات السِّياسية الانتخابات، ولكنّها لا تخسرها بسبب قوةِ الفصيل الحكومي، ولا تخسرها بسبب ضعف التنظيمات، ولكن بسبب قوةِ مؤشر التزوير الصاعد)

ظلت سلوى تحرق يديها بالتصفيق، كأنّها مؤمنة بما قاله الروائي الروسي سولجنستين «**لا تكن أبدًا أول من يتوقف عن التصفيق**»

●●●

كنتُ بطبعي، أميلُ إلى التسامح، وأسْرعُ إلى العفو، وإنْ تولّد في قلبي روح الانتقام عند الظّلم، سرعان ما تلاشى.

وبهذه الصفات، تقرّبتُ إلى الفتى وسط دَهْشة الجميع، عانقتُه بلطف، ربتُ على ظهره بتودد على نحو مؤثر، واعتذرتُ إليه الاعتذار الّذي أثَّر فيه وأرضاه، فحطّمتُه...وسحقتُه.. فَكَسَرتُ من زهوه....

حتى انتهاء جلسة النِّقاش، كان لا غرابة، ولا تعجب، ولكن الأعجب ممّا جرى حين تقدمتُ نحو سلوى بسعادة مُسكّرة بأني مُحدثٌ بارعٌ فلم أخيّبُ ظنّها، إلاّ أنها وعلى نحوٍ متعمّد، تحوَّلت عنّي بسرعة، وأولتني ظهرها، ابتعدت بخُطى متسارعة، ورافقت الفتى وتبخرتْ من المكان!

ولكن هل كانت سلوى صادقت في الاحجام عني؟

●●●

في صباح اليوم التالي، وأنا بصددِ الخروج من المُجمّع السكني للطُلاب، رأيتُ جمعاً غفيراً من الطُلاّب وهم يُلقون نظراتهم على الجرائد الحائطية اليومية، وأول ما لفت انتباهي عنوان صحيفة التنظيم الديمقراطي:

«تنبوآت بفوز الفصيل الحكومي برئاسة الاتحاد وفقًا للتحليل النسبي ... والعددي...والرقمي أدناه»...

ومقال آخر:

«التنظِيمات ستخسر الانتخابات... ولكن لا تخسرها بسبب قوة الفصيل الحكومي، ولا بسبب ضعف التنظِيمات، بل بسبب قوة مؤشر التزوير الصاعد)

تعمّقتُ في قراءة التفاصيل، فكان حديثي البارحة في جلسةِ النِّقاش نُقل حرفاً.. حرفاً في الصحيفة.

داخلني ارتياح، بعدما وجد المقال رواجاً منقطع النظير في الجامعة بأكملها، فَما مِن طالبٍ إلاّ وقرأ تحليلي الّذِي خطّه صديقي فاروق «كرنكي». وسُرعان ما أقدم الحرس الجامعي بمصادرةِ المقال وتمزيقه ليلاً بسبب كلمات صديق فاروق كرنكي:

(الرجل لا يخاف إلا ذنبه)

وسحر كلمات حبيبتي سلوى في أُذني أثناء صمتي:

«إنَّ الشجاعة، إِتقان الخوف، وليس غياب الخوف»....

●●●

التقاء الخطوط المتوازية

بعدما أُسدل ركن النقاش، رأيتُ مِن الحكمة مقابلة فاطمة لمعرفة أسباب مراقبة سلوى لسلوكِي في حادثة المطر.

وما أَنْ التقينا حتَّى فاجأتُها:

(إِنَّ الأمر الّذِي أدهشنِي حَقّاً، هو كونها تختبرُنِي في صمتٍ ولا تكشفه لي، أي حكمة في هذا؟).

دعتْنِي للجلوسِ، فأوضحتْ:

(أَحَسَّتْ كأَنَّك تتصنَّعُ التخَلُّقَ بصفتي التسامُح والعفو بشيء مِن الغلو والمبالغة، فتوافق ذلك مع حادثة المطر فطلبتْ منّي اختبارك).

ذُهلتُ مِن هذه الشهادة:

(أحقّاً ما تقولين؟)

(هو الحق بلا ريب، غمزتُ لك يومها أَنَّها كانتْ تراقبُكَ).

(تذكرتُ، أخبريني عن لُغزك بالتقاء الخطوط المتوازية؟ ماذا أردتِ بتأويلكِ؟ فقد سألتُ أذكى الطُلاّب معرفة بنظريات الهندسة والحِساب، فضحكوا مني وسخروا بي)

أجابت ضاحكة:

(سأثبتُ لك النّظرية بطرحِ بعض الأسئلة المُحرجة، أتوافق؟)

أجبتُها بعجالة:

(اطرحي ما شئتِ من أسئلة)

طفقت تسألني:

(ألا ترى أنَّ سلوى مِن الصفوة المنتقاة؟ ألا ترى أَنَّها محطُّ الأنظار، وقِبْلةُ الآمال، ومعبدُ العشاق؟ ألا ترى كيف يتلهف الطُلاّب للظفرِ بحديثها؟).

(بلى! ولقد أذهلني ذلك حقاً وتلبّسَ عقلي).

(ومع ذلك فهي لا تبالي بهذا الإطراء، ولا شيء أحبّ إليها من تلهفها الشديد لمجاراتكَ في الحديث بمتعة إلى حدٍ بعيد، أليس ذلك أشبه بالمنكوس والمعكوس؟)

أتصدّى لغلاظة سؤالها وأجيبها بسؤال:

(وما وجه الاستحالة في ذلك إذا كانت نفسها لنفسي مائلة، وروحها لروحي منسوبة، وقلبها بقلبي متعلق؟)

تضيف من غير أنْ تجيب:

(ألمْ يسخر الفتى عادل من لُكْنة حروفك، وتلعثم كلماتك، وبساطة منظرك؟، ألا ترى أن لُكْنة حروفك، هو كُلّ ما رقّ وعذب في مسمعها؟ ... وتلعثم حروفك هو كُلّ ما سهل ولطف في قلبها؟ وبساطة منظرك كُلّ ما حسُن في عينيها وحلا في صدرها؟ ... أليس ذلك أعجب من عجيب؟)

إنها نقيصة لا أقبلها فأجبتُها بسؤال آخر:

(عفواً.... لكن المرء بأليفه، ألا تعلمي أننا نسيج وحدة، متفقان في الخيال، ومتشاكلان في الطباع، وإن اختلفنا في الصورة، وتباعدنا في السيرة؟)،

لم ترد، وتواصل أسئلتها:

(أليس انحناؤها لك أمام الحضور بكُلِّ فخر وإعزاز بمنزلتها السّامية، ومنزلتك البسيطة، أشبه بالمبدل والمقلوب؟)

لن أرضى بإهانة النفس، أجبتُها بسؤال أشدّ حزماً:

(إنّكِ أسأتِ ظنّا بعقلها، وجهلتِ فضل عيونها، ألم تعلمي أنها تنظر إليّ ببصيرة قلبها وليس بعينيها؟ ألا تعلمي إن حبنا للأدب أقرب إلفاً، وأوثق مودة؟، وما انحناؤها لي إلا دليلاً على أنّ منزلتها موصولة في منزلتي، ومزاجها صفةٌ من صفاتي، ونعتٌ من نعوتي)

تحرّجتُ من إجابتي فردتُ بروحِ الاعتذار:

(لكن... التقاء قلبيكما بهذا التضاد، في نظري، قد قام تماماً مقام التقاء الخطوط المتوازية)

رغم سخريتها، فأنا سعيدٌ جداً بالتقاء خطوطنا المتوازية، فسمحتُ لها بعدها أن تقول ما تشاء. فختمتْ حديثها:

(إنَّ سلوى تريدُ أنْ تُكَوّنَ حياةً خاصة لا يشاركها فيها إلاّ مَنْ يتخلَّق بصفاتها السبع).

سألتها:

(باللّه عليكِ، وما هي بقية صفاتها حَتَّى أَتَخَلَّق بها؟).

فكَّرَتْ ملياً ثُمَّ قالتْ:

(لن أهتكُ سرّها، ولكن أُأكد لكَ، أنها ستختبرُك في بقية صفاتها بطريقة قد تدهشك).

اجتاحتْني فرحةٌ مباغتة، فأنشأتُ أُحدِّثُ نفسي: «ما أعظم ما جُبِلَت عليه مِن صفات!، حتى أسلب قلب هذه الطالبة، إِنَّ هذه الصفات لن تموتَ أَبَدَاً».

نهضتْ واقفة تُبشرني:

(أنت أحسنُ الطُلاّب حظّاً، وأسعدهم طالعاً، فليهنئك الظفر، بعاطفة كامنة كمون النّار في الحجر، لم يحن وقت اشتعالها بعد)

غادرتُها، يركبُني زهوٌ وخيلاءٌ، أكادُ لا أطأُ الأرضَ مِن فَرْطِ السَّعادة.

●●●

عندما يبكي العُشاق

بعد بشارة صديقتها فاطمة، أيقنتُ تماماً، أنَّ حبي في قِلاع محصنَّة، وأن شرايين قلبينا ارتبطا ارتباطاً، لا تنقطع عُراها.

ذهبتُ إلى كليتها بشوق أنشدُهَا، ولكن شوقي تكدّر عندما رأيتُها ما زالتْ تُسَاير الفتى عادل، وهذه المَرَّة، تغوص في أعماق السِّياسة، تُقَدِّمُ فنّاً آخرًا مِن فنونها، فنّ إلقاء الشّعِر السياسي:

مساجينـــــك مساجينـــــك
نغـــــــرد في زنازينـــــك
عصافيرًا مُجرحة بسكاكينك
نغنـــي ونحـــن في أســـرك
وترجـــف وأنت في قصـــرك
سماواتـــــك دخاخينـــــك

(أيّها الطُلاّب والطالبات، يدعوكم التنظيم الديمقراطي لحضور ركنٍ للنقاش بكافتيريا كُلية الهندسة، وذلك بعد قليل)

سُحْقَاً لك أيتها السِّياسة! فإِنَّ بشارة فاطمة لم تدمْ غير ساعةٍ من نهار.

لقد تغيَّرتْ سلوى وتنكَّرتْ في يومٍ واحدٍ. إنَّ قلب المرأة أكثرُ تقلُّباً مِن تقلُّبِ لون الحرباءِ. أتقرَّبُ إليهما، فأرى أمارات السَّعادة بادية في وجه الفتى تنطقُ، وسيماء الحُبّ بادية في جبين حبيبتي تتقطر.

تبذلُ مجهوداً لإخفاءِ مشاعرها، ولكن فرقعتها لأصابعها، وانكسار عينيها، وتحاشيها تلاقي أعيننا يفضحها.

والحقّ، كنتُ لا أرى إلاّ بمنظار نار الغيرة، ودون إدراكٍ منّي أتسمّرُ أمامها كأنّي أمنعها من الفتى، ودون إدراكٍ منه، يتوقف أمامي كأنّه يتصدّى لها.

ينظر إليَّ بحقدٍ، فأحسُّ كأَنَّه يطلقُ سهامَ كنانتِهِ كلها دفعةً واحدة فتصيب كبدي وتمزقه أشلاء.

تُحسّ سلوى، أنّنا نعشقها كعشق الفراشة للأزهار، فزادتْ ثقتُها بجمالها، رأتْ أنْ نستخدمَ جمالَهَا مرآةً نتزيَّنُ عندها كُلّ صباح. فتصير العلاقة بيننا أكثر تعقيداً، لا هي تهجرنا معاً فنستغني عنها، ولا هي تبحثُ عنّا ليتجدد أملنا، مَنْ شملته بابتسامتها ظنَّ أَنَّه الأثير عندها، فتركتْ كِلَيْنَا بين الأملِ والرجاءِ، والحيرة.

ومها يكن مِن أمر، لابدَّ أنْ تحبَّ أحدنا، فالقلب لا يتسعُ لعاشقين، أَوَ لَيْسَ هو أقرب بحكم تكوينه السياسي، وتوافق ذلك مع شغفها للسياسة؟، أَوَ لَيْسَ هو أدنى صحبة بحسنٍ وسامته؟

وما زاد مِن يقيني أَنَّها كانتْ تحتضنُ فوق صدرها كتاباً عن السِّياسة بعنوان «**السودان والنّفق المظلم**» مِن أَيْنَ لها هذا الكتاب؟ إنّهُ هدية مِن الفتى، وما في ذلك ريب.

ماذا لو كان هذا الكتاب؛ بداية لزلزال سياسي لتصدع معبد حُبِّي المتهالك؟

رحتُ أُطمئنُ نفسي:

«لكنها أُعْجِبَتْ بإيقاع لغة خيالي في الأدبِ، اختبرتْنِي مع طالبات كُلية الآداب من حملةِ شهادة الماجستير والدكتوراه في اللّغة العربية،؛ فأظهرتُ الفصاحة والبيان»

«عبرتُ شواطئ مقلتيها في مناظرتنا الأولى، إذنْ، سأحرقُ مراكبَ خوفي وانطوائي مِن ورائي، لأقاتل لحُبّي حتّى الممات».

«أَلَمْ يعْبر طارق بن زياد شواطئ الأندلس، فحرقَ المراكب مِن ورائه، حتّى لا تحدَّثه نفسه بالتراجع فقال لجنوده: «**قاتلوا أو موتوا**»؟ أليستْ هذه الذكرى تشبهني؟»

طال وقوفي انتظرُ محادثتها، يدنو منها الفتى، يكادُ يلتصقُ بخاصرتها، يبثُّ في أُذُنيها كلمات لا تكادُ تُسْمَعُ؛ تستسلمُ لسحرِهِ كأَنَّها تحت التخدير العشقي، ولا تحسُّ بالّذِي يذوبُ أمامها! فيبدأُ الانهيار الداخلي يتمدد في أطرافي.

هممت بالمغادرة، ولكن المُحبّ لا يكون واهباً لغريمه وإنَّمَا سالِبَاً له، سأتلظَّى بنار الغيرة حتّى أستحيل رماداً، ولن أتركَ حبي لمتنطعٍ غوتّهُ تكتيكات السِّياسة.

كان الفتى لا يغفل عن فرصةٍ، إلاّ وقدح ما في قلبه من سخرية وهو يرى الحسناء توليني اهتماماً بالغاً، تشملني بمودتها رغم سواد بشرتي، بينما هو الفتى الجميل، ذو الأنف المستقيم لم يحظَ بمقدار العُشر مما حظيتُ به بعد.

انفجر فيّ ساخراً:

(يا «بيلّو» لقد رأيتُ في حياتي كثيراً من ثقيلي الدم، لكن أنْتَ أثْقل الطُلاّب دَمّاً قُدّر لي أنْ أراه في حياتي، فدعنا نذهب، فقد حضر وقت ركن النِّقاش)

تابع حديثه، وقد شجعه صمت سلوى وابتسامتها له:

(«يا بيلّو» لقد أسرفت في الكلام، يحسن بك أن تكون خفيف الدم، حذار أن تكرهك غداً أكثر مما تمقتك اليوم، فرحماك، دعنا نذهب)

ولكني كنتُ للصبر محتملاً:

(حسناً، فإن كنْتَ ما زلت تسخر مني باسم «بيلّو» فذلك عجبٌ، وإن كنتَ تظنَّ أن الاسم يحطّ من علاقتنا فذلك الأعجب، فأعلم أن اسم «بيلو» شرّفها لتتعرّف عليّ قبل مجاملتها بالتحدث إليك!)

ثمّ سمحتُ لهما بالذهاب بانحناءة رافقها كثير من الاحترام والتواضع، ولكنّ سلوى كانت لي أنكر.

رافقتْه وتركتْني واقفاً كشاهد قبرٍ، عيناي ترميان اللهبَ، وقلبي يخفق كمضخة في صدري، أتحسسُه فلا أجدُ له مكاناً.

أيقنتُ أنَّ حبَّ الطّالبة كالظلِ ليس له ثباتٌ. كالسّرطانِ ليس له شفاءٌ، أَنَّ عشق الطّالبة كالعطر ليس له طولُ بقاء.

لعلَّ ضميرها أنّبها، وقلبها أوجعها أن تتركني، فلاحت منها التفاتة... وتوقفتْ تحادث الفتى طويلاً.

عادتْ لتقول بلغة ٍفيها شيء من الرجاء والرأفة:

(ظننتُك سترافقنا، ألن تحضرْ؟ هيّا معنا.... هيّا)

أصيبها بشظايا نارِ الغيرة:

(إنّي بمعزلٍ عمَّا أنتِ فيه).

تتنهّد في ضيق، وتدافع عن توجهها الجديد:

(حسناً، إنَّ عادلاً قال حديثاً أعجبني وهو:

«إنَّ الأنشطة الجامعية، تستمد قوتها من قوة أركان النِّقاش، فإذا ضَعُفَ هذا الركن، ضَعُفَتِ الأنشطةُ الأخرى تباعاً. فإنْ انتظرتَ غير ذلك، فعلى عقلك العفاء» وإنَّني مؤمنة جداً بعبقريتهِ).

آه! كلماتُها حادةٌ قاطعةٌ كسكين مسنون.

رحت أدافع عمّا تبقى من حبي بعدما مدحته بالعبقري:

(فَمَا سرُّ نجاحِ الأدباءِ الّذين لا يفقهون شيئا ممّا يقوله الساسة، كأمثال الإمام محمد عبده الّذِي قال: «**لعنَ اللّهُ كُلَّ ساسَ ويسوس وسائس ومسوس**»؟).

وكأنَّها ملَّتْ مني، فتطلق السهام في قلبي:

(وما سرُّ نجاحِ السياسيين الّذِي لا يفقهون شيئا مِمّا يقوله الحب، كأمثال موسوليني، ولينين، وستالين، الّذين غيَّروا خارطة الكون الجيوسياسية؟)

أحسُّ بمرارة كطعم العلقم في حلقي، فهذه الأسماء الّتي ذكرتْها، هي نفسها الّتي ذكرها عادل في ركن النّقاش البارحة، أتراها أصبحتْ أسيرة للحُبّ السياسي؟

أظلمتْ الدُّنْيا بأسرها في وجهي. أحاولُ جاهداً استبقاءها، حتّى يملَّ عادل مِن الانتظار؛ فيتركها لي:

(يا ابنة الأكرمين، إنَّ السِّياسة تتعارضُ مع الأخلاق الفاضلة، وهؤلاء الساسة فاضلوا بين صنوف الشرَّ ودرجاته، سفكوا دماءً طاهرة، شرّدوا أبرياء عُزَّل فليتكِ تعلمين!).

لم تحتملْ الوقوف، تميلُ بجسمها يمنة ويسرة، وتبدّل قدماً مكان أخرى؛ ترمي بطرفها نحوه، وتشيرُ بحركة خفية مِن يديها بـ «انتظر» فأصاب بالانهيار العصبي.

تقولُ بنفاد صبرٍ:

(أوووه! أفتراني أدعُ وصية العبقري الصائبة، وآخذ بقولك الضعيف؟ فدع عنكَ ما لست تعلم للشاب الوسيم).

والواقع أن موقفها معي بالغ الغرابة، أشعرُ بالاختناق، وتتوقف كلماتي في حنجرتي.

أقول وأنا أئن كأنين المريض:

(يا ابنة الكِرام، ما هذا الوجه الّذِي أنكرتهِ علينا؟ لِمَ كرهتِ لقائي وهويتِ بعدي؟ لِمَ تخسرين مُحبٍ مُفرِط كتب عنكِ أجمل ما قيل في بطون الكتب؟)

تجيبُ بلُغز، وبصوتٍ حزين كأنّها تغالب دمعة:

(ليس لك من الكفاءة الفلسفية ما يؤهلك لفهم قناع وجهي، وأنه وجه ذو ثلاث أقنعة «يخفي» و «يظهر» و» يستبين»)

كنت أعجز من فهم لُغزها، أستجمعُ شتات عزيمتي، وأُميط اللثام بما يئن به قلبي وأتجاهل مغزى قناع وجهها:

(إنّ ما يتمثل أمامي، لشديد الوطأة على قلبي، ويختلجُ ڇ صدري بحق، هلُمّي إلى دنيا غرامنا، أو نختار فراقاً حاسماً قبل أن يقتلني حُبكِ).

أَطْرِقُ برأسي خَجِلاً بعدما كشفتُ لها ما يئنّ به قلبي مِن مآرب وأوطار.

توبخني توبيخاً شديدًا:

(وساوسُكَ تُصيبُنِي بالغثيانِ، لأني أوليتُك خالص سريرتي، وأفردتُك مِن دون الطُلاّب جليساً، وعهدي معك دوماً ڇ صرخة اليأس، فلِمَ لا تفهم؟).

سألتها بدهشة:

(أفهم ماذا؟ وتالله لقد أشَكَل عليّ هذا الفهم، لقد ضاق صدري بفلسفتكِ، فأكشفيه لي، إني احتضر).

وعلى حين فجأة، قامت بتغيير مجرى حديثها على نحوٍ مغاير، حين أحسّتْ أنّي بدأت أفهم فنجحتْ ڇ تضليلي ضلالاً بعيداً:

(ألا تعلم دورها الكبير في تعزيز الوعي السياسي لدى الطلاب ورفع ألبابهم نحو آفاق المعرفة، والانتماء للأحزاب، ومفاهيم الديمقراطية، والتعددية؟)

استولى عليّ ألمٌ ما فتئ يزدادُ، أجبتُها لأخرج من عنق الزجاجة التي وضعتني فيها:

(بلى، ولكن السِّياسة فقدتْ رونقها بسبب العنف المفرط مِن قِبل الأجهزة الأمنية ضد الطُلاّب، لتحجيم دورهم وعزلهم سياسياً، فأخشى عليكِ أنْ تتركي الخير وتختاري الشرَّ، فتنهلي مِن منبع الضلالة، ومغارس الفتن).

تسألني بنبرة لا رحمة فيها:

(ما أعجز فكرك!، وما أصغر عقلك!، أترافقني أمْ ألْحقُ بذلك الوسيم الّذِي ينتظرني؟).

علمتُ أَنَّه سيطولُ بكائي مع هذا الوسيم فأجبتُها بنبرة الوداع:

(إني أتبرّأ منكِ في هذه المجالس).

تجيبُ بشررٍ كالنار:

(أتدري، مجالسة المرضى، ومُجاورة الموتى أهون من محادثتك ثانية؟).

أجبتُها بقلب يتفطر دماً:

(إنّكِ تمزقين جسدي بكلماتكِ القاسية شرّ ممزق، إن كان حضوري لا يسر ناظريكِ، حملتُ نفسي على نسيناكِ وثقي بما أقول)

ولكنّها أدخلتْ في نفسي العجب، تعيد حديثُها الأول الّذِي انحرفت عنه بلغةٍ دقيقة المعنى لتثني عن تهديدي:

(لِمَ تجْهلُ مَغْزَى تَصْفِيقنُا في جَلْسةِ النِّقاش، وتَتبلدُ في امتحان طالباتِ كُلية الآداب، وتَعْوجُ بما قوّمناك في حادثة المطر؟)

أثبتتْ صحة لغتها المغلقة لاحقاً بفلسفةٍ عجيبة. ولكن لحظتها كان قلبي خاوياً، لا يسمع داعياً، ولا يجيبُ سائلاً، فقد اسْتولت عليه نار الغيرة، وأغْفله جمال الفتى فكأنّما على بصري غشاوة.

●●●

لم يحتمل الفتى إسرافي في الحديث، ملّ من الانتظار فجاء وشمّخَ بأنفه، وأظهر ما يخفيه في قلبه من عنصرية، فما عاد قلبه يكتمه:

(يا «بيلّو» يا كرِيه المشمّة، فقد أجهدتها بالوقوف، واللّه لأنتَ أهْوَن عليها من نملة، فهذه هي الحقيقة عينها)

قلتُ في نفسي: هل أكثر العنصريين إلاّ من ذوي الوسامة والجمال؟، ومن على شاكلة هذا الفتى؟ لكني كنت للذلةِ محتملاً.

أوسعتُ الفتى حِكماً، وأشبعتُه فخراً:

(لعمري لئن دعوتني بأحطِّ النُعوت وأقذعها، لن تسمع منّي إلاّ قولا ليناً حتى في المنام، إن جميل الوجه مثلك يا أخي العزيز، لو تحلّى بخلق حسن، ولفظٍ نبيل، لتضاعفت وسامته، وأصبح ملكاً يمشي على الأرض).

ظننتُ أن قلب سلوى سيذوب رأفة برقّة كلماتي، لكنها كانت أشدّ لي إنكاراً من قبل، تحاشتِ النّظر في وجهي، وأضربت عني صفحاً، رافقت الفتى تتهادى في مشيتها المعتادة كوقار كالطاؤوس.

يا للطعنة النّجلاء!

أرى بإبصار غَيْرَتي، أَنَّ قلبها يبتعد عنّي مِن غيرِ رجعة، وروحها تلتصقُ بفؤاد الفتى مِن غير انفصال.

لو جُعِل للوجع صوتٌ؛ لذابتِ قلوبُ العاشقين عندما يسمعون دوى ألمي

لو جُعِلَ للغيرَةِ وزنٌ؛ لخُسِفَتْ قدماي في باطنِ الأرض مِن ثقل حديثها.

لو خُلِقَ للقلبِ لسانٌ؛ لنطق «إِنِّي أتوجعُ، إِنِّي أتفطّرُ، إِنِّي أنزفُ».

قلت لنفسي: «لا أرى بأسًا في البكاء، وهل يعيب رجلاً أن يبكي؟»

لم أجب عن سؤالي.

كانت دمعة ساخنة تنحدر مِن عيني، فداريتُها بصمتِ الليل المظلم. لا أعلمُ أكانتْ دمعة الغيرة، أم دمعة الوداعِ؟

●●●

الباب الثاني

«إسْقاط قلب الفتاة.... في شراكِ الدّهاة»

قانون نِيُوتن

جمالها، كان شؤماً عليَّ، فلو أَنَّها كانتْ متوسطة الجمال، أو دميمة المنظر، لما وجدْتُ منافسةً مِن الفتى عادل، ولما تفطّر قلبي، ولما تركتُ محاضراتي كي أهيم بها.

جمالها كان جالب كُلّ غيرة، وسارقُ كُلّ بسمة، وما تذكَّرتُ الفتى وهو يخاصرها؛ إلاّ وشعرتُ بمزيجٍ مِن المرارةِ والانهزام.

ذهبتُ إِلى صديقي وحكيتُ له أمري:

(إِنَّ الفتى ينازعُنِي حبي مع سلوى، ويجرُّها في أتون السِّياسة، فشغفتْ بأركان النِّقاش، وقد علمتَ أنَّ طبعي الخجل والانطواء).

يقولُ قولاً صائباً:

(إِنَّ الحُبَّ ليس رجاؤه بالسِّياسة وجمالِ الوجه، ولكن بحلاوةِ اللسان، فالميل الأدبي نار الحُبّ الكامنة، وجرعات الحُبّ تقدح فتيلها).

أجيب مُؤَمِّنَاً على قوله:

(إنّ سلوى تفهم معنى الحُبّ، وتجهل معنى السِّياسة).

يقطب جبينه:

(إذن، محال أنْ تمتزج ميولها الأدبية الصريحة مع توجهه السياسي المتملق، و«جرعة نار الغيرة» فاصلة الحُبّ الكذاب).

أسـأَلُه باندهـاش:

(مـاذا تعنـي؟).

(لأنّ قصتك زاوية مِن زوايا قانون نيوتن الثالث في الفيزياء).

توقفتْ حَاسةُ الإدراك مِني فسـألتُه:

(لعلك تدري أني لا أفهمُ الآن أي لغة مغلقة، فقلْ بلا مواربةٍ).

يُجيبُ بمواربةٍ أكثر غموضا:

(لِـكُلِّ قـوةِ فعـلٍ، قـوةُ ردّ فعـلٍ لـه مسـاوٍ في المقـدارِ، ومعاكس لـه في الاتجـاه).

(إلى ماذا تشير؟)

يتعمّق في فلسفته:

(كمـا في قانـون السِّياسـة: العنـف لا يولـد إلاّ عنفـاً، والمقاومـة لا تولـد إلاّ ثـورةً).

(تبـاً وسـحقاً لـك، لقـد أقدحـتُ زنـاد فكـري ولـم أفهـم، فسّـر ووضـح قصـدكَ في أقلِ قـدرٍ مـن الكلمـات وأوجـز).

ينظر إليّ وكأنّي أُعَانِي عسر الفهمِ:

(يـا عـم! كمـا في قانـون الحُـبّ: لـكّلِّ نـار غيـرة، نـارٌ أخـرى تقابلهـا وتفتـكُ بهـا).

كان عقلي في شُغُلٍ شاغلٍ مع لوعة الحُبّ، لم أفهمْ ما يقولُ؛ فصرخ في وجهي:

(بئس العقل عقلك، عاملها بالمثل، جالس فتاةً تضاهيها جمالاً، وسترى أنّكَ هجرتها بأجمل منها، ستقوم بتحدي تلك الفتاة. لأنّها لن تتحدى فتاة دميمة، أو فتاة شوهاء، بل فتاة جديرة بالتحدي، ستعتقد أنّك وجدتَ أديبة أجمل منها، وأنَّك قد مللت مِن حبّها، ولكنّك تقدّم لحُبّكما الأبدي مدداً جديداً بطعم نار الغيرة).

يضيفُ بهدوء:

(كنتُ قد أَلَّفْتُ قصَّةً تشبهكما لنشرها، وسأقوم بتغيير جرعاتها التخديرية لتتلاءم مع حالتكما، ونطلق عليها الخطّة العاطفية: «**إسْقاط قلب الفتاة .... في شراكِ الدّهاة**»).

فأكبرتُه كُلَّ الإكبارِ:

(ويحك!، أيِّ داهية مثلك؟).

يفاجئني:

(سترافقني غداً في مأدبة تعارف لتجنيد طالبتين للتنظيم من حملة الشهادة العربية كأنّهما وردتان نبتتا مِن مَغْرَسٍ واحد، لا يفترقان، وستعود بحسناء كُلية الهندسة لتكون غريمة حبيبتك)

●●●

وبعد أسبوع نشر الخطّة بين يدّي، وتقع في (١٥٠) ورقة، أودع فيها فنونًا من الأمثال، وضروبًا من الحِكم، وأنواعًا من المواعظ والفلسفة.

وفي كل صفحة خطّة عاطفية محكمة تحكي كيفية بناء علاقات عاطفية راسخة بين الطُلاّب والطالبات في الجامعة لا تطمسها السنين.

خلوت بنفسي كأني عثرتُ على كنزٍ دفين، فأقبلتُ في قراءة الكتاب بنهم وشراهة، ومن مقتطفات الخطّة:

«.....إنَّ الطّالبة في بداية المرحلة الجامعية، تكُون في مرحلة الإعجاب فتبصر بمقلتيها فتنجذب نحو الوسامة والجمال، فلا يستطيع الجمال اختراق نياط قلبها، مما يعجّل بانتهاء الحب بانتهاء مرحلة الإعجاب، وهذه الحالة أشبه بحالتها مع الفتى عادل».

«....في السنة الثانية تدخل مرحلة بناء العلَاقة، فتتخلّى عن مقلتيها فتبصر بنور بصيرتها. ستجد الحب أجمل عندما يتحلّى جليسها بحسن المعاملة، وطيب الكلام، فإنّ أحسن الطُلاّب خُلُقًا، أقربهم إلى قُلُوبِ الطالبات مودة، فلن تضع للجمال وزنا ولا للوسامة دينا، فتستحيل العلاقة إلى حب جارف لا يصد مجراه إلّا ريب المنون، وهذه الحالة ستكون أشبه بحالتك.

ولولا فضيلة حُسن الخُلُق على الجمال، لما وصف الله تعالى نبيه بحُسنِ الخُلُق دون الجمال، حيث يقول، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ».

وفي صفحةٍ أخرى:

«.......بعد انتهاء الجرعات التخديرية المتنوعة، ستكون حبيبتك في ثورة عاطفية متأججة لا عهد لها بها، سيكون قلبها موصدًا، ومحكم الإغلاق ضد تيارات الحُبّ الجارفة، سيكون الحُبّ مِنْ بعدك، إهانة لكبريائها، وإذلالاً لجمالها، فلن تجد مَنْ يتشبه بلونيتك، ولا يطأ ما وطأته قدماك، ولا مَنْ يُغامر كما غامرتَ بحبها، ولو كان زوجها في العالم الافتراضي! اللهُّمَّ إلّا إذا كَرِهَتَك.... فإن المرأة إذا كرهت قتلت»

●●●

أطمأنَّ قلبي من الخطّة، فإن سلوى لا تكرهني بل تضمر لي الوفاء... ولكن تكدّر صفائي كيف تذكرتُ أنّي لا أتَحلّى بالشجاعةِ الأدبية، فَأَنَّى لِي بالجلوسِ مع أجمل الحسناوات من كُلية الهنّدسة لإشعالِ جرعة نار الغيرة؟

ألقيتُ نظرة في الصفحةِ التي يصف فيها ضعف شجاعتي الأدبية، ولُكْنة لساني والخوف الّذِي يلازمني:

«......إذا انفطر قلب المُحب، فلا مندوحة مِنْ استحالة ضعف الشجاعة الأدبية إلى رباطةِ جأش. والعيّ إلى بلاغة، وسِتْرَ الخوف بزخرف القول،

وسيكون اللقاء مع الحسناء بقلبٍ جامع، وإرادة جسورة،

فيصول المُحب صولة الأسد، ويراوغ روغان الثعلب. فلا شيء يعوق لقاء الحسناء ولو كان الموت الزؤام.»

●●●

الغريمة الحسناء

أعـددتُ للخطّـة عدتهـا، وهيـأتُ للقـاء الحسـناء هيأتـه، ذهبـتُ إلـى مأدبـة التعـارف بكُليـة الهندسـة، وقفلـتُ راجعـاً أرافـق طالبـة حسـناء، تتمتـعُ بأنوثـة ناضجـة، وجمـالٍ فتّـان، فملامـح وجههـا نـورٌ زاهـر، واسـيل خدّيهـا احمـرارٌ باهـر.

ومـا أيسـر اصطحـابِ حسـناء مِـن حَمَلَـةِ الشّـهادة العربيـة، فمـا عليـك إلاّ التـزَود بقليـلٍ مِـن الشـجاعة، وجرأة بدرجـةِ الوقاحـة.

وجدتُهـا سـهلة الانقيـاد، سلسـة القِيـادة، ليّنـة الطاعـة، شـديدة المجاملـة أحسـنهنّ اسـتماعاً، وأقلهـنّ نقاشـاً، ولسـانها لا يطـوعُ بكلمـة لا ...... إنمـا يطـوع بعبـارات: «سـأذهبُ إلـى حيـثُ أردتَ». «وسـأجيبُ كيـف شـئتَ».

«وسأنتظر مكان رغبت».

إنهـا غريمـة لسـلوى، لأنَّهـا تضاهيهـا جمـالاً، سـأكوي بهـا مشـاعرها بحيـث تكون، قصيـرة المـدّة، أليمـة الشـدّة، سـريعة الفائدة، دون إغفـال مسـافة الأمـان لفقدانهـا، واسـتردادها إذا تباعـدتْ عنّـي، ولـن أُمكنهـا الهـرب.

•••

جلسـنا في مَرْمَـى بصـر سـلوى في كافتيريـا العلـوم، ومـا لبثنـا إلاّ قليـلاً، حتّـى جـاءتْ تخْطُـر في مشـيتها المعتـادة، ولشـدّ مـا تفاجـأتْ عندمـا أبصرتْنَـا.

تسمَّرَتْ في وقفتها هلعة، متجمّدة... كأَنَّها تتساءلُ:

«إلهي! مِن أيّ كُلية يشْرِق هذا القمر؟»

صِرتُ أهمسُ شجوني في أُذُن الحسناء وأنا يتملكُنِي الإشفاق على سلوى، فقد أضمرتْ لي الوفاء والإخلاص، وكنتُ كُلَّمَا التقيتُها تساير عادل، توقفتْ لتصافحني بإجلال، ولكن ما حيلتي؟ إنَّنِي أُنفّذُ خطّة عاطفية رومانسية محكمة.

بدا لي أنّ جمال الحسناء أفقدها الصواب، وتجاهُلي لها باللامبالاة جعلها تذرع خطواتها حولنا في إقبالٍ وإدبار.

أخيراً ثابت إلى رشدها، كظمتْ غيظها، واستعادتْ رباطة جأشها فغادرتْنَا، وجلستُ ببرودٍ مع الحسناء، وقلبي وروحي، في شغلٍ شاغلٍ مع قلب سلوى المكلوم.

●●●

وفي اليوم التالي التقينا، ولكن تغيَّرتْ بهجتُها، وتَنَكَّرَتْ بشاشتها، كأَنَّ في قلبها جُرحاً غائراً يسيل دماً، وحزناً ينطقُ ألماً مِن واقع نبرات حديثها.

لم تستطعْ مُدَارَاة غيرتها، حاولتْ أَنْ تُضمّدَ نزيفَ قلبها الجريح، وتتظاهر بالاستهانة بالحسناء، ولكنها لم تستطع، طعنها كبرياء جمالها طعنة نجلاء.

ما عاد مجاراتي في الأدب لذة لها كما تعوَّدتْ، كما لَمْ تعُد تتذوق لحديث الغزل طعماً، ولا للقصص القصيرة مسمعاً.

قالتْ، وهي تحاولُ أنْ تبدو هادئة:

(نراك تصنع شيئاً ما عهدناك به، تتوسع غربًا- تقع كلية الهندسة غرب الجامعة-، وتضم دولاً جميلة إلى إمبراطوريتك العاطفية).

أجبتُها بلغتها:

(إنّها دولة ذات سيادة لصديقي، وليس لنا مَطْمَع فيها، خاصّة ونحن في دولة كُلية الآداب، نتمتع بعلاقات حسن الجوار مع جمال دولة كُلية العلوم التي بدأت تنفذ أجندة خارجية).

ابتلعتُ مرارةَ كلماتي ولاذتُ بالصمتِ، رأتْ أَنَّ جمالَ الحسناء قد أثار غيرتها، فضاعف حزنها، لا بدّ أنْ تنتقم لجمالها الّذِي أصبح هناك مَنْ يُنافسُه.

قالت بعصبية بيّنة:

(كنتَ غارق في بحر الحب بدرجة أنك لا تستطيع أن ترى حولك)

هي لا تستطيعُ أَنْ تَتَكُرَ جمال الحسناء، لا تستطيع أن تنسى وجهها المتلألئ كأَنَّه شقة قمر يحكي سر جماله الّذِي بَهَرَ.

ولا حاجبيها السميكتين كأنّهما خُطا بقلم لغزارة أهدابهما.

ولا عينيها الواسعتين الغارقتين في بحيرة صافية تتماوج تحت أشعة الأصيل.

لا تستطيع أنْ تنسى خدَّها النّاضِر كأنّ نضارته تنبع مِن نفسه، وشعاعه يبعثُ مِن ذاتِهِ.

●●●

بعد حين... بدأتْ عواطفُها المتأججة، تنقلبُ إلى شظايا مِن نارٍ تصيبني في مقتل، أشعلتْ في جسدي ناراً لا يهدأُ لهيبها، ولا يسكنُ أوارها لأتلظى بنار الغيرة كما تَلَظَّتْ هي، وأتألم كما تألمتْ، وأسهدُ ليالٍ كما سهدتْ ليالٍ.

في ذات صباح، جاءت إلى كُليتي تسايرُ الفتى عادل، مكسورة الخاطر، ومَهِيضَةِ الجناح، ما جاءتْ برفقته، إلاّ لتجعلَ مِنه أديبًا ونظيراً للحسناء.

كانتْ تتحاشى أنْ أراها برفقتِهِ مُراعاةً لمشاعري، فما بالها اليوم تساير الفتى نكاية لي؟

أليس مردَّ هذا العذاب أن جرعة نار الغيرة أتت أُكلها؟

بدأتْ تتألمُ، نوعاً جديداً مِن الألمِ، ألماً ما فتئ يزداد، تنطوي عليه وحدها دون أنْ تشاركَ أديبها الجديد.

هجرتني بنوعٍ من مُكَابَرَةِ الجمال، ضقتُ ذرعاً بهجرانها، شعرتُ أنّي أتعذبُ أكثرُ منها.

ولمّا طال تغافلها، عيلَ صبري، ذهبتُ أبحثُ عنها لاستلطافها وإرضائها فلم أجد لها مكاناً، توجهتُ إلى صديقتِهَا فباغتُّها بسؤال، فلم يكن هناك مجال للمداراة:

(لقد أجهدني البحثُ عن سلوى؛ فجئتُ التمس منكِ أخبارها، فبالله أين أجدها؟)

كأنَّها فُوجئتْ بسؤالي.

نظرتْ إليَّ في دَهْشَةٍ عُظْمَى، ثمّ أطلقتْ ضحكة:

(هههها. ألا تعرف كيف تتدبر الحب؟ للحب هدنة! احذر ... ثمّ احذر «أن تلامس الأرض وأنت تطير»!)

لم أفهم لعباراتها معنى إلا بعد حين، فسألتها دون تحرّج ممازحًا:

(لا تعبثي بجراح محب يحتضر)

في الواقع كانت لغتها لُغز غريب يستعصي فهمه، لأنها كانت تتحدث بلغة سلوى.

صمتَتْ برهةً، ثُمَّ صاحتْ:

(ستجدُهَا في الميدان الشّرقي تخالط الفتى عادل كما وجدناك يوماً في كافتيريا العلوم تغازل حسناء كُلية الهندسة).

شعرتُ بكلماتِهَا، كأسياخٍ مِن نُحاسٍ مُحَمَّاة بالنَّار تغوصُ في قلبي، ومن لدُنها ذهبتُ مباشرة إِلى المكان المُسمّى أرجمُ الظّنونَ رجماً، فاذا الأمرُ حقٌ.

رأيتُ أنوار الحُبّ تتماوج بينهما؛ انقبضَ قلبي انقباضاً شديداً، تقدمتُ بأقدامٍ لا تكادُ تحملُني، وعندما أبصراني قادماً، دنا الفتى مِنها بنكاية صاحبها التّكلُف والاصطناع، وهي مستسلمة له يفعلُ كما يشاء!

تساءلتُ:

«لماذا لا تتصدّى لهذا الوغد وتعيده إِلى حدودِ الأدب؟»

حدَّثتني نفسي، إمَّا أنْ يتوقفُ هذا الوقح، وإلاّ أوسعتُه ضرباً، بَيْدَ أَنِّي خفتُ عاقبته.

عدتُ فراراً مِن شقاءِ نار الغيرة وبلائها، بدا لي بمقياسِ الألم الّذي تَوَلَّد في قلبي، أنِّي أتجرعُ كأسَ الغيرة التِي أعددْتُها لها، رشفةً واحدة.

●●●

ثمّ بدأتْ تناصبُنِي العداءَ، فما التقينا وتقدَّمْتُ لمصافحتِهَا، إلاّ وصدَّتْ مُغَاضِبة.

ثُمَّ استحالتْ علاقاتنا إلى حوار الطرشَان، تتجاهلني بنوعٍ من معاندة الحب، أخاطبها فلا تجيبُ، فصار التواصُل بيننا غير ممكن.

بلغ مني الجهد، في رأبِ ما أفسدتْه نارُ الغيرة جهداً عظيماً.

ثُمَّ أصبحتُ لا أراها إلاَّ لماماً، اشتاق قلبي إليها، ولم أعدْ احتملُ هجرانّها المُتَّصِل، ذهبتُ إليها مرَّة أخرى صاغراً مستسلماً. وإنْ تعفَّرتْ جبهتي تحت قدميها لأكفّر عن ذنبي.

بدا لي إنّها تظهرُ الكراهة، وتضمر الوفاء والمحبة.

نظرتْ إليّ نظرة مُتوعِدة لتقولَ:

(قُلْ ما تشاءُ بإيجاز، لدينا ركن نقاش)

(لعمرك ما لقيتُ منك من صدود، لأشدّ وجعًا من الموت، هل هُنت عليكِ؟)

لم تجب، هزّت برأسها منكرة، فغابتْ عن ناظري، وطال انتظاري، وطال تغافلها، فأحسستُ أنَّ حُبِّي، ليس له موضع في قلبها.

ما زادت نار الغيرة بيننا إلاّ بُعداً.

وما أثمرت إلاّ بُغْضاً.

وما أورث إلاَّ حسرةً وندامةً.

ولم يخطر ببالي أَنَّ نارَ الغيرة، وبِيل العاقبة .... بشع الثّمرة... نتن الرائحة.

ما كنت أحسَبُ أني أنفخ من غير فحم، وأقدح من غير زناد.

مَقَتُّ صديقي وكرهتُه فكتبتُ في الخطّة: «**ليس مِن شيءٍ أضيع من حبٍّ يُقاسُ بجرعةِ نار الغيرة!**»

لم أزل أتبعها وأبكي بين يديها، فأبت أن تغفر لي وترحمني، فركبتُ رأسي إِلى حيثُ لا مَردَّ له، أغلقتُ دونها باباً مِن الصّمت والهجران، فتثاقلتُ عليها كما تثاقلتْ عليَّ، وحمَّلتْ نفسي الصّبر على نسيانها، وسلوتها حتّى استحال حُبّي إلى الإياس، ونفضتُ يديَّ مِن حُبِّها إِلى الأبدِ، ليأتي مباغتاً، وجميلاً في صرخة اليأس هكذا علمني حُبُّهَا.

●●●

عقدتْ آمالها العاطفية على الفتى عادل وسكنتْ إليه، وجعلته أديبًا ليزينَ لها دنياها الجديدة، بحوارات أدبية، لتنتقم لجمالها الّذِي هجرتُه، وأبدلتُه بجمال حسناء كُلية الهندسة.

إنَّ عادلاً ككادر خطابي، يجيدُ فنَّ العزف على أوتار السِّياسة، ويجهل سر قَدْح القلوب العاشقة.

ظلّ في كُلِّ لقاء، يتغزلُ لها بعبارات الصُّمِّ والبكم، ويتهجم على المعاني، فكانتْ أُذُناها لا تستجيبان لهذه اللغة، هكذا ألفتُهَا.

كُلَّمَا عجز عن مجاراتها في الأدب، ازدادت كُرها له، فأحستْ كَأَنَّ بداخلها آلة تنحرُ قلبها نَحْرَاً.

عملتُ من صديقي، أنها طلبتْ منِه كتابة قِصَّة قصيرة بلغة الصّمت، فكتبَ:

«هكذا تنجح الانقلابات العسكريّة».

فكرهتْهُ وكرهتْ لقاءها معه، وكرهتْنِي لأنَّني السّبب في تعاستها.

●●●

وبعد حين، حنَّتْ إلى لقائنا حنين الفرخة إلى وكرها.... وحنين الحمامة إلى أُلفها، فالتهب قلبها شوقًا وجوى إِلى دفءِ لقاءاتنا الأدبية.

قررتْ العودة إلى لغة الخيال ومناهجه، ومن تعوّد لغةً لم يكد يصبر عنها، ولكن كيف السّبيل إِلى العودة؟ فكبرياء جمالها يصدّها.

اهتدتْ أنّ الرجوع إلى الأُلفة خير من التمادي في الهجران... وترك السِّياسة أيسر من ترك الأدب...

وفي صرخة اليأس، جاءتْ الأديبة سلوى المعاليك مُنْقَادَةً، تجرر أذيالَ جمالها باحثةً عن حبّها الّذي وجدته في الأدبِ.

كنْتُ لحظتها أُجَالِسُ أخلاطاً من الزّملاء. فهمس إليَّ أحدهم:

(يا للهول! حسناء الجامعة بأجمعها في انتظارك؟ ستدوم لك السعادة، وستنهل من صفاء جسمها البديع)

التفتُ إلى حيث أشار، فإذا هي واقفة. وكأنَّما نزل من السّماءِ وَحْياً، انقطعتْ أنفاسِي، وصِرتُ أُحَدّث نفسي:

«عُدتِ إليَّ إذنْ، مَا أسعدَ حياتِي بعودتِكِ، ومَا أشقاها بغيابكِ».

تَقَدَّمْتُ إليها لمصافحتِهَا، وضغطتُ على راحتِهَا كَأَنِّي أجسُّ نبضَ قَلْبِها.

قالتْ:

(صباح الخير. صباحاً أحمدَ!)

أجبتُها بسلامٍ آخر:

(لعلَّه سلامُ هجرانٍ مؤقتٍ، بطعمِ الوصلِ الدائمِ!).

أدخلتْ يدَها في حقيبتها، فأخرجتْ منِها ورقة أنيقة كتبتْها من تحبيرها.

أولتني ظهرها وغابت عن ناظري:

صدَّتْ مغاضبةً وصَدَّ مغاضباً ●●● وكلاهما ممَّا يعالجُ مُتْعَبُ
راجِعْ أحبتَّكَ الّذين هجرتهم ●●● إنَّ المُتَيَّمَ قَلَّمَا يتجنبُ

ذهبتُ إلى صديقي في الحال، فبحثنا في كتب الأدب لمعرفة مناسبة الأبيات، فخلصنا بأنه وقع خلافٌ بين مُحِبَّيَن في العصرِ العباسي؛ فجرى بينهما مِن العتابِ ما جرى، وتثاقلَ كُلٌّ منهما على الآخر، فنظّم العباس بن الأحنف قصيدة للمتخاصمين، فكان الصّفاء بين القلبين.... وكان اللقاء... بين المحبين.

وجدتُ أن القصة تشبهنا.

●●●

فِي اليوم التالي، ضربنا موعدًا للتلاقي، فحملتُ «طنبوري»، كما تعودتُ عند الأصيل، فوجدتُها فِي انتظاري، فافترشنا العشبَ كأسًا عذبة.

سألتُها:

(كيف وجدتِ قلبكِ فِي دنيا السِّياسة؟)

تجيب بأسى:

(لياليه مأتم.... نهاره أحزان...... صدقه نفاق....وعلاقاته شقاق).

(وفِي دنيا الأدب؟)

(عرس.... وفرح.... وإخلاص.... وانسجام)

فِي دراستها لنظرية «**هندسة الدائرة**» تعلَّمَتْ أَنَّ نقطة الالتقاء الوحيدة، بين الدائرة والقُطر، هي نقطة التماس!

وفِي أركان النِّقاش، اهتدتْ إِلى نظرية أخرى، أنَّ نقطة الالتقاء الوحيدة، بين «السِّياسة والحُبّ» هي الانتقام!

وعندما وجدتُ أَنَّ الانتقام فِي الحُبّ أشدّ فتكاً وأعظم أَلَماً مِن السِّياسة؛ اتخذتُ حذري، وكففتُ ذيلي، فتفانيتُ فِي حبّها أيَّمَا تفاني، ولم أحاول إعادة مجالسة حسناء كُلية الهندسة.

قالت ممازحة:

(تزودتُ مِن دنيا السِّياسة بروح الانتقام، ولكن سأجمعُ بين قسوة السِّياسة، ونعومة الأدب).

(وكيف يستقيمُ ذلك؟)

(نصُبُّ أشعار السِّياسة، في أقداحِ الأدب، لنتغنى بها على أنغامِ الطنبور).

تناولت «طنبوري»، وشددت أوتاره، فعزفتُ لها قصيدة شاعر الشعب:

الشعب حبيبي وشرياني

أهداني بطاقة شخصيّة

الاسم الكامل إنسان

الشعب الطّيب والدّيا

●●●

حكيتُ لصديقي فرحتي الّتي لا تكادُ تسعُني:

(لقد أضرمنا ناراً موقدةً في قلبها، فعادتْ إليّ سريعاً).

أجاب:

(الخطّة العاطفية تقول:

«..... التأني في الوصول إلى قلبها بعد نضج ثمرة العشق، هو الهدف المنشود.

والوصول المفاجئ، انتحار عاطفي، ليس له مذاق، كالثمرة النّية، ليس لها طعم، فالترّيث فنٌّ من فنون العشق، بعد أنْ تجعلَ حياتها، مائدة عامرة بالأطباق، تتزين بكُلّ أصناف السَّعادة:

حُبًّا . . . . و غز لاً . . . . و مو سـيقى . . . . و قصصًا قصيرة...... وأدبًـا، بـدلاً مِـن منـوالٍ واحـد، كمنـوال الفـتى عـادل فِي أركان النِّقـاش»

ثُمَّ يضيفُ بلمسةِ الفلاسفةِ:

(إذا اقتحـم عـادل مجلسـكما، قُـم بمغـادرة المجلـس فـورًا وتظاهـر بذهابـك إلـى الحسـناء)

أجبته فرحًا:

(سأوقد فِي قلبها نارًا من الغيرة، لا تطفأ غابر الدهر)

قرأ صفحة أخرى فِي الخطّة محذرًا:

«...كلما احترقتْ بنار الغيرة، ازدادتْ لك عشقا.

ولسـنا نعـني بتجاوز مقـدار جرعتـين، فـإن هـذا التجـاوز مهمـا كان فِي نظـرك مثمـرًا، فهو نقصـان غير مرئـي لحبهـا فِي قلبـك، وإلّا فهـو يُولّـد المُقـت والكُـره ليـس دونـه شـيء»).

●●●

التقينـا ذات مسـاء، فِي حديث لا يُمَـلُّ، ثـم فجـأة أبصرنـا الفتـى عـادل يبحثُ عنهـا، أحسسـتُ لحظتهـا أنَّهـا لا تريـدُ أنْ أفارقهـا.

شـاركنا الفتـى الجلـوس، ابتعدتْ سـلوى وانشـغلتْ بلوازمهـا الشـخصية، فرحتُ أحـدث الفتـى همسًـا لبـدء خلـق علاقـات طيبـة معـه:

(لقد ظلتِ تهتفُ باسمك منذ جلوسنا كلما جاء ذكر السِّياسة).

نظر إلِيَّ بشيء مِن التعالي والحسد:

(أتحدثني يا وجه القذارة؟ أُقسم لك، إذا وقع صِدام بين الطُلاّب، ستتلقى ضربات مُوجعة من ساعدي تجمع مضض الألم وسخط التنكيل، سأطاردك مع أعضاء التنظيم حتى في جحر نملة يا نتن الجلد)

كان يخاطبني بكلماتٍ أخسّ ما تُقال للكلب استصغاراً لشأني.

وفجأة نهضتُ واقفاً للمغادرةِ، فجرعة نار الغيرة، تأخذُ أشكالاً شَتَّى، وقد جاءتِ الآن بالمقلوب! فهي من تقوم باستكمال ما تبقى من جرعاتٍ في قلبها، فهكذا الحُبُّ يسيرُ دوماً عكس ما يتوقعه المحبُّ فتقع المفاجآت.

ولكن صبر جميل، وعندما أعود في المرة القادمة لتفعيل جرعة الرّسم بالشفاه، سأفتكُ بِكَ والشّمس في خدرِ أمّها.

●●●

الرَّسم بالشِفاه

حالما سرى مفعول جرعة نار الغيرة في قلبها بنجاح، دنوتُ لتزويدها بجرعةٍ أخرى أشدّ تأثيراً، وأسرع ذوباناً، جرعةُ رسمٍ لوحاتها، لجعلِ حياتها الجامعية مائدةً عامرةً بالأطباق المتنوعة، تتزينُ بكُلِّ أصنافِ السَّعادة، لتقابلني بلهفة التلاقي، وتودعني بأملِ اللقاء.

التقينا ذات صباح، فقالت بلغتها الغامضة:

(أما زلتَ تعشقُ السّمر، تحت أشعة القمر؟)

على المحب، أنْ يتقنَ التفكير، رأيتُ أنَّ هذه الطالبة تتورط في عشقي، وأنَّها ما اختارت أوقات القمر، إلاّ لأمر في نفسها. أجبتها:

(حبذا القمر إذا وافق مثل حسن وجهكِ، وحسن كلامكِ)

تحدّد موعد لقاءنا بنفسها:

(فليكن لقاؤنا فوق جفون القمر غداً الأحد إذن).

داخلني فضول لمعرفة اختيارها دائماً لأيَّامِ الآحاد للقاء، فخلوتُ في تفكيرٍ عميق؛ فخلصتُ أنَّ الفتى يكون مشغولاً في الفترة المسائية في أيامِ الآحاد مع أعضاءِ التنظيم، تعقبها اجتماعات سِرّية حتَّى السَّاعة الثامنة مساءً، وبعد الثامنة سيأتي للبحث عنها.

فإن صح هذا التأويل، فإنّ سلوى بدأتْ تتهربُ مِن الفتى وربّ الكعبة:

●●●

وفي صباح يوم الموعد، دعتني لمرافقتها لحضور محاضرة في معمل الكيمياء بكليتها، أجلستني في ركن من أركانها كأنّها لا تعرفُني، بينما جلستْ هي في صدر المعمل مع الفتى عادل وزملائها تحادثهم بلطافة، وتمتزج معهم امتزاج الماء بالماء.

بعد المحاضرة شكوت لها ضجري:

(محاضرة لا طَائِل تحتها طالما لا نَمْتزج معاً كامتزاج مُركبات الكِيمياء)

تجيبُ بضمير متكلم آخر:

(يا مجنون، إنها أعظم مكرمة لك، لأنّ انفرادك بها في المساء مُؤجّل، وحضورك الآن في المحاضرة مُعَجّل، هي لا تريد أن يطلع على أسرار قلبها أحد)

أخرجتْ شوكولاتة وقسّمتها بيننا، وأرْدَفتْ:

(خاصة عندما يكون سرّها قلب رَجُل، لذلك تراها تُجالِسُك سراً)

لحظتها فقط...، أيقنتُ، أني لن أذوق الملل أبداً...فقد كمُل عيشي...وكثُر سروري سأعيش رخيّ البال، قليل الهموم.

●●●

وفي المساء، جلسنا في ليلة قمرية، ذات ضياءٍ بهيج. ورائحة مياه النّيل المشبّعة بعبق الطين، تداعبُ أنوفنا.

تبادلنا النّكات والقفشات، ثُمَّ أخرجتْ مِن حقيبتها، حافظة قهوتها الصغيرة، ووضعتها أمامي.

استنتجتُ أَنَّنا نشربُ نخْبَ عودةِ علاقاتنا إلى مجاريها.

سكبتْ لنا فنجاناً مِن القهوة المنعشة وقالتْ:

(عندما أشتهي مجاراتك في الأدب، أصنع القهوة بنفسي).

قبضتُ أناملها كالعادة:

(في صحتكِ).

لتجيب:

(إنِي مبهورة بالحياة الريفية، فهلاّ وصفتَ لي كوخكم المصنوع من القش الجاف؟).

وجدتُ مدخلاً لتفعيل جرعة الرسم.

سأفاجئها بمادة جديدة لم تألفْها:

(أثاثه مقتنياتكِ الدراسية، وزِينتهُ لوحة جميلة لأديبة تُسمّى سلوى المعاليك)

تسألني باندهاش:

(ما خطر بقلبي ساعة، أنك تجيد الرّسم).

(أقومُ بنسخِ لقاءاتكِ معي في لوحة مطابقة للأصل، رسمتُكِ عندما كنتِ تحتسين عصير الفانتا بكأسٍ مُذَهَّبَةٍ، تتحلّى بعبارات الشكر والحمد).

اكتشفتِ شيئاً جديداً في علاقاتنا، شيئاً لم يخطر ببالها.

إنَّها مادة عاطفية جديرة بالانتباه، أيقنتِ لحظتها، أنَّ لقاءاتنا ليست كلها كلمات ساحرة.

ولتكونَ على قدر التحدّي، طفقتِ تسألني، كأنّها عالمة بفنون الرسم:

(بأي طريقة ترسم؟)

سأتركها في دوار عشقي، حتّى تكتملُ دورة جرعة الرسم:

(بطريقة الإسقاط العمودي)

(وما معنى الإسقاط العمودي؟)

ستعرفُ عمّا قليل، أنها تحدثت ما ليس من شأنها، لتندم على ما كان من سؤالها:

(ضروب من الرسم، يقوم الرّسام بتثبيتِ ريشة الرّسم بشفاه الفتاة، فيسقط ظل الشفاه خلف اللوحة لتتعامد مع الشفاه الحقيقية، والبُعد بينهما يُسمّى «مستوى الإسقاط»، وأنا رسمتكِ بطريقة **«الإسقاط العمودي»)**

أيقنتِ أنّها تحدثت فيما لا يعنيها.

تغافلتِ عن إيضاحي، ولكنها تذكرتِ مناسبة لوحتها:

(بلى أذكر ذلك، في كافتيريا العلوم في أوّل لقاء جمع بيننا، أليس كذلك؟).

قمتُ بصياغة سؤال وإجابة لها في نفس الوقت:

(واحتفظُ لكِ بلوحة أخرى في حجرتي، بَيْدَ أنّي لم أستطع الانتهاء منها حتى الآن بسبب صعوبة الرسم بطريقة «**الإسقاط المتوسط**»).

أمسكتْ عن سؤالها بحذر، حتَّى لا تقعُ في فخ إجابتي، فقد قرأ كُلّ مِنَّا الآخر، فأيقنتْ أنَّ إجابتي قد تربكها.

قامت بتهذيب عباراتها، والتلاعب بلغة الحوار دون الاستعانة بأسئلة استفهام:

(أتدري لم أقرأ يوماً عن الرسم بطريقة الإسقاط المتوسط؟، وهذا ينِمُّ عن جهلي بالرسم...ما أجهلني!)

عبثاً حاولتْ تضليلي. فكنت أذكى منها:

(أنْكِرُ عليكِ وضع القول في غير موضعه، وإخفاء علامة الاستفهام في الأسئلة المباشرة)

تجيب بسعادة مسكرة:

(الأسئلة المباشرة لا تقال لمن يغتصبُ إجابتكَ عنوةً بفنِّ الرّسم)

أجيبُ عن عباراتها:

(لا بأس، سأجيبُكِ عن سؤالكِ غير المباشر، إنه ضرب آخر من الرسم، يقوم الرّسام بإضفاء حمرة الشفاه في اللوحة بخطٍ متصل غليظ قبل الشروع في الرسم، لتكون الشفاه مرئية بزاوية الإسقاط المتوسط، عشقا لتلك الشفاه، وشغفاً لتذوق الشفاه الحقيقية).

شهقت، وبسرعة سكبتْ لي فنجاناً آخر لمداراة ارتباكها، فتناولتُ أناملها مع الفنجان معًا.

تضيفُ بلمسةٍ تنمُّ عن اللهفةِ:

(سأكون ممنونة لكَ لو أكملتها سريعاً وأحضرتَهَا يوم الأحد القادم).

أُجرّدها من علقها:

(سأقبّلها أمام ناظريك لتحمل توقعي، فلكُلّ لوحةٍ توقيع، أليس كذلك؟ وهذا أغلى ثمن يمكنني أن أدفعه للوحتكِ)

تبيع ثمن لوحتها بالتحدّي:

(لو تجرأتَ وفعلت ذلك أمامي، لسفكت دمك، فاحذر الطيش فإنّ مصرعَهُ وخيم، وإياك والجرأة فإنّ عاقبتها أليمة)

وتضيف ضاحكة بلفظٍ ظاهره امتناع، وباطنه رغبة:

(سأصنع لك قهوةً منعشةً ثمناً لذلك).

ثُمَّ ماذا؟

أبصرنا الفتى يدور حولنا في إقبالٍ وإدبارٍ، باحثاً عنها. نظرتُ إلى السّاعة فكانت بعد الثامنة مساءً، فأيقنتُ أنَّه خرج تواً مِن الاجتماع السّري للتنظيم.

تكدّر صفاؤها، وتغيَّرتْ ملامحُ وجهها مغاضبة، اكتشفتُ سِرّاً آخراً مغلقاً في حياتها، هو أنَّ جمالها وغضبها فرعهما واحد، ومعدنهما مختلف:

إنْ صكّتْ مغاضبة يحار بجمالها الأبصار

وإنْ ضحكتْ باسمة يَشِعُّ بهاؤها الأزهار

●●●

الصبرُ لا يطيقه العشاقُ، ففي عصر يوم الأحد التالي، رأيتُها تَتَقلَّبُ في نارِ الانتظارِ، وما أَنْ جلستُ حتَّى اقتلعتْ اللوحة من يدي اقتلاعاً، وراحتْ تتأملها في اعجاب:

(ما أجمل أناملك!، لا أدري، أعلى صدق خيالك في الرسم أفرح، أم على صورتي أبتسم؟).

هذه شهادة إعجاب، صادرة مِن إحساسها المرهف، بأنْ قلوبنا متآلفة تلتقي في نقطةِ الخيالِ، وآمالنا متباينة تلتقي في ريشة الرّسم.

نزعتْ الشريط اللاصق، فوقع بصرها على عبارات غزلٍ مُحَلاَّة باللون البرتقالي:

حبيبتي:

«في طريقِ حبك مكتوم، وفي فُؤادي عشقكِ مختوم»

●●●

«.... قد يمسي اختيار الأوقات للإهداء ات العاطفية عاملاً ناجحًا للدخولِ إلى القلبِ، وعدم اختيار الأوقات هو إعجاب عابر ... مِن شخصٍ غابر»

هكذا كتب صديقي فاروق «كرنكي» في الخطّة، فرأيتُ بنفسي، كيف زلزلت تلك اللوحة كيان قلبها، ولا إخَال لو أنَّنِي أهديتُهَا نفس اللوحة في جرعة نار الغيرة، لما كان لها نفس التأثير.

وأمام ناظريها، ألقيتُ قُبْلَة على شفتيها في لوحتها، لتحمل توقيعي، لَمْ تستطعْ استرداد بصرها من بصري، فقد كان يلزمها إِيمان الخاشعين!

قلتُ بنزوة لا يمكن مقاومتها:

(ما وعدتُك يوماً إلاّ وفيت حتى في أمانينا)

بَدَا لِي في لحظتها أَنَّها تودُّ لو أَنّي تركتُ اللوحةَ، وقَبَّلْتُها هي ولو أمامَ المارةِ.

قالتْ بصوتٍ يرتجف حباله:

(ماذا أسميتَها، فلكُلٍّ لوحة اسم، أليس كذلك؟)

(أسميتُها «الاشتهاء»).

أخرجت دَفْتر محاضراتها ونشرته بين يديَّ:

(أكتبْ قصَّة بعنوانها بلغة الصّمت)

كانتْ شفتاها فِي مُحَاذَاةِ قُبْلَةٍ مُنْتَظَرَة فكتبتُ:

(اشتدَّتِ الفاقةُ بطالبٍ بكُلية الآداب، فلم يشتهي غير وجبةٍ ساخنة تسكِنْ نار احشائه، وحليبًا باردًا يروي جوفه المستعِر.

وفي ليلٍ دامس، ولج قصر فسرق من الكنوز ما شاء أن يسرق، وفي مدْرج القصر، رأى فتاةً تغطّ في نومٍ عميق، فرمى الكنوز وسرق قُبلة مِن شفتيها وهربَ.

انطلقتْ وراءه وقالتْ بأنفاسها اللاهثة:

«يا هذا أنا زميلتُك الحسناء بكلية العلوم فأقبل كُلّ ليلة ولا تخف، فلا خوف عليك بعد اليوم، سأتركُ لك أبوابَ القصر مُشْرَعَةً، وأتظاهرُ لك بالمنام»

دأبَ الطَّالبُ على ذلك يكسوها بقبلات ملتهبة، وبعدها... لم يشتهي وجبةً غير طعم شفتيها.... ولا حليبًا بعد رضابها).

ارتبكت، ومِن فرط ارتباكها سكبتْ لي قهوة في فنجانها الخاص وتغافلتْ عن قصتي وابتسمتْ ابتسامة الرضا.

ناولتني الفنجان الرابع فقبضت على أناملها وقالتْ:

(إنّ ارتشاف قهوتي يوقظ خيالك للكتابة ويشحذ قلمك).

كنتُ أعرف نبرتها المميزة في صوتها.

أنبأني حدسي أنَّها ستطلبُ مني كتابة قصَّة أخرى، فسريعًا خلوتُ بفكري فوجدتُ عنواناً مناسباً لقصَّة قصيرة أعرضُ لها فيها رغبتي في الزواج منها.

وقع سؤالها تماماً كما توقعته:

(كيف وجدتَ نكهتها؟)

أجبتُها بعنوان القِصَّة التي أعددتُها :

(كالهذيان العشقي).

نشرتِ دَفْتر محاضراتها في يديّ:

(أكتب قصَّة بعنوان «**الهذيان العشقي**»)

رسمتُ كلماتي في دفترهاِ، وفي ثوانٍ معدودة، أعدتُ لها الدفْتر:

(أحبَّتْ الطالبةُ بكُلية العلوم، جليسها الطّالب بكُلية الآداب، وما هي إِلَّا أيَّام قليلة، حتّى طوت الجامعة صفحاتها الدراسية فافترقا.

شقَّ عليها فراقه، فلزمتْ مخدعها حرّانة الصدر تُناجيه، فائضة الدمعة تُبكِيه فأنشأت بصوتها الرخيم:

لئن خفي شخصه في ناظري ... لقد بقيت ذكراه في خاطري

وظلت تُبكِيه حتى نالتْ منها الحمّى ما نالتْ، واستفحلتْ إلى درجة الهذيان العشقي. تَمَّ استدعاء أحذق أخصائي الأمراض النفسية فلم يفلحوا في علاجها.

سهرت أُمّها تراقب حرارة جسمها، وبدأتِ الطّالبةُ تهتف باسمه، وجرى على لسانها ما يئنُّ له قلبها.

علمتْ أُمّها موضع دائها، وعرفتْ دواءها، فجاءت بالطالب فزوجته إيَّاها، فانخفضتْ حرارتها، وتوقف هذيانها العشقي إِلى أبد الآباد).

وقبـل أنْ تُعقـبَ علـى القصـة، اتفـق لحظتهـا أنْ أبصرنـا الفتـى عـادل قادمـاً نحونـا، فتكـدَّر صفاؤهـا.

تقول كأنّها رأتْ شبحاً:

(أووف!... لعمرك لكم أكرهُ هذا الفتى الّذِي يأخذ زينته بإفراط!)

توقف الفتى يحادث طالباً وهو ماضٍ إلينا. قلتُ لها الصدق:

(لـم أجـد شـخصاً ناصبنـي العـداء، والكُـره فِي حياتـي. غيـر هـذا الفتـى، فقـد قـال فِي وجهـي أخـسّ مـا يقـال للكلـب).

رشـفتْ آخـر مـا تبقـى مِـن قهوتهـا وقالـتْ فِي سـرعة بالغـة قبـل أن يصـل إلينـا:

(سـألجم لـك لسـانه، فقـد اسـتبان لـي مـا لـم يكـن يسـتبين، فـإنّ النفـاق عليـه غالـب، ولا يُجالسُـه إلاّ مِـنْ هـو فِي طِباعِـهِ).

نهضتُ واقفاً للمغادرة، فصرختْ فِي وجهي دون سببٍ جرى:

(إيـاك أن تبـارح مجلسـك بعـد اليـوم، إنّـك تَتجلّـى دومـاً فِي ناظـري بمَنْظـرٍ نبيـل، أنـك لأفضـل منزلـةً فِي قلبـي، سـأكشـفُ لـك سِـرّاً ظلّ مقبـوراً فِي صدري، عـن أسـباب علاقتـي معـه، فقـد صبـرت عليـه مـا أمكـن الصبـر)

واطربـاه.... لقـد أبـدتْ الأديبـة مـا كانـت لشـعورها كاتمـة، ونشـرت مـا كانـت لقلبهـا طاويـة، بأنهـا تكـنٌّ لـي بعاطفـة كامنـة، كمـون النـار فِي الحجـر!

لقد تنبأ صديقي:

«محال أنْ تمتزجَ ميولها الأدبية الصريحة مع توجهه السّياسي المتملق»

سِهام رسول المنايا...

مدَّ يدَهُ لمصافحتها، فمدَّتْ له راحتها بتكاسلٍ وفتور، ولم تُوَسِّع له مجلساً.

ولعلّ الفتى لاحظ انقباضها، فتردد برهة ثمّ جلس مُكْرَهاً.

سادَ صمتٌ رهيب، ألقى ناظريه في جبيني فرأى لغة الحُبّ التي لا يقرؤها إلاَّ مفتونٌ بها، فأحسَّ بنصلٍ يخترقُ خاصرته، فتألم سِراًّ... فهكذا حياة العاشقين، الألمُ سِراًّ.

ثُمَّ أرسلَ ناظريه في وجه سلوى، فرأى في مقلتيها دمعةً مِن دموع الحُبّ الحائرة، فأحسَّ بمرارةٍ تفقعُ كبدَهُ... فصبر قهراً، وهكذا حياة العاشقين، الموت قهراً.

لم يألفْ أن رأى طالبًا وطالبة يحتسيان قهوةً في الجامعة، فشعرَ بمرارةِ القهوةِ كَغُصَّةٍ في حلقه، فابتلعَ لعابَهُ مُراًّ.. وهكذا حياة العاشقين، الشّراب مُراًّ.

لم تدعُه لمشاركتنا في قهوتها، فتمنّى لو انشقتْ عنه الأرض وابتلعتْهُ، فأوشكَ أنْ ينفجرَ... وهكذا حياة العاشقين، البكاء انفجاراً.

اكتشفَ أنَّ القهوةَ قد تقود إلى النّسيان العاطفي، كما يقودُ الزهايمر إلى النّسيان العقلي، فقرر نسيانها إلى الأبد.

أيقن الفتى تماماً أنّ علاقتي مع سلوى متينة. قال بلغةٍ لها آلامٌ وأنين فتوقفت كلماته في حنجرته:

(لدينا ركنٌ للنقاش، وسيكونُ عليكِ النّداء (Calling) وذلك ما حملني على المجيء).

صمتتْ سلوى لحظةً، ثُمَّ اعتدلتْ في جلستها وأطلقتْ كلماتها الصريحة كسهام رسول المنايا:

(إني وجدتُ السِّياسة، لا تتماشى مع تكويني الأدبي، فأصبحتُ زاهدة فيها)

تحركتْ دواخلي فَرَحاً، وأضفتُ:

(إنَّ السِّياسة رأسُ كُلِّ بلاءٍ، وجالبةُ كُلّ فتنةٍ، وما أُوجِدَتْ إلاَّ مَقْتَاً)

استشاط غيظاً وقال متعالياً:

(خسئت أيها العبد الصغير، أمسك عن هذا يا وجه القرد، فما شأنك أنت والمسألة؟)

توهم الفتى، أنَّ جماله جواز مرور ليذلني بلا مبالاة، يروي غليله بلا تحرّج، يشفي غيظه بلا حساب.

وكأنّ صديقي شاهد مجلسنا بلحظ الغيب فكتب في الخطّة:

« .... فلا يحزنك جمال الفتى، فقد يُؤتى الرجل مِنْ القباحةِ ولا يكُون مذمومًا، ويَحْظى بالجِمالِ ولا يكُون مَحْمودا»

«.... إنّ الفتى مغرور متعالٍ، فمن عرف فضل جماله على النَّاس واغتر بذلك زهوًا، ربما زهوه بجماله كان وبالاً عليه، فإنَّ بعض المحاسن آفة لصاحبها؛ إذا أفرط في الإعجاب بها، وكُلّ شيء أُفرط في طبعهِ، صار ضدّ طِباعِه».

(.... أقبل على الفتى بطلاقة الوجه، ولين القول، وداويه بالابتسامة المشرقة التي هي أنجع دواء لكبريائه، وبقدر ما نقص حبها من الفتى، زاد في حبها إليك، فتظفر أنتَ بدمامة وجهك رضاها، ما لا يظفر هو بجمال وجهه حتى سخطها، فإن ظلام الزهو والتعالي، لا يجلوه إلّا إشراق الابتسامة)

بهذه الكلمات، استقبلتُ خشونة لفظ الفتى بصبرٍ واحتمال، حلمت عنه وابتسمتُ في وجهه وسحقته بكلماتٍ تامات:

(يا أخي الطيّب، ظللت تنهال عليّ بالشتائم المُرة وأنا أصفح عنك، ولم ترَ منّي سوء، فذلك العجب، لا أجاريك في شمائلك ولكن أدعو الله أنْ يهديك، ويصلح بالك، ويزينك بالحلم).

نظرتْ سلوى إلى عادل شزراً وقالتْ بفلسفة عجيبة، جاءت مطابقة تماماً للخطّة:

(ألا فأعلم يا عادل، ليس جمال الوجه فضيلة، ولا دمامة الوجه رذيلة، فالفضيلة مَن يتخلَّق بحُسنِ الخُلُق؛ فيدخل السُّرور في النفس، والرذيلة مَن يكدرها، أَفَهِمْت؟)

تفاجأ الفتى بجرأتِهَا، وأصفرّ وجهه كوجه الأموات.

أردفت بقسوة:

(فَإِنْ كنتَ مندهشاً مِن تعاطُفِي معه، فإِنَّ مَرَدَّ ذلك إِلى معرفتي بدناءَةِ سُوءِ خلقك، وجهلك أنتَ بفضلِ حُسن خلقه).

خيّم على مجلسنا صمتٌ مطلق، صمتٌ كالموت.

وبدأ الفتى يتمتم بكلمات كأنّه يحدث نفسه. ثمّ استدارت نحوي ونظرتْ إليَّ نظرة تفيض حناناً وعاطفةً، وقالت بكلمة بليغة لا يعرفها إلاّ حاذق:

(حقاً إنَّك لخلوق! أتدري أنَّك في كُلِّ مرة، تبرهنُ لي أنَّك «هو ذلك»؟).

فهمت مدلول الكلمة مباشرة.

تواصل:

(سأهتك لك سِر مقبور في صدري، فصبرت عليه ما أمكن الصبر، ولكن حُسن خُلقك غلبني اليوم)

غسلتْ فجان قهوتها سريعاً وأعادته في حقيبتها لتقول:

(أتدري أني كنت أُسخّرُ عادلاً من حيث لا يحتسب لاختبارك في «الصفة الرابعة»–صفة الحِلم؟ فمنذ يوم جمعتكما جلسة النِّقاش وجدتُه الأنسب لاختبارك، وأطرقتُ مسمعك مراتٍ بعد مرات بعبارات «هو الأنسبُ لك» و «لِمَ لا تفهم؟»)

يا للهولِ! لشدّ ما أدهشني هذا الاختبار المفاجئ! ولكن قلبي كان لا يرى إلاّ من خلال منظار نار الغيرة.

تَذَكَّرْتُ صديقَتَها فاطمة التِي قالتْ لي يوماً: «ثِقْ أَنَّها ستختبرُكَ في بقية الصفاتِ بطريقةٍ قد تدهشُكَ»

لبث الفتى ينظر إليها بعين الدهشة لا يعلم أي لغة كانت تحادثني، وأي اختبار كانت تريد؟

أسالها:

(دعيني أسالكِ بعد هذه المفاجأة، علام تشيريني بقناعٍ وجهكِ الّذي «يخفي ويظهر ويستبين»؟)

تخاطبني وحدي، ولم تضع للفتى أي اعتبار:

(يخفي لك العاطفة، ويظهر له السِّياسة ليستبين أنّ حِلمُك، طبعٌ فيك وليس تكلُفاً، ولو كان تكلُفا لما غاب عن عادل، فكيف يغيب عني وأنا التي اختبرتكَ بمهارة)

كأنّما تعمَّدتْ إحراج الفتى، فسكبتْ لي فنجاناً مِن قهوتها أمامَ ناظريه، ثُمَّ طفقتْ تحدثُه بصراحتها المتناهية التي انهالتْ على ظهره كالسياط:

(مَنْ لَمْ يعرفْ لحُسنِ الخُلُق قدرَهُ يا عادل، فقد أَذِنْ لنفسِهِ بِالمذلةِ)

ثمّ صارحته ببغضها ونفورها منه:

(ما ظنّك بطالبٍ يفتأ يسامح، ويعفو، ألا يكون جديراً بالتقدير طالما قلبه نقي نقاء الشمع؟ وخليق بالاحترام طالما لسانه نبيلُ اللفظ وإنْ وافق ذلك، رثاثة ثياب، وقباحة وجه كما تراه أنت؟)

أكثر ما أصابني بالخبل حقاً هو أَنَّ الفتى برغم فصاحة لسانه، وفنّ خطابه، لم يرّد عليها بكلمة، بل صار كَقَزَمٍ ذليلٍ أمامها، أو لربما لم يتوقع هذه الخاتمة أبدًا.

ختمتْ حديثَهَا بكلماتٍ حادة، قاطعة كسكينٍ مسنون حتّى تعاطفتُ مع الفتى:

(فمِن أجل ذلك، وكما ترى فإنني زاهدة في مجالسك السِّياسيِّة، وكارهة مجالسك المتعالية عرقيًا، فابتعِد من مرمى نيران عِشقنا، فإنها سهام رسول المنايا)

ثُمَّ أدارتْ ظهرها عنه، وفتحتْ كتابًا عن الأدب بعنوان «**أدب الكاتب**» لمؤلفه ابن قُتيبة بعدما سحقتْهُ بكلماتِها الصريحة بالابتعاد مِن مَرْمَى نيران حبنا.

كرهتْه وعافتْهُ؛ أوصدتْ باب قلبها في وجهه، فتضاءل حجمه في عينيها، وتضاءلَ حبه في قلبها، قصَّرت عنه أطماعه في اصطحابها إلى أركان النِّقاش.

سيظلُّ يتذكرُ تلك الصراحة الأليمة حتى تبرد عظامه في قبره، سيتذكرُ أَنَّها كانتْ تناولني بيدها النّدية فنجاناً مِن قهوتها المنعشة، وتَمَزُّق كرامته بكلماتِهَا الصريحة: «كارهة مجالسك المتعالية عرقيًا»

قِمّة الألم أن يعشق المرء فتاةً بجنون، ولن تكون له أبداً.. أبداً.

احتملَ الفتى على ذلك ضِغنًا، فنهض مطأطئَ الرّأس بأقدامٍ لا تكاد تحمله، كمطيةٍ منتصبة حُمِّلَتْ بأثقالٍ فوق طاقتها.

نظر إليّها نظرة حب ووئام يُودعها إلى الأبد، ونَظَرَ إليّ نظرة الجمل الحقود يتوعدني بشرٍ قادمٍ مستطير.

غادرنا، ولم نلتقِ إلاّ يوم الانتخابات الطُلاّبية في عراك يدوي، فجنّد مجموعة من طواغيت الشرّ، وجنّد صديقه الفتى ضياء مجموعة من أحزاب الفتنة، وجنّد طالبٌ آخر مجموعة من أحزاب الخراب، فأوقعوا في جسدي أنكأ عقوبة انتقاما للحب ما زالت أثارها باقية إلى يومنا هذا.

●●●

إيقاع لغة الأحجار

ولـو أَنّهـا كانـتْ تأنـس السِّياسـة، وأركان النِّقـاش، كمـا تأنـسُ الأدب والقصص، وتخلّق عـادل بحُسـنِ الخُلُق، لـكان خيـر أنيسٍ، وخيـر مُحِـبٍّ لهـا، فيـا لـه مـن مخلـوقٍ جميـل!

ولكـن اختـلاف روحهـا الأدبيـة وصراحتهـا مـع مبادئـه السِّياسـية وسـوء خلقـه، عجَّـل بالملل أنْ يدبّ في قلبهـا.

رأتْ وسـامته، وهندامـه، أقلّ شـأناً وأدنـى قيمـة بعد أنْ اسـتنفدتْ معـه كُلَّ الرغبـات السِّياسـية، وليس بالرجل الّذِي زعمتْ إنَّـه سـيزيّن لهـا دنياهـا الجديـدة، فضاقـت بـه ذرعـاً، وثـارت في وجهـه.

حمـدت اللّهَ علـى الوحـدة الروحيـة الّتـي جمعـت بـين قلبينـا، وتجسـيدي صـورة طيّبـة عـن الأدب، وصفـات الفضيلـة، فكتمـتُ مـا في نفسـي، وطوّيتـه بـين أضلعـي.

مـا أجمـلَ الأدبَ الّذِي ربط بـين قلبينـا! ومـا أعظـم حُسـن الخُلُق الّذِي وثّـق بـين إرادتينـا، ومـا أشـرَفَ الحُـبَّ الّذِي لا يُسَـاوَم بجمـالٍ!

●●●

قلتُ لحُبيبتي:

(لقـد أحبَّـكِ هـذا الفتـى، بصـدقٍ وإخـلاص، فقـد رأيتُ ذلـك مِـن نبـرات صوتـه، وتلجلـج كلماتـه).

تجيب بلهفة الحُبّ:

(لم أُظهر تجاهه عاطفة حقيقية، عندما شغفتُ بالسِّياسة، تجمَّلت له بما يريد، ورافقتُه حيثُ لا أريدُ. أتفهم؟، ثمّ إني اكتشفتُ أن فيه أنوثة فكرهته ولم أجدْ في نفسي لذّة للأنس به، ولا يتلاءم مع طبيعة نفسي الصريحة، ومزاجها الأدبي).

كانت تَوَقُّعات صديقي في الخطّة مُخيفة جداً، وجاءت مُطابقة تماماً مِن مبتدأهما، إلى منتهاهما وينبعان مِن روحٍ واحد، فقد اختلفا في رواية العِبارة، وتوافقتا في المعنى.

أمازحها للتأكد من نجاح الخطّة:

(إنني لستُ جميلاً ولا جذاباً مثل الفتى، ولكن ما أسعدني، تضمرين الوفاء لشخصي. رغم ما بيننا مِن فروقاتٍ قبلية وعنصرية).

فجاءَ ردُّها مطابقاً تماماً فأصبتُ في تَكَهُّنِي:

(إنّا بحسنِ خلقكَ نستبينُ، وبوسامةِ الفتى نعمى، فمن تحلّى بحُسنِ خلقك، غضضتُ طرفي عن مثالبه، وعركته بقربي، فكنتُ أسيرته).

ثُمَّ أضافتْ وهي تغالب دموعها:

(ثُمَّ إنَّ مشاعري ليست بإرادتي، إنّها مرهونة لطالبٍ آخر أعزّهُ، ولكنّه يعشق حسناء الشهادة العربية من كُلية الهندسة)

طالبٍ آخر؟

يا اللّه......! فقد ذبحتِ فؤادي مِن الوريد إلى الوريد، لقد أضرمتِ ناراً في أحشائي لا يطفئ حميمها ولو احتسيتُ مياه البحر.

خنقتْنِي عبرةٌ فأمسكتُها، ولكنها كانتْ أسرع، لقد أبكاني الحُبّ اليوم، كما أبكى غريمي قبل قليل، فهل حبّها في الحالتين نواحٌ وبُكاءٌ؟

●●●

ثُمَّ فجأة رأيتُ في وجهها أمارات الصرامة وعلامات الحزم، وسألتْنِي مباشرةً بتأثير الغيرة:

(أما زلتَ تراها؟ وكم قصَّة قصيرة بلغة الصّمت كتبتَ لها؟ هيّا قل الحقيقة)

رغم مرور شهور على هذه الحادثة، إلاّ أنَّ أفعى نار الغيرة ما تنفكُّ تغرز أسنانها السَّامة في قلبها الحنون.

كنتُ صادقاً في قولي:

(لعمركِ لم أجالسها غير ساعةٍ مِنْ نهار).

كأنَّها لَمْ تُصَدِّقْنِي:

(ليس بإمكان أي طالب أنْ يحادثَ طالبةً، ويبثُّ في أذنيها شجوناً في أوَّل لقاء، إنَّ علاقتكما وأنت تحادثها، مبنية على سابق معرفة، بل وطيدة جدّاً).

أطْرقتُ إطْراقاً طويلاً أتفقدُ موضع قلبي ولا أجده:

(سأجيبُكِ بالصدقِ المتناهي، وإنْ شئتِ؛ كَذِّبِيني. إنّها كانت تمثيلية فقط لإشعال فتيل نار الغيرة في قلبك، عندما شعرتُ أنك تحبين عادلاً، فجَعلتُها غَرِيمة لكِ).

تقول بحدةٍ كأنّها فقدت أعصابها:

(لكنّي اتخذتُ عادلاً لاختبرك في صفة الحِلم لإسعاد قلبك!، وأنت اتخذتَها لإيلام قلبي، ما أسرعك إلى الظلم!)

تواصل مغاضبة دون أن أدافع:

(أنت تكذب، فمن قامتْ أخلاقه على الكذب، اعتدلت طبائعه على النفاق، فلم يعرف من الحديث إلاّ التملُّق، ولا أراك إلاّ كذاباً أشرَّ، وجليساً لا خير فيه)

أجبتُها لما كان بيننا من وثيق الصلة دون تحرّج:

(أمّا ما ذكرتِ من الكذب، فليس ذاك بي، كان صديقي يحاول تجنيدها للتنظيم الديمقراطي فعرفني بها، فوجدت في ذلك فرصة فجَعلتُها غَرِيمة لكِ)

ظلتْ صامتة هنيهةً لا تقولُ شيئاً، ثمّ باغتتني بسؤال لا يخلو مِنْ غَيْرَة:

(غَرِيمةً لي لأنها جميلة، هه...أليس كذلك؟)

آه.... ما أصعبَهُ مِن سؤال! سأجيبها بلباقة حتى لا أوجع قلبها:

(أجل، إنها لكذلك .... ويمكن القول بأنها الوحيدة التي قد تنافسكِ في الجمال)

(لقد ملأتَ جوفي غيظًا اليوم... ألا تعلم أن هذه المقارنة تؤلم المرأة؟ ألا تراعِي مشاعرها؟)

لفظتِ تلك الكلمات في نبرة، ليس أحفل منها حزنا.

اعتذرتُ لها:

(اغفري لي إيلامك، لم أُنافِقُ في حياتي كلها، فلن أُنافِق اليوم لإرضائك)

لم تتحمل الحديث عن جمال الحسناء فَعَمَدَتِ إلى تغييرِ مجرى حديثِها إلى حديثٍ آمنٍ من الغيرة:

(لقد سحقتُ لك عادلاً سحقاً لأنه أساء إليك، أما كان يستحق ذلك؟)

ترددتُ برهة ثمّ أجبتُها:

(كنتِ قاسية جداً في تعاملكِ معه، حتّى تعاطفتُ معه، لكنّه كان أعظم منكِ، فلم يرد عليك بكلمةٍ جارحة، أقول ذلك رغم ما يكنّ لي من سخرية)

تجيب بنبرة عالية تنم عن غضبٍ عارم:

(لشدّ ما ألمتني إجاباتك! أمدحكُ وتوبخني، وتمدح جمال الحسناء وتؤلمني... يا للعجب!)

وما عتّمت أن بررت موقفها بعصبية:

(ما عساني صانعة هكذا طبعي؟)

نظرت إليّ بدهشة وسألتني:

(ما تقول في طبعي، وفي تعاملي مع الطُلاب؟)

خيّرُ القوّل أصدقه:

(نعم... لا تراعين مشاعر أحد منهم وأولهم أنا، ولطالما ألمتني كلماتكِ، أنت مسرفة في الصدق، حادة الطبع كالسكين، ولسانك يجلد كالسوط، ومتى ما شان لسانك صار في جمالك نقصًا)

أطرقتْ رأسها بعدما ألمتها إطراقا طويلاً.

كان وجهها ينطق بالعزم:

(وأكبدي! أتجاسر بنطق هذه الكلمات في شخصي؟ أبعد تفضيلي لك على عادل يُقالُ لي هذا الكلام؟ حَسّبُك أن تعلم أنك لا تضع لي وزناً)

صرخت في وجهي:

(أكره من هم من فصيلتك ولا أتشرّفُ بمحادثتك)

أولتني ظهرها وراحت تتفحص أحد أركان الأدب «**النوادر**» لأبي علي الغالي.

نهضتُ واقفاً فوق هامتها انظر إليها نظرة الوداع، وفي قلبي من الألم، ما الله به عليم:

(الصدقُ يوجب الثقة، والكذبُ يُورث التُهمة، ظننت كلما كنتُ من الكذب أبعد، كنت في نظركِ أعظم)

كأنّها تغالب دمعة، فأضفت: (وتالله لأن أكون صادقاً مُبعداً مِنْ حياتكِ إلى الأبد، لأحبّ إليّ من أنْ أكُون كاذباً مُقرباً مِنْ قَلْبِك ثانية.)

غادرتها وأنا أهيم بوجهي لا أدري إلى أين؟

عندئذ شعرُتُ كأنّي أحمل الكرة الأرضية على عاتقي بثقل حزني لأنها لا تتشرّف بمحادثتي بعد اليوم.

والعَجَبُ العَجِيْبُ أنها تقول الصدق المتناهي وتنكره منِّي!

انتبذتُ مكاناً قصياً أتألم في صمت، بطرف باكٍ، ونفسٍ معذبة، وقلب يتوقد نارا.

●●●

ولكن.....

لم يلبث إلاّ ساعة، إذْ رأيتها قادمة تتهادى في مشيتها المُعتادة. جلست قبالتي بهدوء دون أن تلقي عليّ السلام.

ظلتْ صامتة لفترةٍ طويلة تنظر إليّ، ورأسي مُطْرقٌ مِنْ ثِقلِ الغَمّ في قلبي، واستكمال الحزن في جوفي.

داعبتني بابتسامة مشرقة:

(أرفع هامتك، فأنْتَ نبيلُ نفسٍ، وصديق مودتي، قد كنتُ أبصر إليكَ دائماً ببصيرة قلبي)

وغازلتني بطرفٍ مُكتحل:

(وأبيك لا تحزن، فقط كنتُ أختبر فيك آفة الكذب، قررتُ أن أختبرك بنفسي وأن يكون شدّة الاختبار، بقدر شدّةِ مقّتي للكذِب)

داهمتني فرحة مفاجأة في صرخة اليأس...

هكذا حبها دائماً، والأعجب أنْ يكون هذا الاختبار في لحظة يأسٍ قد يكذب المرء فيها ليظفر بقلب فتاةٍ فاتنة.

تنظر إليّ نظرة احترام وتقول:

(إنّ مَنْ لم يُكْذِب أمَامَك، فَهُو أجْدرُ ألاّ يَكذِبَ في غِيابك، واليوم اجتمعت فيك «صفاتي الخمس» في شخصك وتبقت فيك صفتان، لم تعد الجامعة أرضًا صالحة لاختبارك فيهما)

أعياني العيّ والحصر، وانعقد لساني، فتضيف:

(إن حلو شمائلك، وحسن تصبرك على غلاظة قولي، وخشونة لفظي، لدليلٌ على صحةِ حَدْسِي عَليكَ مُنْذ أول يومٍ انحنيت لي بهامتك في كافتيريا العلوم).

أجادتْ إليَّ بِنظْرَةً صافية ... مطمئنة.... هادئة.

تناولتْ قَلمها الأنيق، وخطّت في دَفْترها كلمات ساحرة، مكسوة لحناً كأنّها كتبتها بشفتيها، فجهرتْ لي بعشقٍ، لا يُخالطه هجرٌ بعد اليوم:

« لن أحبك بعد اليوم سرًا... سيعلم الطُلاّب أني أعشقك جهرًا »

تتكلم وأنا ما زلت واجما صامتاً:

(أيقنتُ تماماً، أنّي لن أجدَ شخصاً في الدُّنْيا يحتمل شدّة صراحتي، وخشونة لفظي، وحِدَّة طبعي غير مَنْ يتحلّى بحُسنِ الخُلُق مثلك).

كدت أخرج من جلدي من الفرح، فأطلق لساني عنانه:

(إذن لغزك الذي ظللتِ ترددينه دائمًا «هو ذلك» يشير إلى شخصي، أأنا مُخطئ؟).

تجيب بلا تحرّج:

(أجل، أصبْتَ كبد الحقيقة).

كاد السُّرور يشق صدري:

(«**وصفاتك السبع**»، هي مواصفات زوجك المنتظر، أتراني مخطئ؟).

كانت صريحة كعادتها:

(نعم، نعم.... فهذا الأمر حقٌ، آه.... لكن حين رأيتُ أنوثة عادل وإفراطه في الزينة، اشمأزت نفسي، سأمقتُ زوجي لو يتزين بزينتي، أريده رجلاً صلدًا، صخرًا، يابسًا كالحطب، عندما أضربه براحتي (وضربت فخذها المرتوي) يسقط من جسده **دُرابة**).

«**الدُرابة**» باللغة السودانية الدارجة تعني الحجر.

تحرّك قلبي على صراحتها، وعلى حين فجأة، تذكرتُ مقولتها في أوَّلِ لقاءٍ جمعَ بيننا في فهمها العميق لمعنى الحجر، فبلغتْ مِنّي الجرأةُ مُنْتَهَاهَا أن قلتُ لها:

(إذن، إنّ فهمك العميق لكلمة «الحجر» هو عندما تجمعكِ العلاقة الحميمة مع زوجكِ تجديه كالحجر في فراشكِ، أليس كذلك؟).

دسّت وجهها بين يديها من الحياء. وأرادتْ أنْ تنهرني فَلَمْ تُوَافِهَا كلمة.

أضفت بجرأةٍ ليس بعدها جرأة:

(أنا رجلٌ ريفي، والرجل الريفي شديد الصولة، بعيد الوثبة، أصلب صلابة، وأشدّ يبوسة وليس لي اسمٌ إلا الأصلب، وإني لأرفع الحجر الثقيل الّذِي يعجز عنه عشرة من أمثال الفتى عادل.. وستتناثر لكِ الأحجار من جسدي)

رأيتها غاضة البصر من الخجل فأواصل:

(أنا من سكان الفيافي، وتربية عراء، مِنْ صُلبِ الأحجارِ ولدتُ، ومن الحياةِ القاسية ارتويتُ، ولقد اجتمعتْ مواصفات زوجكِ كلها في شخصي، فلن أصلحَ لامرأةٍ غيركِ، ولن تصلحين لرجلٍ غيري فأنوثة المرأة قوة، والقوة تشتاق إلى القُوة)

بلغ منها الخجل أنْ غاب صوتها تماماً، واختلجتْ نبراتها وتحطَّمَتْ.

عرضتُ عليها الزواج مباشرةً:

(سأسوقُ إليكِ، مائة بقرة بصغارها مَهْراً، لو تزوجيني نفسكِ).

أجابتْ كَأَنَّهَا أحسّتْ بدفء فراشنا من ساعته:

(آه..ماذا أقول لك؟ أبي!... أبي! يشاور أمّي في تفضيل أكْرمِ صِهْرٍ ليزوجني، فوقع اختياره على مهندس يعمل في أمريكا)

تضيف دون مبالاة:

(لنْ يرضى بك... لن يعترف بأصلك أَبَداً.... سيردُّكَ خائباً تجرُ أذيال الذلة؛ اللهُمّ إلاّ إذا جعلَ اللّهُ لك من حسنُ خلقكَ معجزة).

تولاني مِن صراحتها ألمٌ، لا يعدله ألم، وعلى حين بغتة، قامت تستخدم أقْصَى النَبَاهة والفِطْنَة في حديثها:

(لكن قَدْ تُوَلِّد مخبّآتِ الدُهُور مِنْ رِحْم يأس علاقاتنا الصادقة، ما لا يَخْطرُ على بالِنا، ولا تدركُهُ عقولنا. ما لنا عِن الصّبر غِنىً)

رأيتُ ألا أتعمَّق فيما لا طائل تحته، ليفعل اللّه إذا أراد المعجزة أمرًا مقضيا... الأمور بيده لا بيد أبوها، ولربما أنال المراد طالما تُلمَّح بأنها ترضى بي بعلاً.

●●●

هكذا، اندمل الكَلَمْ، وانطفأتْ نارُ الغيرة، وكانت الجرعات المتنوعة: رسم لوحاتها... لغة الخيال ومناهجه.... إيقاع لغة الصمت في كتابة القصص... قول الصّدق... وحُسن الخُلُق أقرب وسائل قرَّبتْ بين قلبينا.

وجرعة نار الغيرة أبعد وسيلة فرَّقتْ بيننا، وألقتْ بظلال الشّك على مصداقية علاقاتنا. وقفتُ قائماً:

(لا تغادري مجلسك وسأعود بعد قليل).

ذهبتُ إلى غرفتي بداخلية الطُلاّب، وقفلتُ راجعاً حاملاً لوحةً لها، رسمتها وهي مغاضبة، بعدما وقع بيننا مِن عتاب:

«حبيبتي:

لقد أحببتُكِ...حتَّى تنفسَ حبكِ في أحشائي... حتّى تكلم»

●●●

جاءت صديقتها فاطمة باحثة عنها، وفاجأتها بسؤال دون أي تمهيد:

(بما تشيرين بعبارة، «كيف تلامس الأرض وأنت تطير؟»)

تجيب بلا تحرّج:

(كيف تسقط إلى الأرض، وهي تُحلّق بِكَ إلى مَقَامِها الرّفيع، لِتَخْتَبِرُك في صِفَةِ الحِلم)

ودَّعتُ سلوى. فأخرجتْ مِنْ حقيبتها دفتر محاضرات أنيقاً ذا أسلاك ملفوفة من ماركة «روكو»، نشرته بين يدي.

غابت عن ناظري، فوقع بصري على أَبياتِ شعرٍ طويلة على وزن المتدارك، لعلّ مرد ذلك أنها كتبتها على عجلٍ قبل عودتي من السكن، تمدح صفاتها الخمس في شخصي، وتتلاعب بضمير المتكلم الغائب، جاء بعض منها:

ما لي أكتمُ عشقاً أهواهُ. ●●● كي يعلمَ شيئاً قد أخفاهُ
يا عادلُ لستَ له كفؤاً ●●● فذرِ الكلماتِ لتطراهُ

●●●

لم يُخفِ جمالَ الحسناء ●●● لم يكذبْ حين سألناهُ
فليحصد ثمار محبته ●●● وليعلمْ أنّي أرجاه

شاطئ من دونِ ماء

حكيتُ لصديقي أحدَّثه بتفاصيل قصتنا مع عادل، وختمتُ حديثي:

(رَسَا مركبُ أحلامِهَا على شاطئ حُسن خُلُقي، ولم يَفُزْ جمال الفتى منها بطائل).

ألقيتُ في يديه أبياتَ الشّعِر التي ألّفتها الأديبة سلوى تمدح صفاتها الخمس في شخصي.

وكان صديقي «كرنكي» أعلمَ الطُلاّب بقواعدِ الشّعِر ومفرداتِهِ فيتمعنُ فيها:

(تحتوي على معاني إشارية تخاطبك بلغة باطنية، أنْ تتذوقَ طعمَ الخطّة في الباب الأخير).

(أي طعمٍ تريدُ؟)

يجيب بجرأةٍ مريبة:

(طعم شفتيها)

أنكرتُ ذلك أشدّ الإنكار، فارتعدتُ من أفكاره الشَّيْطانية، فأجبته بحزم:

(ذلك ما لا يكونَ؛ فبحسن خلقي أحبّتني، لن أخرجَ من الإطار الجميل الّذِي وضعتني فيه)

كان متحررًا، وكنتُ مؤمنًا بعبقريته بعد نجاح الخطّة، فرحتُ أصغي إليه بشوقٍ مرهفٍ فيقول:

(يبدو أنَّك لا تفهمُ مِن صفات المرأة إلاّ اسمها، متى صدَّت المرأة عن خلقٍ، فإنَّه واقعٌ لا محالة).

هكذا فاجأني، مادتِ الأرض تحت قدميَّ فلم احتمل الوقوف.

جلستُ على النجيلة فشعرتُ بالثبات وأجبته بقلبٍ يخفق بشدّة:

(إنّك تهوي بي إلى مهالك الفجور، أقسم لك نشأتُ عفيفًا لم تمسَّ يدي مفاتن امرأة)

لكن...

والحقّ كان يراودني بين الفينة والفينة ملامسة مفاتنها بعدما قبضتُ على أناملها مرارًا، والبشر غير معصومين من الرغبة في ملامسة مفاتن النساء، ولا مبرئين من الوقوع في الزُلل، ألستُ بشرًا أحمل الخير والشرّ؟

يفتحَ صديقي صفحةً من الخطّة، فيقرأ بصوت عالٍ:

«.......إنّ المرأةَ إذا أحبَّت قتلت، وإذا كرهت قتلت، وإذا عشقتْ منحت مفاتنها كباقة ورد امتنانًا لمَنْ تعشقُ، وبقدر العشق تجود المرأة بالمودة، وبقدر المودة تُهيئُ المرأة جسدها كله لمن تعشق...»

يضيف كما لو أنّه هو الّذِي سيقُبلها:

(ثمّ إنها عشقتك كما تقول «سيعلم الطُلاّب أني أعشقك جهراً»)

قامَ بترديدِ أبيات الشّعرِ مَرَّة ومرتين لتمجيدِ عبقريتها:

(«**فليحصدْ ثمارَ محبَّته.... وليعلمْ أنّي أرجاه**» هذه لغة إشارية يا غبي، تنشدُ منك لهيبَ القُبْلَةِ، مثلما تنشدُهَا أنتَ منِها، وثمار الحب لا يُجْنَى إلاَّ بالشفتين).

بسبب ايماني بعبقريته، وجدتُ نفسي مسوقًا لسؤاله:

(أخشى أنْ تصدَّنِي؛ فأحطّ من نظرها إلى الأبد)

يقرأ عبارة أخرى من الخطّة العاطفية:

(**«كُلَّ شهوةٍ تخطرُ على فتاةٍ، فمدراتها سهلة، ما خلا شهوة العشقِ»** هيّا ستجد المراد سهلاً)

خفقَ قلبي ارتياحاً وأجبتُه:

(طعم شفتيها جُلَّ ما أتمناه)

●●●

في هدأةٍ من الليل، تراءى لي إنّ حبيبتي شاطئ من دون ماء، وأنا البحر المتلاطم الّذِي سيبلل شواطئها.

داخلي ارتياح عندما تخيلتُ أنها ستبادلُنِي قبلاتٍ لطيفة بفمٍ طيبٌ ريحُه كالتفاح، باردٌ ملمسه كالثلج، لذيذٌ طعمه كالشوكولاتة، ستذوب حُمّرَةُ شفتيها في فمي كذوبان زبدة الشكولاتة في فمها.

خلوتُ بنفسي أفكرُ كيف أتذوقُ شفتيها؟ فعكفتُ في مراجعة الباب الأخير من الخطّة فقرأت:

«... الموسيقى أخطر تأثرًا مِن الخمر، وتصنع بالجسد والقلب، ما لا يصنعه الخمر بالعقل، لأنّها تتزين بمزامير إبليس، وحبائل الشَّيْطان فتقَرِّبَ شعورَ المرأة! أوليسَ النساءُ حبائل الشَّيْطان؟)

«...تتردد أصداء الموسيقى في قلوب النساء في لحظة واحدة، وترى كُلّ فتاة أنها الأثيرة لدى الفنان، وإنه يغني لها وحدها، فلا قوة عاطفية تستطيع أن تلج قلب المرأة بعد الموسيقى، فتشتهِي المرأة القُبْلَة مِنْ فَم المُغنّي».

●●●

بهذه الأخيلة وجدتُ أنّ رغبتي الداخلية، قد غلبت مبادئ الأخلاقية السمحة تماماً، فحملتُ طنبورِي في الأصائلِ أتربَّصُ بها.

وفي ذاتِ مساء التقينا، أجلستها في مكانٍ بعيد، وآمن مِن أعينِ النُّظَّارةِ؛ لأتلذذَ بأطايب شفتيها إنْ لَمْ تَصُدّنِي.

اتفق لحظتها، أنها بدأت تشتهي لأوقات الموسيقى كاشتهاء من ذاق طعم الجوع.

ذهبتْ إلى الكافيتريا على عجل وقفلتْ راجعة حاملة أقداحاً مِن شراب الليمون.

بدأتْ تمُص العصيرَ بارتياح جلي، فضغطتُ على إرادتي وخطوتُ خطوتي الأولى:

(في هذه اللّيْلَة القمرية، لا شيء يحلو، إلاّ العزف تحت أشعة القمر).

(شددتُ أوتارَ طنبوري، وزنتُ نغماتِهِ، فترنمتُ لها بأقبح لحن، ولكن نغماتِ الطنبور الرّخيمة طغت على صوتي الغليظ.

الغزال اللّيّ فوق في السّلم (اسم منطقة)

المحبـــة تزيـــــــدِ الألـــم

كُلّ يـــوم أصبــــح في هــمّ

سيســـبان عـــــودكِ منظـم

شـمعدان نفســـكِ يـا مختـم

«البرتـكان نهـــــدكِ مـدردم»

رحتُ أردد عبارة:» البرتكان نهدكِ مدردم – البرتكان نهدكِ مدردم»

بدأت تنساب مع الموسيقى، فابتسمت قائلة:

(أَلَمْ يجدْ مؤلفُ هذه الكلمات، غير كلماتٍ عارية، تخدشُ الحياءَ؟).

(لأنَّه لم يجدْ شيئاً أشهى مِن الاستدارةِ).

وعلى حين فجأة، ساورتني نفسي بمُلامسة أناملها، فتولّد في جسدي تيار مِن الاشتهاء لا حيلةَ لي في صده، بل الإقدام عليه مهما كلفني مِن صدود.

لم أشعرْ إلاّ ويدِي تضغط على راحتها البضّة بلذّة جنونية ...محمومة..... مفاجأة.

سحبتْ يدها مُنْدَهِشة كأنَّها ملسوعة فقالت:

(هذا الخُلق لا يليق بك البتّة... لقد كدَّرت صفائي حقًا)

تنهدتْ تنهيدةً طويلة، وأردفتْ:

(لقد أخطأتَ اليوم، وخطأُ مَنْ تَحلّى بِحُسنِ الخُلُق أبداً يكون عظيماً)

أصابني ألمٌ في صميمِ الفؤاد، انحنيتُ على نفسي باللائمة، ألعن الخطّة ومؤلفها، الّذِي زَيَّنَ لي عملي فرأيتُه حسناً.

بدأتُ أتساءلُ: كيف أربأُ الصّدع فتعودُ المياه إلى مجاريها؟ ولكن.........

لشدّ ما تفاجأتُ عندما رأيتُها تنظر إِليَّ نظرة مُلتهبة، نظرة أشبه بالإغراءِ مِنها بالامتناعِ، لا تحملُ إلاّ معنى واحدًا:

«هيّا هزّ أعطافي ليستكين قلبي، هدْهدْ صدري لتهدأ أوصالي، أقدح ثِقَاب أناملك في صدري، وأشعل بها جسدي، ولا تأخذْكَ بي رأفة.

هيّا تقدّم... ضُمّني... ارتشف رحيق الشفاه... أقطف ثمرة الانتظار... فُز بأول قُبلة تنالها شفتاي لتكون أسعد الطُلاّب حظّا في الجامعة»

قالتْ ذلك بنظراتها الملتهبة، وإن لم تقل بذلك بلسانها المعتقل.

يا اللّه كم أنا أخرقٌ، كم أنا جاهلٌ بالمرأة!، إِنَّها تنشدُ مني لهيب القُبلة مثلما أنشدُها منها سواء بسواء؛ يا للمرأة الماكرة!

اطْمَئَنَّ قلبي، ودعوتُ للخطّة ولمؤلفها صديقي «كرنكي» بطول العمر والنّجاح.

تقرَّبتُ وهمستُ في أُذُنها:

(لِمَ تحرمِ مشاعرنا بما كتبه لنا الهوى؟)

تجيبُ وهي مُضْطربة:

(لأنَّكَ تَدْفعُنا إلى ما يَعْقبه ندمٌ).

تدفعنا؟ كنتُ قد نظرتُ إليها يوماً في قواميس القانون الدولي فوجدتها «إقرار».

همست في أذنها:

(إنَّ هوانا لا يتخطى حقوق العاشقين، فأينَ النّدمُ؟ جُود يا الحبيب وخاف ربكِ.... رحماك على أسير حبكِ)

تبحثُ عن مبرر بصوتها الغائب، وبكلماتِها التي تتوقفُ في حنجرتها:

(أووف...إنَّك تتذرعُ بالحيل).

تتذرع؟ كنتُ قد نظرتُ إليها يوماً في قواميس القانون العالمي فوجدتها «تسليم»

ارتفعت موجة الاشتهاء كالجبل منذرةً بطوفانٍ جارفٍ، لا يصدُّ مجراه إلاّ قُبْلَةٌ عاجلة، وإلاّ غاصت كلها في لُجَّةِ الاشتهاءِ:

(أَلَمْ تقرئي «حقوق العاشقين» في إحدى قصائد أمير الشُّعراء؟ سألقيها لكِ إذن ما دمتِ لا تعرفينها).

التصقتُ بها، وألقيتُ في مَرْمَى سمعها أبياتاً مِن قصيدة «جارة الوادي» فكانتْ للسمع مرهفة، وللعينين مغمضة!

لَمْ أَدْرِ مَا طِيبُ العناقِ على الهــوى ●●● حتَّى ترفَّــقَ ساعـــدِي فَطَــواكِ
ودخَلْتِ ﭬ ليلين فَرْعِـك والدّجــى ●●● ولثمـــت كالصّبـح المُنــوِّرِ فــاكِ
وتعطَّـلَتْ لغــةُ الكــلامِ وخاطـبَتْ ●●● عيني فــي لغــة الهـوى عــيناكِ

حتماً، هي عالمة بمناسبة القصيدة، لكنها لا تريد أنْ تتذكر، كانتْ ﭬ الواقع تريد سماع حتّى شعر الرثاء!!

ﭬ تلك اللحظة، كان البدرُ، يغيبُ ﭬ دجاه حيناً ويبين أخرى:

(أنظري! لقد توقف القمر يترقبُ كيف يتعانق العاشقان؟، فلا تكسفيه)

تلطف أجواءها الغرامية، وتحتمي خلف ستَار مشاعرِها الواهن:

(وما أدراك؟ لعلَّه ينظر لسوانا)

فطنتُ أنَّها دعوة صريحة منْهَا بِأَنْ أَقْدِمَ الآن! فاشتدّ بي الطمع.

أمسكتُ براحتها وألصقتها ﭬ صدري فتظلُّ راحتها عالقة، ولم تبادر بسحبها هذه المرّة، وهي التي قالت قبل هُنيهة: "لقد كدَّرت صفائي حقًا".

تشرعُ أبوابَ مشاعرها مِن كُلِّ حَدَبٍ وصوبٍ؛ فتقول:

(رُبَّمَا يرانا أحد حُراس الجامعة؛ فينكشفُ أمرنا، وينفضحُ سرِّنَا).

أمسكتُ براحتها لتنهض معي:

(فلو التمسنا مكاناً آمناً للجلوس يُوحي بالطمأنينة ويشمله قليلٌ من الظّلمة، فإنْ أبصرنا أحدُ الحُرَّاسِ، استوينا ﭬ جلستنا، واتخذنا جلوساً لائقاً).

أتوجّه نحو إحدى حجرات الدراسة الآمنة فأتركها ذاهلة للتفكير، ولكنها كانت فقد حسمت أمرها، فتنطلق من ورائي بعد ١٠ دقائق.

لـم تسـتطع أن تتصدي لتيـارات لهفـة القبلـة المنتظـرة التـي بـدأت تمـوج في مهجتهـا كمـوج البحـر،

وبلهفـة الشـوق تتهـاوى فـوق إحـدى المقاعـد، تظـل صامتـة، لا تحـرّ جوابـاً، وجبينهـا يرفـض عرقًـا، ونظراتهـا شـاردة، وانفاسـها لاهثـة.

لـم أتوقـع أن تستسـلم بهـذه السـرعة..... وبهـذا الضعـف...... وبهـذا الاسـتلام..... وبهـذا الانكسـار....

تَعَطَّلتِ لغـة الـكلام، وترفـق سـاعدي فطواهـا، فدَسَّتِ وجههـا البـدري في محيـط صـدري، تنتظـرُ القُبلـة التـي طـالَ انتظارُهَـا.

عانقتُ جيدهـا الطاهـر فسـقطت طرحتهـا وتنـاثرت دبابيـس شـعرها بعيـدًا.

انتشـر فـوق ظهرهـا شـعرٌ.... طويـل.... جـذاب مُغـر كخيـوط الأبنـوس... شـعرٌ مُمـوَّج مُضمـخ بعبـق النعنـاع والفانيـلا..شـعرٌ ينسـاب كالشـلال فأضفـى لجسـدها أنوثـة طاغيـة لا مثيـل لهـا.

وفجـأة انتابتهـا نوبـة ضعـف.

سـاقاها تصطـكان، وجسـدها يرتعـش ارتعـاشَ حُمَّـى.

وقلبهـا يخفـق بشـدّة كقلـب أرنـب، وفي كُلِّ لحظـةٍ تـزداد ارتعاشـاً واصطـكاكاً.

قالـت وأنفاسـها الشـذية تـلاطف وجهـي:

(إنـي لأفضـل أن أمـوت منتحـرة مـن ارتـكابِ هـذا الشـطط، لـن أغفـر لنفسـي أبـدًا.... أبـدًا)

وافرحتـاه!!! .... سـأقضمُ شـفتها السُفلى القانيـة كقطعـةِ «اسـتيك» مشوية مِن لحمِ البقر الطازج المُحلّى بصوص الفطر، وابتلعها في أحشائي.

قرّبت فمها الجميل لأتلقفه بشراهة، وكنتُ على وشكِ أن أطبق فمي الواسع بفمها اللطيف وأكسوها بقبلاتٍ قاسيةٍ .... قاسية كالشوك.

ولكن......

في أقلِّ جزءٍ من الثانية، أطلّ علينا حبها الحقيقي فتقول بصوتٍ كسير:

(وأيمّ الحق، إني لأضعف إليك من خيطِ العنكبوت، وليس لي معشار قوةٍ لصدّ مبتغاكَ وإن اجتاح محراثك أرضي البكر..... لكن إنْ أقدمتَ على ما تشتهي، فوالله لتسقطنّ في نظري سقطة، ليس بعدها إقالة)

رباه.... بعضُ الكلماتِ، أشدُّ إيلاماً مِن العذابِ، تلاشتِ رغبة الاشتهاء في حينها، وخمد بركانها، وفتر نشاطها فقمتُ بإِخلاء سبيلها فوراً حتى لا أطلب لها إسعافاً.

●●●

ظلَّتْ على تلك الحالة ساعةً ذاهلةً لا تطرف ولا تحول.

كانت تتمنَّى أن تكون أضعف من نوبة ضعفها ... تتمنَّى لو أني ارتشفتُ رحيق شفتيها لتنام تحت التخدير العشقي لا تصحو أبدًا.

تكرَّعتْ جرعات من المياه لا عدّ لها، وراحت تُجفف دموعها، وتعيد تصفيف شعرها العجيب ولمْ تَنْبس بِكلِمة.

وحالما تلاشت نوبة ضعفها، استجمعتُ رباطة جأشها، أيقنتُ أن لنوبةِ ضعفها قوة لا تُقهر أمام رغبتي الجامحة، غابتْ عن ناظري تاركة وراءها كومة من المناشف الورقية.

●●●

في الطقوسِ الدّينية يقومُ الهندوس بتقطيعِ أوصالهم وتقديمها قرباناً لآلهتهم؛ اعتقاداً منهم بأنَّ ذلك يُقَرّبُهم إليها زلفى فيتساقطون صرعى فاقدي الوعي!

في طقوسها هي، تتلهفُ لساعات الهيام، تُقدِّم قلبها قرباناً لآلهة التخدير العشقي؛ فيحترق مشاعرها، ويغيب عقلُها وتتنابها نوبة ضعفها.

نقطة الاختلاف الوحيدة بين الطقسين، هي إنَّها في كل مرة، تنسى لوازمها الدراسية.

فمرَّةً قلماً، وحينا مسطرةً.

وتارة مقلمةً...وأيّامًا مناشف ورقيّة لتجفيف دموعها.

جمعتُها كُلَّهَا ووضعتُها في سلة مزهرية؛ تمهيداً لمفاجأتها في تأليفِ مجموعة مِن القصصِ القصيرة لها بعنوان:

«مُقْتَنَيات الحُبّ»

●●●

لقاء العاصِفة

«انتزعوا مِني الوسام، لكنهم لم ينتزعوا سرعتي»!

العداء الكندي بن جونسون –أولمبياد سيول ١٩٨٨م

●●●

وبعد أسبوعٍ من نجاحها في صدّ قوة رغبتي الجامحة أمام نوبة ضعفها، ذهبتُ إلى كُلّيتها التمسها.

رأيتها تُجالس أخلاطاً من الطالبات، وما أنْ رأتني منتصبًا أمامها، حتّى نهضتْ سريعًا ورمقتني بنظرة نداء طويلة ألا أنبس بكلمة، وكنتُ بتفاصيل لُغاتها الإشارية لخبير، توجهتْ إلى مكانٍ قصي جدًا، فذهبتُ على أثرها حتى وصلت، وكان في يدها كتاباً تتفحصه فجلستُ على مقربة منها لا يفصلنا سوى بِضع سنتمترات.

وضعتْ الكتاب جانباً، فتناولتْ من حافظةِ أطعمتها، شطائر من جبنٍ وناولتني شطيرة، ظلت صامتة لا تقول شيئًا.

التهمتُ شطيرتي في ثوانٍ، نظرتْ إليّ خلسة، وناولتني أخرى فالتهمتُها في ثوانٍ أيضًا، وتبقت شطيرة واحدة فقسمتها بيننا قسمين فأطمئنَّ قلبي.

وهنا كسرتُ حاجز الصّمت:

(اعتذر إليك بشدّة ما بدر منّي من نزوةٍ شيطانية لا مردّ لها)

كانت نظراتها تعبر عن احترام فقالت:

(لقد جرى اختبارك في فضيلة الشَّرف هذه المرة من تلقاء ذاته، فجميل أن أرى أن في قوى شرفك، فضلٌ على فضل قوةٍ مبتغاك)

في ابتهاجٍ عظيم أجبتها:

(لكنّه كان اختبار عسير لإخماد نارٍ متأججة في عودٍ...أخضر... مُعطّرٍ.... مكنون، فكان نصيبي الكيّ بالنار)

●●●

بعدها، أصبحنا قصَّة حُبّ واحدة ببطولتين، بجسدٍ واحدٍ خُلق بعقلين، إذا استؤصل أحدهما، توقّف إدراك الآخر أسفًا عليه.

صرتُ لا أفارقها في غدواتِها وروحاتها، ومَنْ يرانا ..... يرانا كمحبين، لا طالبين جمعتهما قاعاتُ المحاضراتِ.

أنزلتِني منزلة الحُبيب الدّائم، والجليس النّاصح، فنلتُ أخصّ منزلة، وأدنى صُحبة وموضع ثقتها، ومَمْكَن سِرِّها، فلزمتها لزوم الظّل.

لطالما أذاعتْ لي نشرتها الصّحية، وما يصاحبها مِن آلام، حتى لقد أخبرتني بميعاد عذرها الشهري عندما كنتُ ألِحُّ عليها بالجلوس فصاحتْ بعصبية:

(يا لك من رجل مليح! إني مرهقةٌ.... أتفهم؟ مرهقة.... يصيبني في كُلِّ شهرٍ، ما يصيبُ أخواتك!)

لم تزدني الأيام إلاّ تقرباً مِن قلبها.

لا تطيب إلاّ كلماتي.

ولا تشتهي الشّوكولاتة إلاّ أثناء مجاراتي في الأدب.

كُلّ ما فاق المألوف إلاّ ولحقه قول، فشاع خبر علاقاتنا العاطفية في أرجاءِ الجامعة، فأدركتُ منزلة ما كنتُ لادركها لولا منزلتها.

تمتعنا بمسرات الحياة الجامعية، فلم يكدّر صفاءنا مُكدّر، وكان ذلك شأننا في غفلةٍ مِن الزمن، إلى أنّ نزلت بي نازلةٌ ذات يومٍ، فغيَّرت مَجْرَى حياتنا رأساً على عقب. عندما حَالَ المتعالون عرقيًا بيننا إلى حين، وويلٌ للمحبين من يقظةِ الزّمن بعد غفلتها.

●●●

ببراءتها جاءتْ تبشرني:

(أحملُ لك مفاجأةً مدوِّيةً، لا تتوقعها أبداً).

(ما البُشْرى؟)

(أمّي، أتتْ مِن دولة قطر، شديدة العطش لمقابلتك، لكثرة ما قرَّظتُ لها شمائلَك، وسيكون لقاؤنا غداً، السّاعة العاشرة صباحاً بكافتيريا العلوم).

فوجئتُ بهذا اللقاء، وخفقَ قلبي خفقاً شديداً مِن قوةِ المفاجأة، ظللتُ صامتاً أحاولُ أنْ أجدَ تفسيراً لهذه المقابلة.

قلتُ صادِقَاً:

(إنَّـه لمِنْ دواعـي سـروري مقابلتهـا، ولكـن لـدي محاضـرة قائمـة في نفس الوقت)

حدجتْني بنظرةٍ إنكار:

(لم يخطر ببالي، أنَّك تراوغ روغان الثعلب لتحتمي خلف الأعذار)

تغيّـرتْ بشاشـتها، وأوشـكتْ أنْ تغادرنـي، فتسـمّرتُ أمامهـا وتضرعـتُ ألاّ تفعـل.

تولانـي إحسـاس باليـأس مِن الذهـاب، ولكـن رأيتُ ألاّ اسـتسـلم لليـأس، وألاّ يجـد إلـى قلبـي سـبيلا، فلـم أجـدْ بُـدَّاً مِن تلبيـة دعوتهـا:

(يسرني جدًا مقابلة أمك المباركة).

●●●

تركزت أفكاري في اللقـاء، ولا عجـب فأنـا بصـددِ مقابلـة دكتـورة عظيمـة، محاضـرة للغـة العربيـة وآدابهـا، وذات ثـراء واسـع، متزوجـة مِـن مهنـدس كبيـر، يعمـلُ في إحـدى شـركات صناعـة النّفـط والغـاز بدولـة قطـر.

صِـرتُ أفكـر، إنْ كانـت المقابلـة خيـراً، فكيـف أثبـت لأمّهـا أَنَّـي صديـقٌ مقـربٌ مِـن درتهـا المصـون؟ كيـف أجذبهـا مِـن أوّل وهلـة، وأثبـتُ لهـا أنَّ اختيـار ابنتهـا لـي صديقـاً لهـا، اختيـارٌ صـادف أهلـه، وأنَّ درتهـا المصـون، في أيـادٍ أمينـة.

وإنْ كانت شرّاً؛ فكيف أتفادى شرّها، بالأناة والحلم مرَّة، والشدّة والحزم أخرى، دون أنْ أتركَ أثراً، أو إحراجاً لسلوى فتسوء علاقتنا.

●●●

خلوتُ بنفسي أعِدُّ ما أقول في اللقاء لإثراء مأدبة التعارف، وترك انطباع جيّد عن شخصيتي، وإلاّ سقطتُ في نظرها.

ذهبتُ إلى الكافتيريا، واتخذتُ موضعاً على مدخلها، لأتمكنَ مِن مشاهدتها أولاً وتقييم أمائر وجهها، هل أفرُّ من اللقاء كالجبان، أم أثبت ثبوت العير الكليل؟

كلّما لاحتْ امرأةٌ قادمة اشتدّ انتباهي، ولم يطل انتظاري، فرأيتها تتوجه نحوي مباشرة مع حبيبتي، بعباءة ذات أربطة، مطرّزة باللونين الأسود والأبيض، مستوحاة مِن التقاليد القطرية، تتناسبُ مع جسمها اللاحم، وتضع فوق كتفها معطفاً سماوياً، وحقيبةً يدوية فخمة، تتناسق مع هندامها.

أيقنتُ للوهلةِ الأولى أنَّ الأرستقراطية بادية على وجهها، وتنتمي إلى عالم العِزّ والجاه والمال، وجهها يشبه وجه ابنتها تماماً، نفس قامتها فوق الوسط طولاً ووجهها المستدير، ما زالتْ تتمتعُ بالجمال النّاضر، وبدا لي أنَّ عمرها، قد ينيف على الخامسة والخمسين عاماً.

عندما دخلتْ الكافتيريا، كأنّها داخلة ساحةِ محكمة. وتملّكني الخوف عندما مدّت راحتها لمصافحتي، وكأنّ الخوف قد أصبح سمة ملازمة لشخصيتي.

جلستْ أمامي وجهاً لوجه، كأنّها بصدد توجيه اتهام لاختطاف كريمتها، وعلى محياها الصرامة والحزم، كأنّها لم تبتسم يوماً في حياتها.

●●●

بدأتْ دواخلي تنادي بافتتاح جلسة اللقاء برباطةِ جأش وجنان حتى نهايته، وأنْ أسيطرَ على مخارج حروفي، ولُكّنة لساني سيطرة كاملة إلى أبعد حدود البلاغة، لن يلجَ سمعها إلاّ حُسن البيان، وفصاحة اللسان.

اتخذتُ أولاً وضع الاحترام بالجلوس والإصغاء. ألقتْ إليَّ نظرةَ ترحابٍ دون ابتسامة:

(مرحباً بالكريم ابني).

كأنَّها محقق استخباراتي، تريد أَنْ تطمئنَنِي مِن الناحية النفسية بكلمة «ابني»، ثم فجأة تنهالُ عليَّ بأسئلة مباغتة فتفقدني صوابي، فأبوحُ بكُلِّ ما في قلبي مِن أسرار.

أجبتُها حاضر الذهن:

(إنَّهُ لشرفٌ أُمَجِّدُ به اسمي، وفخرٌ أُزَيِّنُ به نسبي)

جيء بالمشروبات الغازية، فأخرجتْ الأمّ وابنتها، كأسين مزخرفين فسكبا المشروب، تناولتُ مشروبي بيدٍ مرتعشةٍ، وقلبٍ مضطرب.

تبادلنا حديث المجاملات التي لا تَمِتُّ إلى المقابلة بصلة، فأطمئنَ قلبي وسكنَ روعِي، ولكن حدسي كان مشدوداً بأنَّ الحديث المنتظر لم يحنْ بعد. والحق...كان اللقاء، ينذرُ بعاصفةٍ هوجاء.

ما لبثنا إلاَّ قليلاً حتى صدق حدسي عندما انتقلتْ أمها إلى الجدِّ قُدمَاً.

ابتسمتْ، بسطتْ وجهها، خفضتْ جناحيها، فأيقنتُ أنَّ هذه علامات مَنْ يتربص بك الدّوائر، ويضمرُ لك الغوائل، كالشجرة المُرة، إن طلوتها عسلاً، لا تثمرُ إلاّ مُرّاً، فارتعدتْ فرائصي.

ألقتْ إليّ سؤالاً سهلاً في ظاهره، ومميتاً في جوهره كلغة ابنتها:

(ما قولك يا بُنيّ، في علاقة تنشأ عارضة بين شخصين لا يتعارفان، وأخرى تُولد قوية، كعلاقة ذوي القربى؟).

سؤالٌ سهلٌ لا يحتاجُ إلى تفكيرٍ وعناء، فأجبتُها بسرعة:

(أرى أنَّ العلاَقة العارضة، تموتُ عادة بانتهاءِ الموقف. أمّا علاقة ذوي القربى، ستبقى بقاء الدّهر).

(عظيم، عظيم جداً، أوافقك كُلّ الموافقة!)

جالتْ بعينيها حول جسمي، نظرتْ إليَّ نِظْرَة تنِمُّ عن اشمئزاز. تقول:

(يا بُني، أرجو ألاّ تسيء الفهم، فنحن هنا بصدد التعارف، أليس كذلك؟).

(أنا رهن أمرك يا دكتورة أسماء).

نظرتْ إليّ نظرة روعتني ترويعاً كثيراً:

(ما علاقة كُلية الآداب بكُلية العلوم؟).

تدبرتُ السؤال، فأحسستُ بداخله فخّاً أشبه بلغز.

حتى أجد متسعاً مِن الوقت للرد الملائم، سألتُها بمكر:

(لم أفهمْ ما تعنين بسؤالك؟)

تنهدتْ بغضب:

(أقصد ما الّذي يدفعُك، لاتخاذ كُلية العلوم مجلساً دائماً لك؟ أَمَا أولى لك أنْ تهتمَ بمحاضراتك في كُليتك مثلاً؟).

بين فكيها حسامٌ مهنّد، له كلامٌ مسدد، يصيبُ في مقتل. فقد بدأ اللقاء يكشّرُ عن أنيابه، هممتُ بافتراء الكذبِ؛ فخجلتُ مِن سلوى، ولكنّي زخرفتَهُ في قالبٍ جميل، وقد قيل «**عند النوى يكذبك الصادق**»:

(لم اتخذها يوماً مجلساً لي، ولكنّي أرتادها كما أرتادُ غيرها مِن الكلّيات).

وبسرعة غيرّتُ دَفَّةَ الحديث، فأضفتُ:

(إطلاق السلطات النشاط الطُلاّبي، دفعني أنْ أرتاد كافة الكليات، خاصة كُلية العلوم حيثُ مَعْقَل التنظيمات السِّياسية، ثُمَّ إنَّ السِّياسة مِن الأنشطة المُكمّلة للمحاضرات، أليس كذلك؟)

ما أغبَاني! ما كان ينبغي أنْ أقولَ عبارة «أليس كذلك؟» كأني أثبتُ تهمة لم تتهمني بها بعد. أَلْقَتْ إليَّ نظرةً أرعبتْني، وأثارتْ شكوكي في صدق إجابتي:

(سألتكُ سؤال واحد فأجبتني بسؤالين، آثرت فضلولي، كأنّك تنفي تهمة، أو تثبتَ أخرى لم اتهمك بها بعد!)

وبأسلوب سيكولوجي جميل، أعادتْ اللقاء إلى مجراه الأوّل، وأعادتني إلى قفصِ الاتهام بهدوء فقالت:

(إنَّ ابنتي بمنزلة النّبض مِن قلبي، وقد ظَلَّتْ توافيني بتفاصيل حياتها الجامعية بصراحتها السافرة، وبشكل منتظم، وأدهشني جداً... جداً تردد اسمك في حياتها اليومية، أليس مِن الأجدر أَنْ أقْدِمَ لمعرفة طبيعة هذه العلاقة التي وُلدت عملاقة؟)

مَنْ شكَّ في المشاهدات؛ ليس بتام العقل، فلا يحتاجُ النّهار إلى دليل، فقد عرفتُ التهمةَ.

خذلتْني أعصابِي مِن عبارة «صراحتها السافرة»، وفي ارتباك ظاهر أجبتُها:

(أجل! ولكن أرى أَنَّك..........)

لم تمكنني مِن الإجابة، مع أَنَّ المُعَلِّمَ يجيدُ فنّ الإصغاء والمحاورة اللبقة، ويحترمُ ردود الآخرين وإنْ كانوا أغبياء.

ألقتْ إليَّ سؤالاً مباغتاً لم أتوقعه، فزلزلني زلالاً شديداً:

(لندع إجابتَكَ لاحقاً، قُلْ لي، كيف تعرَّفتَ على هذه الطفلة البريئة، الّتي لا تملك إرادتها لتشغل حيزاً كبيراً في قلبها؟).

سهل المخرج كلامها، ومُطرِد السياق حديثها، أسئلتها أصبحتْ كمتوالية متصاعدة ما تنفكُّ تزدادُ صعوبةً.

ليس هناك مجال للكذبِ، فقلتُ الصدق:

(يتفقُ للمرءِ أنْ يلتقي مع أناس مصادفة، أأنا مُخطي؟، وأنا تعرَّفْتُ عليها مصادفةً في هذه الكافتيريا، وكما تعرَّفْتُ على غيرها مِن الطّالباتِ).

رأيتُ أن هذه العبارة ليستْ أيضاً فِي محلِّها، أحسستُ أنّي وقعتُ في الفخ الّذِي نصبتْهُ لي، أنحيتُ على نفسي باللائمة، لِمَ قلت لها في البدء: «تموت العلاقة العارضة عادة بانتهاء الموقف»؟).

صدقتْ تنبؤآتي عندما قالتْ:

(لنعد إلى إجابتك الأولى، لِمَ لَمْ تنته علاقتك معها بانتهاء الموقف كما ادَّعَيْتَ؟)

تذكرتُ ما كتبه صديقي في خطّة: "إسقاط قلب الفتاة.... في شِراك الدهاة»:

« ......لا تجادل غريمك أمام فتاة أحلامك في مواضع الحجة بالحجة، حتى تتجنب مقابلة الرد بالاضطراب، واليقين بالشك، والبلاغة بالعيّ، فأينما مال غريمك، ساعدته في ميله، لتسلم من غلاظة رده، كالغصن النّضير الّذِي يتمايل مع اتجاه الرّياح العاتية ليسلم مِن الكسر، أمسك لسانك، فانه أبلغ من كُلِّ خطيب....»

أمسكتُ عن الإجابة، ولكن الخطّة لم تؤتِ أُكُلها أمام قوة منافستي.

سألتْنِي بنبرةِ اختبارٍ غامضة:

(لم تستطعْ نسيانها، هه؟ إني أكررُ عليك السؤال، هيَّا أنا في انتظار إجابتِكَ).

كانتْ أسئلتها مُحرجة ومُتدرجة، فلا سبيل إلاّ الوقوع في الفخِّ، إنَّه تَعْذِيبٌ سيكولوجي للاعتراف.

لم أجدْ بُدّاً سوى الاعتراف، أجبتُها بعناءٍ كبير، وسلمْتُ رقبتي للمقصلة:

(ن.... ن .... نعم! لم أستطعْ).

أحسستُ كما لو أني بدأتُ أفقد نطقي.

وبأسلوب أشبه بأسلوب المحققين، سألتْنِي مباشرةً:

(لكنّك نسيتَ الأخريات، أليس كذلك؟)

أمسكتُ لساني مرة ثانية، فما لبثتْ أنْ سألتْنِي:

(ما معنى هذا؟ أدري أنَّكَ لن تُجيبَ، وجدتها طفلة بريئة، لا تفقه شيئاً؛ فملكتَ قلبها، أأنا مخطئة في إجابتي؟)

اصطكتْ رجلاي مِن هذهِ المباغتة، سَرَتْ في جسمي قشعريرة، داخلتْنِي فوضى عارمة في عقلي، وصارتْ إجاباتي تطيشُ دون تركيز.

أجبتها، كأني أُلقي محاضرة:

(إنّ ما ذهبتِ إليه أنَّهاَ «تفلة» بريئة ذلك ما ينكره العقل، وينفيه العيان، بل «تالبة « حاذقة. تعرف فصل الحجة من الحيلة، القصيد من الرجز، المخمس من الأسجاع، الخطب من الرسائل، والدليل من الشبهة، وفروق البحث والنثر، فأنّى لي بامتلاك قلبها، وهي في «مرهلة» جامعية، فكيف لا «تستتيع» امتلاك زمام أمرها، و........)

بدأتُ اللقاء بإتقان التمثيل في إظهار الفصاحة والبيان، ولكن فشلتُ في مقارعتها الحجة بالحجة. ثمّ إنّ تحاشي عيني نظراتها الثابتة في وجهي، أفقدتْني السيطرة على ضبطِ مخارج حروفي، فَسَبَرتْ حقيقة علّتي، عندما أشرقتْ أنوار حروف الطاء، تُنطق تاءً، والحاء هاءً تتماوج في النِّقاش.

قاطعتني بصوتٍ قوي مميز، وألقتْ إليَّ سؤالاً لا يخلو مِن استعلاء عنصري:

(مِن أيِّ قبيلة أنتَ... أنتَ يا «بيلّو»؟)

وقعتْ كلمة قبيلة على مَسْمَعي، وقع الرّحى. فشطرتْ جسدي شطرين، أحسستُ كما لو أنَّ آلة حادة تغوصُ في رأسي.

ليس ثمة شك أنّها اشتبهتْ في قبيلتي، فاختلطت عليها القبائل الأخرى، ورسمت صورة قاتمة عن قبيلتي، لا بُدَّ مِن إزالة الشُّبْهة.

اشتدَّ انتباه سلوى، فتَكَفلَتْ بالإجابة:

(ماما .... أرجوكِ بلاش السيِرة العنصرية دي!).

انتفضتْ أُمّها انتفاضة جنونية، كوَّرتْ يدها، ضربتْ بها الطاولة، فانسكب عصيرها مِن كأسِهَا المزخرفة، وصرختْ في وجهها:

(إنتِ تخرصي خاااالص، وإلاّ دققتُ عنقكِ.... فاهمه؟).

أطبقتْ حبيبتي شفتيها في صمتٍ وذهول، بلغتْ نفسي مِن الاهتياجِ والخوفِ، ما الله به عليم.

بكُلِّ فخرٍ واعتزاز، سمّيتُ لها قبيلتي.

كان ينبغي أنْ أتصوَّرَ أنَّ اسم «بيلّو» قد يرسل إشارة لها عن أرومتي.

كان ينبغي أنْ أتصوَّر أنَّها قد تكتشفُ لُكْنة حروفي.

كان ينبغي أن أعلم إنّ اختلافنا في الصورة مع ابنتها، لدليل لدعوة هذا اللقاء.

أوضحتْ لها وأنا في شدّة الألم:

(يؤسفني القولُ، بِأَنَّ الجهلاء يظنون بنا سوء الظنونِ، فَينْسبون لنا التخلف والقبيح، بما لا تستسيغُ الآذان سماعة، وتالله، لو أسعفنا الإعلام، لوسعنا الدُّنيا احتراماً، وملأنا الكون علماً).

أخرجتْ أضغانَ ضغائنها ... وتعاليها العرقي البغيض فتقول:

(أليس هؤلاء الأنذال، الّذين يتسولون المارة، والمصلين في المساجد، والخادمات في المنازل مِن أفرادِكم يا «بيلّو»؟).

من الحقّ أن نقول ما جَرَى على ألسنةِ العوام، ما مِنْ شخصٍ مجهولٌ مصدره، إلاّ كان إلى بني جلدتنا منسوباً.

ولا من أصحاب المهن الوضيعة والمشردين إلاّ كانوا إلى قبيلتنا متبوعاً، فسارت سُنّةٌ جارية علينا إلى الساعة.

وما يصدق حجتنا في ذلك، انتساب فَنانَة عظيمةٍ مِن إحدى القبائل الأفريقيةِ، ذاتُ صوتٍ طروبٍ، كصوتِ الكروانِ، التي غنّت لضباط سلاح المهندسين غنوة «يجوا عايدين» عندما شارك ضباطه في الحرب العالمية.

نسبوها إلى قبيلتنا وأصبح لقباً لا تُعرفُ بغيرها، رغم أنها من قبيلة أخرى.

فضلاً عن ذلك، إنكار السواد الأعظم من بني أُرومتنا أصل معدنهم، مخافةَ الحاق أنسابهم بهؤلاء الفئة المنتسبة إلى التسول، والمهن الوضيعة في المنازل،

رأيتُ أن أكون لقبيلتي سفيراً، ولبني أُرومتنا مدافعاً، فدافعتُ عن قبيلتي بشراسةٍ، أجبتُها بلهجةٍ صارمة:

(ألا تعلمين أنَّ التسوُّل يمس كرامة الوجوه ويترك كدوشاً وخدوشا؟ ألا ترينَ بشاشة وجوهنا، وصلاح سريرتنا؟ أما بلغكِ أَنَّ استخراجَ الماء مِن كهوف الجبال لكسب الرزق، أهون علينا مِن التسوُّل؟ فمَنْ رأيتموها تعمل في المنازل، فليست مِن بنات أُرومتنا. ولنفترض أَنَّها مِنَّا وفينا؛ ألا تدرسين طلابَكِ وطالباتِكِ قَوْلَ المعري:

النَّاسُ للنَّاسِ مِن بدوٍ وحاضرةٍ ●●● بعضُ لبعضٍ وإنْ لَمْ يشعرُوا خدمُ)

تجيبُ سلوى بصوت يَنِمُّ عن الأسف:

(ماما .. ماما لِمَ الدعوة إلى لقائه طالما الدعوة، إحراج وعنصرية؟).

لم تكترثْ أمُّهَا، تواصل في إِهانتي، وإساءتها تمزق دواخلي تمزيقاً شديداً:

(مِن نكدِ الدُّنْيا، أَنْ يُحبَّ عبدٌ قبلي، الكريمة حسباً، والشريفة نسباً).

ولكن.....

إذا بلغتْ الذلةُ منتهاها، فإنَّ العزّةَ ستداهمُك على حين فجأة، داهمتْني فرحة مباغتة، حين خصتني سلوى بدمعة صادقة مِن مقلتيها، فكانت نقطة البداية لانفجار عاطفة الحُبّ الملتهب. فلم أرَ بعد ذلك إلا العجب...

اكتشفتُ أن حبيبتي عنيدة في التخلّي عن مبادئها كذيلِ الكلب في الاستقامة..

لكن فرحتي ماتت في مهدها، فلم أتمالكْ نفسي مِن الإهانة بكلمة «عبد» فتجلدتُ واصطبرتُ، ولكن دموعي كانت أقوى فذرفتها، ما كنتُ يوماً للدموع الغالية ذارفاً.

مسحتُ دموعي بكُمّ قميصي، فقد كانتْ الإهانة مؤلمة.

وأمام ناظر أمها، ألقتْ إليَّ سلوى منديلاً عندما أحسَّتْ بحاجتي إلى البكاء.

قلتُ بصوتٍ، كحشرجةِ المحتضرِ:

(لقد تجاوزتِ حدود اللياقة، ينبغي ألاّ تُحَقرين أحداً، ولكن جدير بأنْ تبتليه).

واحر قلباه! ظننتُ أنَّ دموعي التي ذرفتُها، كافية لإطفاء لهيب غضبها، يبدو أنّها تريدُ أنْ أنتحبَ دماً حتَّى تخمد ثورة بركانها.

تواصل في الإهانة:

(لقد اشتهرتُم بالدجل والشعوذة، وبهما توغلتَ إلى العُلاَ، وصعدتَ إلى فروع الشرف؛ فامتلكتَ قلبها. وبالله لولا براءتها وسذاجتها، لما أعارتْكَ نظرة!)

نظرتُ في الأمرِ مستفهماً، خَلُصْتُ إلى أنَّها مِن ضعافِ النفوس، فتوهمتْ أنّي أحببتُ كريمتها بالدجل، والسحر الأسود.

وجدتُ هذا الاتهام، أَشدُّ فتكاً مِن سابقِهِ، فأجبتُها بكلماتٍ أذابت قلب ابنتُها:

(سامحكِ الله، لقد التبسَ عليكِ الأمر على غير بيان، فأظهري ما عندكِ مِن حجة، فقلوبنا طاهرة، تأنسُ للعفو عند الظلم، وتحتضنُ التسامح عند المقدرة ولا يعرف الدجل في حياتنا سبيلاً، وإنّي لأدعو الله لكِ بالمغفرةِ).

خففتْ مِن وطأة لهجتها قليلاً:

(تحدثني بما يتراءى لك، ولكن هذا ما وقر في القلوب).

كنتُ على وشك المغادرة، وليتني فعلت ذلك...إذنْ لسحقتُ قلبها، ولكن رأيتُ ألاّ ألين لهذا الضيم، لا بدَّ مِن كشفِ الغطاءِ؛ لتوضيح الحق، وإزهاق الباطل، فقد تجرعتُ كأس الإهانة مترعةً.

قلتُ طيشاً دون أنْ أُراعي حدودَ اللياقةِ والاحترامِ:

(الآن اهتديتُ إلى أنَّ العَالِم من عُدت هفواته، وأُحصيت سقطاته، فقد كنتُ أحسبُ أنَّ لكِ معرفةً وعلماً بأُصولِ القبائلِ، فنحن صحيحو الأديم... أنقياء العروض).

رَدِّي ألهبَ الأجواءَ شواظاً ولهيباً، خرجتْ هي مِن طورها مرَّة أخرى بعدما هدأتْ.

تقولُ كَمَنْ يتلذذُ بقتلِ عدوهِ في لطف:

(إنَّ مثلكم مستنقعٌ كَدِرٌ، فما أبعدَكَ مِنْ مقامها!)

أجبتُها بنفاد صبر:

(نبشركم بأنّ التعتيم الإعلامي المضروب حولنا، أوشك أن يضيء بعلم جيلنا، فنحن قادمون، لخلع مساحيق النفاق الزائفة الّتي نشرتموها، وعندئذٍ، لا تجدون مَنْ يوقف سيلنا الجارف نحو المجد، ولا مَنْ يحيد عن عزمنا نحو العلا!)

تجمَّع الفضوليون للاستمتاع بنقاشنا الحاد بعدما رفعتْ وتيرةَ صوتها.

ردّت والشرر يتطاير مِن عينيها، فقد بدأتْ تتلظى بنار اللقاء:

(إنّي دعوتُك هنا للابتعاد عنها، وإلاّ قسماً شكوتك إلى عمادة الطُلاّب).

ضربتْ الأرض بقدمها بشدّة، وصرختُ في ابنتها:

(إن مرافقة هؤلاء الجهلاء تُهمة، فإمّا تتبرئي مِن مرافقته فوراً، وإلاّ فسأحول بينكِ وبين هذه الجامعة.)

لَمْ احتملْ كلمةَ الجُهَلاءِ فارتجلتُ كلمات مدافعاً عن بني أُرومتنا:

(إنّ جيلنا يرمي بطرفه إلى الثريا، لا نطلبُ إلاّ الأمور العظام، لنا همّة تناطح النُجوم، وعزيمة تُشامخ الغيوم، عمّا قريب ستقف الأمم إجلالاً لنا، فاغرة فاهها تنظر إلينا بعين مِن الدّهشة بشموخنا نحو المجد).

طَرِبَتْ ابنتُها بكلماتي، لكن أُمَّهَا مِن ذهنية حديدية، ونفسٍ مُنْكَرة.

صرختْ في وجهي:

(يا «بيلّو» المقابلة انتهتْ).

ختمتْ حديثها بـ«بيلّو» وهي الّتي بدأتْهُ بـ« الكريم ابني»

نهضتُ وانحنيتُ أمامها احتراماً وتبجيلاً، وأجبتُها بأدبٍ جمّ:

(تشرفتُ حقاً بمقابلتكِ، وتقبلي ثنائي ودعائي).

ازدادتْ حَيْرَة ودهشة، وشيعتْنِي بنظرها حتّى غبت عنها.

●●●

في أولمبياد سيول ١٩٨٨م، انتزعوا الوسام الذهبي مِن العداء الكندي بن جونسون، بتهمة تعاطي المنشطات، فقال قولته الشهيرة:

«انتزعوا مِني الوسام، لكنهم لم ينتزعوا سرعتي»!

رأيتُ هذه الذكرى تشبهني، ففي الحرم الجامعي، انتزع العنصريون مِني حبيبتي بتهمة تعاطي الحُبّ بالدجل والشعوذة، ولكنهم لم ينتزعوا حبي.

وجه الشبه بين الحادثتين التعاطي في كليهما، يا عجباً ...متى أصبح الحُبّ تهمة!؟

رغم أنّي تجرعتُ كأسَ الذّلة مترعةً، إلاّ أنّه داخلني إحساس بالزهو والنجومية، فقد كنتُ عوداً، صعب الكسر...... عظيم العسر...... والنيلُ مِن قبيلتي منيعُ المطلبِ!

ومهما يكن مِن أمر، فإنَّ ما يُنسب إلينا، مِن قبح السيرةِ، وسوء السمعة، فأمرٌ لا يُرجى رَأْبُه، ولا يُواسى كَلْمُه.

فقد أصبحنا مُضْغَة للأفواه...... أعجوبة للناظر..... مثلاً للسامع....... حديثاً للغابرِ.....

ولو ارتجلَ ناكرو مَعْدِنَ قبيلتِنا، وأطالَ سادتنا وقوفهم في الشمس طويلاً، وفرَّقُوا بيننا وبين القبائل الأخرى، لارتحنا في الظلِ كثيراً.

لكن مَنْ يسمو إِلى العُلا، لا يسلمُ مِن نتانة التعالي العرقي، وجهله البغيض.

●●●

نُزهة حول عرين الأسد

(للسعادةِ أنياب. أرهفْ سمعَكَ أيُّها الرجل؛ لتسمعَ صدى صيحاتي في وجوه كُلّ مَنْ يحولَ بيني وبين تصدي للعنصرية، وإنْ كانوا ذوي القربى).

هكذا همستْ حبيبتي في مساءِ اليوم المُسمّى، مِن أيَّام الشتاء الباردة، والرياح تُداعبُ خُصلات شعرها الغجري. نفحتْني بنظرةٍ تنمُّ عن اعتذار، كأنّها تسترد لي جزءٍ مِن كرامتي التِي أهانتْها أمُّها.

تولتْني الدّهشة بهذا التهديد المُدوِّي، خامرَنِي إحساسٌ بفرحٍ عارم، بأنَّ حبّنا لا تشوبه شائبة، فإجلالها مسحَ أحزانِي فتلاشت ذلتي.

رُحتُ أنشأُ في سري:

يا وردتي الصبية، لقد أكسبك الفراقُ القسري، إصراراً وتحدياً للقاء مهما كلفكِ مِن أمر، فما أعظم تمرَّدكِ في وجه العنصرية!

داخلني إحساسٌ جميلٌ، بأنَّ الحُبَّ حَكَمٌ عادلٌ، مِن قوانينه التأرجح بين الإذلال مرَّة، والعِزّة أخرى!

سألتُهَا:

(وَدِدتُ لو تهتكين الأسرار، وتكشفين الأستار، بما دار بينكِ وبين أُمّكِ؟)

اكفهرَّ وجهها:

(دعك مِن هذا الحديث الآن، فإنّي فراشة رقيقة، لا طاقة لي بتحمل أذى الآخرين).

(اندملتْ الجراحُ، لم أعدْ آبه لشيء بعدها، والضربات التي لا تقتل الرجل تقوِّيه، فقولِي بلا مواراة).

تقولُ بلغة شاعرية، مكسوةٍ سجعاً، وتتكأُ جُرحاً أخضرَ العودِ:

(تطلبُ عن سبيلك الحياد، وعن قلبك الابتعاد، فقبيلتك آكلو الأكباد).

انتهى اللقاء فنهضت واقفة:

(ستعرفُ أمّي أَنَّنَا التقينا، فلن أتحداها، ولكنها لَنْ تثنيني عن التصدّي للعنصرية).

أعزفُ وَتراً على سعادتها:

(هذه السَّعادة، لا احتملُ غيابها)

تعزفُ نغمةً أجمل جمعت فيها خصال البلاغة:

(اطمئن، إِنَّها تجدُ الأنسَ بقربِكَ، والسُكون إِليكَ، وبرد الرّاحة في حديثِكَ).

أولتّنِي ظهرَها ثُمَّ عادتْ:

(أتدري أَنَّ أعظمَ صفة أعجبتني فيك، أَنَّك لا تكذب قطّ. أجبتَ أمّي بلا موارية، بِأَنَّكَ لم تستطع نسياني).

●●●

ولكن... حيل بيننا مرَّة أخرى فطالَ الفراق، وتملّكني الحزن لفراقها، ظننتُ أَنّها تنكّرتْ لي، وأذعنت لإرادة أمّها، فهجرتني، لا تعبأُ بسعادتي أو شقائي.

إنّي لفراقها اليوم، أبكي أكثر ممّا كنتُ أسعد عند لقائها. فلا فائدة تُرْجَى لتلاقينا، ونالَ منّي اليأس ما نال.

لكنّـي كنـتُ مخطئًـا في ظنونـي، فقـد اشـتدَّ بهـا الشـوق نـاراً وجـوى، فأعلنـتْ التغريـد خـارج السـرب، فتصـدَّتْ أمُّهـا بعنـف لثورتِهَـا واعترضـتْ سبيلَ قلبهـا العاشـق. أطاعـت أمّهـا حينـاً، وتفانـتْ في الطّاعـة، ولكـن انفجـرتْ عواطفهـا، ففـاض بهـا شـعورٌ عـارمٌ يدعوهـا للتمـرُّد، فكسـرتْ قيـودَ الحبـس، لتطبيـبِ قلبهـا المكلـوم، فهربـتْ مـرَّة أُخـرى إلـيَّ لتلاقينـي سِـرّاً.

●●●

إنّ الأُمَّ تـدركُ حجـمَ المأسـاةِ وتداريهـا، ومـا كانـتْ هـذه المأسـاة، أَنْ تفوتَ علـى أسـتاذة كرَّسـتْ جهدهـا في دراسـةِ الأدبِ، وتحليـل قصـص الحُـبِّ والغـرامِ، وتعجـزُ عَـنْ إيجـادِ حَـل لصـرفِ قلـب ابنتهـا عَمَّـا هـي عليـه مِـن لوعـةِ الحُـبِّ، وشـوق اللقـاءِ.

تـدركُ أمهـا خطـورة قلـب ابنتهـا مِـن الانطـلاق خـارج أسـوار البيـت وقِيَـم القبيلـة، فلـنْ تتـركَ ابنتَهَـا تعشـقُ فتـى يئـنُّ تحـت وطـأة الصُخـور والحجـر، ويمتهـنُ قطـعَ الشـجَرِ، وحَلَـبَ البقـرِ، فمـاذا هـي فاعلـة؟

قالتْ حبيبتي إنَّ أمَّهـا حاورتْهَـا محاورةَ الصديقـةِ؛ فـكان هذا النِّقاش:

قالتْ أمُّهَا:

«يـا بنيتـيّ، قَـدّري حياتـكِ علـى مقـدار حقيقـة أسـرتك، وشـرفها، وحسـبها، لا علـى مقـدار هـذا الفتـى المنبت، فـإنَّ هـذه العلاَقـة، أولهـا لعـبٌ، وآخرهـا عطـبٌ، فالزَمِـي مَخْدَعَـكِ فإنَّـه أدوم للسـرورِ، وأسـلم للصـدورِ»

تجيبُها سلوى:

«يـا أمـاه! لقـد جالسـتُ أخلاطَـاً مـن الطُـلاّب وبلوتُهـم، فوجـدتُ هـذا الفتـى أحسـنهم ذكـراً، فَسِـمَات حُسـن الخُلُـق بَيِّنَـة فيـه، فليـس مِنـه مخافـةٌ»

الأم:

«يا بُنَيَّتي، مرافقتُك لهذا الفتى تنكسُ عنَّا الأبصارَ، وهذا أمرٌ قد يشيننا كأنَّنَا تسربلنا برداء المذّلة، فالبعد منه حِصْنٌ مِن الندامةِ، وأَمْنٌ مِن الملامةِ»

سلوى:

«أَلَمْ يضمن الرّسولُ (ﷺ) بيتاً في أعلى الجنة، لمن حَسُنَ خلقُهُ، وإنْ كان ممّنْ في بشرته سواد؟ يا أماه لم أرَ منه ما يُنَفِّرُ، فإنَّ صداقته رابحة، ثُمَّ إنَّني لستُ طفلة تنقادُ مِن أنفها»

●●●

وفي ذات مساء ذهبتُ إلى مكان لقاءنا الدائم، حيثُ مسرح آمالنا، وأحلامنا، وآثارها اللطيفة، فسكبتُ فيها مِن العبرات ما شاء الشوق أَنْ أسكبَ. وإذ أنا بتلك الحالة، طرقَ مَسْمَعِي صوتٌ شجي يلقي عليَّ السلام، فرفعتُ رأسي؛ فإذا بصديقتها فاطمة تقول:

(تَودُّ مقابلتك غداً في السادِسَة مساءً لأمرٍ لا يخلو مِن مفاجأة).

(أحقاً ما تقولين؟)

(نعم! رأيتُ ذلك في نبرات صوتها، كأنَّها تتحدَّى نفسها).

فشكرتُ لها صنيعها. غابتْ عن ناظري فلا أرى سلوى إلاّ أطهر نساء الدُّنْيا حفظاً للمودة، ثُمَّ داخَلَني شعورٌ بالطمأنينة رغم ما أعانيه مِن لَوْعَة الفراق، إذْ أنّ كُلاًّ منّا يشعرُ بحاجته إلى نصفه الآخر. وما كان هذا الفراق القسري، إلاَّ غيمةَ اعترضتْ وجه الشمس أيَّاماً، ثُمَّ ما لبثتْ أَنْ اضمحلَّتْ. ولكن أملي تكدَّر عندما داخلتْني صورةُ أمِّها، والشررُ يتطايرُ مِن عينيها.

●●●

ذهبتُ، فوجدتُهَا جالسة في انتظاري، كانتْ ترتدي عباءة قطرية مطرّزة بألوانٍ زاهية، يا لها مِن جمال! فتملكتْني التجلةُ والتقدير لقدسية وفائها، وكان منظرها وهي مفترشة العُشب الأخضر تنتظرُني، أصدقُ لوحةٍ رسمتْها الطبيعة آنذاك في الإخلاص لمتانة علاقاتنا. انحنيتُ إجلالاً لمصافحتِهَا، فقامتْ مُنْثَنِية كالغُصْنِ النضيرِ تنوءُ بثقلِ ردفيها تَكَرُّماً لمصافحتي، ولولا المارةُ والفضوليون؛ لعانقتُها.

تسألني:

(كيف أنتَ؟)

أجيبُ بضراوةِ الدموعِ:

(كاليتيم اللطيم الّذي فقَدَ والديه قبل الفِطام، كابدتُ مِن فراقِكِ آلاماً وأنيناً، وتحملتُ مِمَّا لا يحتملُه بشر)

تبتسمُ فأضيفُ لها:

(كنتُ أُعالج نفسي معالجة مجنونٍ مسّه حبكِ، فقد كنتِ كوكبي المنير، وبدر سمائي، واليوم لا ناصر ليَ ولا مُعِين).

تبتسمُ، فيطمئنَّ قلبي:

(سأملأُ فؤادَكَ غبطةً وسرورا).

أجيبُ مُؤَمِّنَاً على كلامها:

(وما كان اللّه ليسلبني سعادتي، ويسلبني إياكِ معاً).

نظرتْ إليَّ نِظْرَةً ذات معنى فقالت:

(سأرافقُ أمّي لقضاءِ إجازتنا الصيفية في شواطئ طرابزون بتركيا).

أحسستُ أَلَمَ الفِراقِ يسري فِي مفاصلي:

(هذهِ ثالث هزَّة أرضية تصيب معبدَ حُبِّنا، وسأشربُ مِن أقداحِ الفراقِ مُترعةً).

بعد صمتٍ رهيبٍ، وتردُد:

(أَلَمْ أقل لكَ يوماً، أنَّ الحُبَّ قد يُمْتَطى كالفرس الجوادِ؟)

رغم أَنَّه كان فرحي المؤجّل الّذِي ذهبَ بسوءِ ظنوني كُلَّ مذهبٍ، إلاّ أَنَّني أجبتُهَا ببرود:

(أجل، أذكرُ ذلك).

(بعدما اجتمعتْ فيك صفاتي الخَمْس، إذنْ أريدُ لك مرافقتي لزيارة تركيا، لتمتطي جواد الحُبِّ فِي السحابِ، لترى كيف تنام شواطئ تركيا، وكيف تصحو طبيعتها).

أُسقط فِي يدي، فأنكرتُ ذلك إنكاراً عظيماً، فأجبتُها بقسوة:

(لقد خُولِطت فِي عقلكِ، وما أخطأَ رأيكِ!، وما أعجزَ فكرتَكِ!، فلا أراه رأياً، ولا حَزْمَاً).

لطمتْ وجهها، وقالتْ بِنَبْرَةٍ عالية جدًا:

(أتهزأُ بِيَّ حقاً؟ ظننتُكَ ستُحَلّقُ فَرَحاً؛ فتلامسُ تلك النجمة بأهدابها).

أجبتُها بنفسِ النبْرَة:

(كيف يكون موقفي، إذا أبصرتْني أُمُّكِ أتسكعُ فِي شوارع تركيا؟)

بَيْدَ أَنِّي سرعان ما اعتذرتُ لها:

(أرجو أنْ تغفري لي زلتي، ولكن وددتُ لو تنتظرين شهوراً، حتَّى تتجلي هذه المعركة مع أُمِّك).

يكاد يخلو مجلسنا مِن مفاجآتٍ، نظرتُ إليها فرأيتُهَا تنبش في العُشب بقلمٍ كان في يدها.

تنهدتْ في ضيقٍ:

(لا بأس.. قد أخطأتُ تقديراتِي ليس أكثر).

نهضتْ مغادِرة، فنهضتُ وراءَها، نظرت إليّ نَظْرَة لم أعرفْ معناها فتسألني:

(لعلَّكَ سمعتَ بالمثلِ القائل: «**رضينا بالهمّ، والهمّ ما راضي بِنا**»؟)

أجبتُ بإشارة مِن رأسي: بنعم

تقولُ وكأنّها تطلق سهام حادة في محجتي:

(هذا المثل، ضُرب لك وحدك... أتفهم؟ وحدك لا يشاركك فيه أحد. أتفهم؟)

ما أمرَّ ما سمعته! ابتلعتُ مرارةَ رَدّها كطعم الحنظل وابتسمتُ:

(كيف تقولين ذلك وقد قيل: «**مَنْ يدخلْ إلى الأسد في عرينه فيفتك به، فليس الذنب ذنب الأسد**»).

وافترقنا، فصار كلٌّ منّا إلى سبيله، رحتُ غرباً وراحتْ شرقاً.

●●●

رحلة إلى عرين الأسد

لحظة تملّكني الخوف من مقابلة حسناء كُلية الهندسة، لاتخذها غريمة لسلوى، كتب صديقي في الخطّة:

«...... إذا اختلطتْ عليك الأمورُ، فاشغل بأعظمِها خطر، فمَنْ لم يركبْ المخاطر فليس بعاشقٍ، ومَنْ خافَ اللقاء لا يجني ثمرة العشق، فالهروب من الحب هو موْتُهُ، ومواجهته حياتُهُ»

أقبلتُ على نفسي ألُومها، كيف أني جعلتُ «سلواي» تغيب عن ناظري مكسورةَ الخاطر، ومهيضة الجناح.

بداً لي مثلُها الّذِي قالتّه أنّه ضُرب لي وحدي، ولا يشاركني فيه أحد: «**رضينا بالهمّ، والهمّ ما راضي بِنا**» يَصُكُّ أُذُنيّ صَكاً.

ثُمَّ تراءى لِي كيفَ أَنّي أوقعتُ عبارة –ما أشدّ تعنتك– في مسمعها، فأخمدتْ فَوْرَةَ حماسها، وفطرتْ قلبها.

وخزني ألمٌ شديدٌ. فأحسستُ بحماسٍ عارم، بِأَنْ لن يهدأ لي بالٌ، ولن ينامُ لي جفنٌ حتَّى أطيِّب خاطرها.

شعرت بقوةٍ عارمة تدبّ في عضلاتي وتتحدّى الكون كله، ولو اعترتْنِي المنايا، لواجهتها غير هيَّاب. كُتِبَ عَلَيَّ أنْ أشقى بحبِّ هذه الصبية، فلا شيء أحبّ إِليَّ بعد اليوم، إلاّ الشقاء.

وبلغ منّي الحماس منتهاه، وتمنيتُ لو أعودُ إليها الآن، وأقولُ: لو أشرتِ إِليَّ بصعود الجبال حَبْواً، لما ترددْتُ لحظةً.

رغم أَنِّي لا أزالُ أتجرعُ حديثَ أُمّها كطعم الحنظل: «وتالله لولا براءتها، لما أعارتْكَ نظرة»، إلاّ أَنَّها أصدقتْ القول.

●●●

وفي صباح اليوم التالي، توجهتُ إلى كُلّيّتها، وكنتُ أعلمُ بأوقاتِ حضورِهَا وانصرافهَا، فما إنْ رأتْنِي قادِماً، حتى أولتْنِي ظهرها وتجاهلتْنِي تعمُّداً.

لم ألقِ لصدِّها بالاً، تسمّرتُ أمامها وأشاحتْ بوجهها بعيداً، وتظاهرتْ باللامبالاة.

تذللتُ إليها رغماً عن أَنْفِي أطلب صكًا ومغفرة، فقد قيل: «**التذلل في وجه الحَبِيبة شرفٌ، وإنْ كنتَ مظلومًا فَقُلْ أنا ظالمٌ**»

أقرُّ لها:

(لقد تَبَيَّنَ الصبحُ لذي عينين، نظرتُ فيما أشرتِ؛ فوقع كلامُكِ، وحَسُنَ موقعُه في عقلي).

ابتعدتْ مِنّي نافرة، وتوجَّهتْ إلى إحدى الحجرات الدراسية الخالية. ظللتُ حائراً لا أعلم ما أنا فاعلٌ، توجَّهتُ على أثرها فجلستُ بجانبها، وليكنْ ما يكونُ.

توبخني توبيخاً شديدًا:

(كنتَ مصدر ثقتي، وموضع أُنسي فجئتُ أستشيرُكَ، بَيْدَ أَنَّك جازيتني بالإهانة).

اعتذر بصوتٍ ينمُّ عنِ الأسَف:

(أرى ذِلَّتِي كُفراً، وسامحيني كرماً، ولا تخيبي رجائي، فقد زال الارتياب)

أوشكتْ دموعها أنْ تنهمرَ قهراً:

(لقد أفرغتُ مجهودي في أمر سفرك، وبذلتُ أقصى عنايتي لك، ولكنك بخستَنِي في القيمة).

أربَكَهَا الحرمانُ مِن لقائنا إرباكاً صعباً.

وبدوري أوشكتُ أَنْ أرتمي تحت قدميها لتعفوَ عنّي:

(ما زال قلبي مطمئناً لعفوكِ، فالرضا منكِ موجود، والعفو منكِ مأمول)

داخلتني مقتطفات من خطّة صديقي عندما أشار إلى حديث الإمام علي (رضي اللّه عنه) عن خصال النساء:

«.... عليك أن تعيد الكرة تلو الكرة، ولا تحجم، فإنَّ النساءَ تَشَبَّهْنَ بثلاث خصال مِن اليهودِ:

«يتمنعنَ وهنَّ راغبات

يتظلمنَ وهنَّ ظالمات

يحلفنَ وهنَّ كاذبات»

بهذه الأبيات، علمت ما يجول بخاطرها فنظرتُ إِليها نِظْرَةَ معذّب:

(أما علمتي أنّ هفوة المُحبين باطلة، يا لكِ من جاهلة!).

قلتُ ذلك مبتسماً، فابتسمتْ وشملتني بعطفها، وعظيم مودتها، فتلك دلائل ناطقة، وتباشير صادقة بانفراج الأزمة.

تُبشرني:

(رأيتُكَ مَن تَطيبُ لي صُحبته. فلذلك دعوتُكَ لتشاركني في تأليفِ مجموعتي الشّعِرية، «**ضربات الحُبّ النّاعِمَة**» فتَهَيَّأْ للأمرِ).

وأخيراً تنفستُ الصّعداء، فزَوَّدَتْنِي باسم وكالة السفر والسياحة الّتي تقوم باستخراج الزيارات السياحية.

سألتْنِي بصراحةٍ متناهية:

(أتستطيع تحمّل نفقات السفر؟).

بَدَا لها بحكمِ ثراء أُسرتها الواسع، أنَّ نفقاتِ السفرِ ليست مبلغًا ذا بال، ولكن أجبتُها بصراحتها التي تحبها:

(نعم، ولكن لا بُدَّ مِن بيع رأساً أو رأسين مِن ماشيتي)

قالتْ بأسى:

(أشكرُ لكَ صراحتَكَ، لا أجاريك في بيع ماشيتك. سأتكفل بنفقاتِ سفرك، ولكن أخشى................).

أمسكت ما يجول بخاطرها، ثمّ باحت به:

(أخشى.... أنْ يفقدَ الحب بيننا سيماءه، متى دخل المال على الحب، أضر ذلك بعلاقاتنا، ولأن ينقص مقدار الحب مع الفقر، لأحبّ إلينا من أن يزيد مع الغنى، لتمكث المودة في صدورنا)

إِنَّ حبيبتي جَذَّابة العبارة حقًّا، تُضيف:

(تكفّل بمصاريف إجازتك بنفسك لو تستطيع رغم أني لا أجاريك في بيع ماشيتك)

أجبتُها بحماس:

(سأتدبّرُ الأمرَ، أملكُ قطيعاً كبيراً مِن الأبقار، ثِقِي فيما أقول).

هبّتْ واقفة ووجهها يطفحُ بِشْرَاً:

(هذا جميل، فليكنْ لقاؤنا في شواطئ طرابزون إذن. لتناظرِني الشّعِر، تُطَارحُني النثرَ، وتجاريني في ضروبِ الكلام، لشدَّ مَا أَحْزَنَنِي عندما لم أَجِدْ مَنْ يناظرنِي في إجازتي السابقة).

أدخلتْ يدها في حقيبتها، فأيقنتُ أنها ستخرج أمراً يثير الدهشة، وصدق حدسي، فقد أخرجتْ مظروفاً وألقتْه في يديّ:

(قد يلزمُك هذا، ولكنّه دين واجب السداد متى ما تبيع ماشيتك، حتَّى لا يكون بيننا حاجزٌ).

تفحصتُ المظروف، كان بداخلة خمس وريقات نقدية مِن فئة المائة دولار، لم يأخذني العجب، فقد تصدّقتْ يوماً أمامِي، على متسولة بخمسين دولار عندما لَمْ تجدْ في حقيبتها عُمْلَة سودانية.

كأنّ كُلُّ ورقة ممهورة بقبلة، وممزوجة بعبق روحها، واكتشفتُ أَنَّها لا تتوانى في حبها ليٍ، تسخو بأغلى ما تملك، وخير السخاء ما وافقَ الحُبَّ.

●●●

لـن أبيـعَ نفسـي بفئـاتٍ مِـن نقـود، فالمـال فليـس لـي فيـه حاجـة، أَمَّـا الحُـبُّ؛ فَنَعَـم، أعـدتُ الفئـات النقديـة في مظروفهـا، لأعيدَهـا هـي نفسـها بعـد عودتنـا.

سـأغدقُ عليها سـعادةً هنيئـة لا يغدقهـا الأغنيـاء، فالحُـبّ ليـس مـادة للمسـاومةِ، سـأذهبُ إِلـى تركيـا، كمـا تريـد حبيبتـي، وكمـا يريـدُ القـدر، ومِـن حُـرّ مالـي، وليـس بديـنٍ واجـب السـداد.

كتبـتُ لأبِـي أنْ يوافينـي بمـالٍ علـى جنـاح السـرعة، لأمـر لا يحتمـلُ التأخيـرَ، ومـا كان ليـردّ لـي طلبـاً، ولا يعـرفُ سـعادة لـه غيـر تلبيـة طلباتـي.

باعـوا مـا شـاء أنْ يبيعـوا وزودونـي بالمـال الّـذي طلبتُـه لقضـاء حوائجـي، وفي زهـاء سـبعة أيام، تمكنَّـتُ مِـن اسـتكمال كافـة الإجـراءات، رغـم أنَّ السـفر كان مقيداً آنذاك للطلاّب، لاشـتعال جذوة الجهاد في جنوب الوطن، وتسـابق الطُلاّب للاستشـهاد.

التقيتُ مع سلوى، وزوَّدتُهـا سِـرّاً بكُلِّ الخطوات الّتي اتخذتهـا، وكأنّنـا نقـوم بعمـل اسـتخباراتي. اتفقنـا أنْ تسـبقني بالسـفر بيومين لتجنـب الارتيـاب والحـذر، وبعدهـا سـألحقُ بهـا.

قالت:

(توجّـه إلـى هـذا الفنـدق بمدينـة طرابـزون، وهـو غيـر بعيـد مـن فيـلا أُمّـي التـي ابتاعتهـا مؤخـراً، وسـأزورك قريبـاً)

كنـتُ للسـمعِ مُرْهِفَـاً، وللفـم فاغِـراً، ومـا لـي عِلـمٌ بـأنَّ ما أسـمعه، أينتمي إلـى عالـم الحقيقـة، أو إلـى عالـم الحُلم؟

رأيتُ في شخصيتها إجلالاً وإعظاماً. فقلتُ لتطيب خاطرها:

(إني للسفر مشتاق، ولمناظرتكِ في الشّعِر توّاق).

(لا تهتك السر، ولا تكشف الستر، وأرجو ألا يعدونّك).

فكتمتُ سِرَّها، وطويتُه بين أضلعي، ولن أستشيرَ صديقي فقد يمنعني، فهذا التحدّي لي وحدي.

آه... أحسستُ أَنِّي سأُلقي بنفسي في أتونِ حرب طويلة الأمد مع أُمّها، لا أعلم خاتمتها، ولكن رغم ذلك إنّي ذاهب إِلى طرابزون.

لا أدري أي شيء دفعها يومذاك لتعود فتضيف بحزمٍ ليس بعده حزم:

(إياك.. ثمّ إياك، أَنْ تَتَجَوَّلَ راجلاً حول تلك المنطقة، أقولُ لك ذلك لأخذ الاحتياط لكُلِّ مصادفة).

●●●

في صباح اليوم الموعود، أعددتُ للسفرِ عِدّتَه، فحزمت حقيبة مشاعري، وجواز الحُبّ، فتمثلتْ لي التأشيرة «رحلة حب، لامتطاء السحاب، وإمساك الهوى بيديّ» وبدأ العد التنازلي لخوض مغامرة، محفوفة المخاطر، وممزوجة بالخوف، والمتعة، والزهو.

مغامرة ملأى بالخوف مِن مرافقة فتاة، تندفعُ نحو عواطفها المتأججة، بلا عقلٍ راجح، ولا نظرٍ ثاقب، قد تقودُني إِلى الندمِ، وعَجَباً لمن خالطه الخوف والعقاب، ولم يكف عنه.

مغامرة بمتعةِ لقاء قلوب الأحبة خارج حدود الوطن بلا قيود، في دولة تتزين بحرية العشق، فكأنّ الحُبَّ في أسوار الجامعة جريمة شرف للعنصريين!

ومغامرة بالزهو بإعجابها بعبقريتي الشّعرية، ومشاركتها في تأليف ديوانَها الشّعِري قد يحملُ اسمي مقترناً مع اسمها بمكانتها السامية.

وصلتُ إلى مطار الخرطوم الدولي، وأكملتُ إجراءاتي في ثوانٍ، وبلا أسئلة تجاوزتُ إجراءات التدقيق على الجواز، وأبواب الأمان قبل ركوب طائرة الخطوط الألمانية «لوفتهانزا».

حَطَّتِ الطّائرةُ في مطار القاهرة عصراً، وبعد ساعات حطَّتْ في مطار فرانكفورت، ثُمَّ أقلعتْ متوجهة إلى أنقرة، طرابزون

توجهتُ إلى بناية فخمة مُزيَّنة بأعمدة نورانية، ونوافذ زجاجية ضخمة وبلاط مِن رخام، وتوقفتُ عند الاستقبال لحجز غرفة، وما أَنْ تفحَّصَ موظف الاستقبال جوازي، إلاّ وتفاجأتُ أنَّ «سلواي» قد خلصت من حجز غرفة لي.

راح موظف الاستقبال يحدق في وجهي تحديقًا طويلاً أدخل في نفسي شكوكًا، وأخيرا قال وكأنه يعرف سلوى معرفةً وطيدة:

(Oh‹Mr. Abbakr, you have a booking for sixth nights, here is your key and your girlfriend left you a letter)

استلمتُ المفتاح والرسالة، الّتي تركتْها سلوى وهي تقولُ فيها:

«في انتظارِك للحُبّ، تعلّم أَنْ تعيشَ بلا أمل، فالحُبُّ أجمل بِطعمِ عدم اللقاء.

ما أعذب قُدسية ألم الانتظار! ....

في لهفة الانتظار، لا شمسَ قد تشرق!

في حجلي قيدٌ، يحيل بيني وبين اللقاء

إذا لم يكسر عِناد الحب قيدي، تَمتَّع بمناظر طرابزون بعيدًا ، وعُد مِنْ حيثُ قدِمتَ، وأسفي على الحُبّ المقَيَّد»

●●●

ورغم ما صاحبَ رسالتها مِن كَدَرٍ وتشاؤم، دلفتُ إِلى حجرتِي فَرِحَاً، وما إنْ أضاءتْ ألوانها الزّاهية، الّتي تشرحُ النفس، بأناقتها الفائقة وروعتها، حتَّى هتفتْ دواخلي غبطةً وسروراً.

تُوحِي الحجرةُ بالراحةِ والشاعريةِ، تتباهى بأطلالها على أفق ساحر، على البحر الأسود وشواطئه.

رميتُ نفسي على السرير، شعرتُ براحةٍ لم أشعرْ بها مِن قبل، كاستراحةِ محاربٍ ألقى سلاحه؛ ليستريحَ مِن وعثاءِ حربٍ طويلة.

تذكرتُ حياتي القاسِية، إذْ كنتُ يوماً أسوقُ ماشيتي، أجوبُ الفيافي والأحراش بحثاً عن المرعى، أنتعلُ حذاءً ممزقاً ومقطوع العقب، له صرير عند المشي.

أذرعُ قدميّ في أرضٍ جافة كحدِّ السيف، كم أدمتْ تلك الأرض قدميَّ على المسير.

وخِرْقَة بالية، وأطمار وسخة، أسبلُهمَا على نفسي، ورائحة جسدي النّتنة، تفوح فتفتك بصغار الطيور في أوكارِهَا.

تحملتُ كل ألم في حياة الرعي.... تحملتُ ألم الجوع وأهوال البرد... فكان يتفق أن يكون طعامي حليب البقر الطازج لمدة أسبوع دون أن أجد كسرة ..... واليوم أرتدي أفخم البدلات الرسمية، بديعة الشكل والهندام، وبرباط عنق كلاسيكية، وعطور نفاذة لا أعرف كنهها، أأشربها أم أسكبها على جسدي؟ في انتظار حسناء، أحبتّني في ذاتِي، قبل أنْ تعشق في وجهي محاسنه!

●●●

قضيتُ ليلتين وأنا إلى التطلُّع لقدومها ناظر، تولاني اليأسُ والقنوطُ، وانقبضَ قلبي حيثُ لا أثر لها حتى اليوم.

ولثلاثةِ أيام مضت، جلستُ في الشُرفة، أدمنتُ النظرَ أتصفح وجوه القادمين والرائحين

باهتمامٍ وشغف، كلما لاحتْ فتاةٌ قادمة؛ غاص قلبي. وخمدت أنفاسي.

فجأة لاحتْ فتاةٌ قادمة، تخطر كمشيتها، وبعد هُنيهة، سمعتُ طرقاً في بطينات قلبي، انتفضَ ما بداخلي فَرَحاً، فأنزلتُ المزلاج بِيَدٍ مرتعشة، وقلبٍ مضطرب، فبانتْ حبيبتي، كالكوكبِ الدُّري، بعينيها العسليتين، فتملكتني التجلة والتقدير لصدق وفائها، وصدق مشاعرها.

●●●

الوِشاح المُعطّر بالقُبل

ذراعاي تقدمان أحضاني، قلبي يُقَدَّم أشواقي، صدري يقدِّم روحي لمعانقتها، وأحاسيسي تحيط بها مِن كُلِّ جانب للترحيب بها.

ارتميتُ في حضنها، فتعانقنا كغصني شجرة نبتا في أرضٍ واحدة.

ألقتْ عليَّ نظرة هانئة، غمرتْني السَّعادة، ففرّت الكآبة، وأيّام الانتظار ولّت هاربة.

همست في أذنها:

(أين المهرب مني اليوم يا غاليتي؟، بل أين الإفلات؟)

بدتْ في ذلك اليوم بمظهر أنوثي مثير وهي ترتدي بنطالاً قصيراً للبحر ينتهي عند نصف ساقيها، وقميص حريري قصير الأكمام. وقد طوّقت عاتقها وكشحَيْها بوشاحٍ مزدان بفرو الأرنب، فغدتْ أكثر فتنة... أكثر من أي وقت مضى.

كانت أناملي الدافئة، تضغط بلطفٍ على ظهرها وتتحسس موضعًا عاريًا فيه، وسرعان ما دخلت في نوبة ضعفها وأصدرت الفائض إليّ.

بدأت عواطفها تحاور عواطفي بشغف:

(فعلتُ المستحيلَ لزيارتِك، فالحبُّ عنيد لا ينازعه شيء إلاّ صرعه)

التهبَت حواسي عندما وجدتْ أناملي موضعًا حارًا على جسدها فدخلتُ معها في نوبة الضعف.

غرزتُ أناملي على ظهرها كإبر التّخدير، كأنّي أغرزُ على كُلِّ عصبةٍ مِن جسمها،

أُجيبها:

(قلبي يُحدِّثني أنَّكِ ستأتين لتلتصقي بي، فطيفكِ كان يشاركني لحافي، ويضمّني في وسادتي هكذا).

التصقتُ بها فدسّتْ وجهها في صدري، وقالتْ بنشوة عاطفة الحُبّ الملتهب:

(لقد خفتُ عليكَ مِن الظُلمة، وخفتُ عليكَ مِن الوحشة، وخفتُ عليكَ مِن الظمأ، وخشيتُ عليكَ مِن رياح الشتاء القارصة). نزعتْ وشاحها النّاعم، وأمطرته بوابلٍ من القُبل، وطوّقت به عنقي.... تشمّمتُ أنفاسها وعطر قبلاتها بكل حاسة من جسمي حتى شهق قلبي وسكن اصطكاك أسناني.

أُداري أشواقي بعذاب:

(إذنْ ذَرينِي احتمي ببطينات قلبكِ الوهاج لتنقشع ظُلمتي، آه... وضميني لتهربَ وحشتي، ولا شيء يروي ظمئي اليوم سوى مدمعكِ الباكي).

تُروّضُ غرائزها بصعوبةٍ بالغة وتسألني:

(كيف كان منامكَ وحدك؟).

وبجنون أجيبُها:

(توسدتُ طيفكِ كوسادة معطرةٍ بشذى أنفاسكِ، وتلحفتُ بحرير شعركِ كغطاء مُعطر بالقُبل).

خبَّأتُ وجهي تحت صدرها وتظاهرتُ بالبكاء.

تقول بتهديدٍ ظاهر، وإغراء مُبَطَّن:

(أدخر بكاءك ليومِ المُنى، كأنَّك طفل لَمْ تحظَ بحنان الأمومة إلاّ قليلاً، سأغدقُ عليك مِن الحنان حتَّى الارتواء)

رأيتُ أنّ وعدها سيطول:

(أسكبُ دمعي بعدما عرفتُ دائي ودوائي، فالبكاء يوم المُنى ما أمرّهُ!، والبكاء فوق صدركِ اليوم ما أَلَذَّهُ!)

أطوّقُ بيدِي اليسرى جيدها، أغرسُ أصابعي اليمني في ضفائر شعرها. كأنّي أبحثُ عن جمالها الّذِي هرب فتقول:

(دعْ خيوط الأبنوس نائمة، لا تبعثرها فتوقظ نشوتها، فقد ادخرتُها لتدثرك بلحاف دافئ في الشّتاء، أمْ تريد أنْ تموتَ مُتَجَمِّداً؟).

أجبتُها بقلبٍ غافلٍ وجسدٍ مرتعش:

(يا وردتي الصّبية، ذَريني ألتحفُ بخيوطها، وأصطلي بوهجها البَرَّاق لاحترقُ، وإذا حلَّ الشتاءُ فَلْيَكُنْ البرد مُهْلِكِي).

أسحبُ يدي مِن خُصلات شعرِهَا، وأناملِي تسبحُ فوق ظهرها، كأنَّها تسبحُ على سنوات عمرها الرطيب.

تقولُ بكلامٍ لا تعرف معناه:

(دع النَّار كامنة، ولا تقدحها بثقابِ أناملِكَ؛ فتشعلُ فتيلها، لا أريد أنْ أموتَ واقفةً. ألا تُجِيدُ غير لغة العذابِ؟).

تنتفض لتحرر نفسَهَا فأمسكها:

(دعينا نحترقُ معاً... ونذوبُ معاً... كما يذوبُ الرصاص في النار، فليس في الحياة أجملُ مِن الاحتراقِ بنارِ العشق).

تحسّ بحرارة أنفاسي تلهبُ خَدَّهَا، وتقتربُ مِن شفتيهاِ، فتناشدني الرّأفةَ، أن أخلي سبيلها.

أطلقتُ سراحها.... ولكن، انفجرت الفُحولة بداخلي، فلا مردّ لها غير أنّ يهتز بنا السرير جوانبه.

●●●

تمكّن منّي الشَّيطان، فهوّن عليّ خلوتنا وزيَّن لي صوتها الموسيقي رغبة واشتهاء......فلم أشعر إلاّ وأنا أحملها كفراشةٍ مِن جناحيها، وألقيها على ظهرها فوق السرير لاستباحة أراضيها.

احتويتها كالقوقعة فغاصت في أعماق نوبة ضعفها، وهي تقول بصوتِ التسليم:

(لا تعتدي على الضعيفة .... لا تجهز على الجريحة...لا تُحطّم قلب الأسيرة)

قالتْ ذلك وهي مُغمضة العينين، مُمسكة بقميصي تشدّه بإحكام، وتُقبّل جيدي بشراهة كهِرة تلعق صغارها بنهم.

وتغرز أسنانها في بشرتي بلا رأفة ...كهِرة تأكل صغارها بلا رحمة، حتى يكاد يظنّ النّاظر إليها أنها غاصّة في غيبوبة الاشتهاء.

تضيف قائلة وهي لا تزداد إلاّ شدّة في غرزِ أسنانها في بشرتي:

(أقتلني أيّ قتلة شئت، لكن لا تستغل نوبة ضعفي فتحمّلني أسفًا شديداً، وهمّاً طويلاً، فدعَ الجوهرة ... مكنونة.... عذراء لمن يستحقها)

آه...ما أشدّ نبرة ضعفها واستسلامها!، وما أحزن صفتها وحالها! في الواقع كانتْ أوهن من بيت العنكبوت.

واحسرتاه! كنتُ أشدّ منها وهنًا، فقربتها إلى جسدي كموقع الزوجة من الزوج.....

وتحوّلت هي من موضعها، لا أدري كيف؟ وجدتها منكفئة فوق صدري وهي تدعوني أن أشعلها:

(أمهلني ثلاث دقائق فقط لأدهن جسدي بالطيب، وأهيئ لك نفسي ... فبئس نوبة ضعفي).

وعندما دلفتْ إلى الحمام وقفلتْ راجعة، كنتُ قد تمكنتُ من استعادة إيماني، إذ قرعت أذني وصية أبي قبل ذهابي إلى الجامعة:

(يا بُني، إنْ هممت بمعصية، فأتلُ: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ» فإنها حصنٌ لكَ من الندامة، وأمنٌ من الملامة)،

عادت واضطجعت بجانبي، كالهضبة العالية، مجنونة العقل، وهي تنظر إلى عضلات صدري مصعوقة:

(هيت لك، خُذني بالعنف الذي تريده... فلن أضنّ عليك بما تشتهي.... يا للّعنة...!)

وافرحتاه.......!!! ولكن.... كنتُ قد تلوتُ الآية الكريمة خمس مرات، فأحسستُ أن صدري قد أنقبض، وأنفاسي قد خمدت، وفجأة سكنت رغبتي، أجبتها ممتنعًا: (لن أدنّس سيرتكِ العطرة، وتاللّه ما ترك المرء شيئًا للّه، إلا عوضه اللّه خيرا منه).

لم أدرِ أنّي كنتُ أحمل صدرًا سليمًا لم يغويه مفاتنها، وقلبًا رؤوفًا لم يفسده ضعفها، أحسستُ أن عاطفتي الجامحة، تميل بشدّة إلى ضُعفها وانكسارها أكثر منْ ميلها إلى رغبتي واشتهائي، فابتعدتُ عنها بمعجزة الآية الكريمة.

كان بداخلي، نفس مطمئنة، فانتصرتْ على نفسي الأمارة بالسوء رغم اشتهائي!

●●●

الجمل المشوي في التنور

لفترة طويلة مضت، ظلت مستلقية على ظهرها متضعضعة.... متهالكة...... وذاهلة لا تفهم ما يجري حولها ولا تبين.

كان تفاصيل جسدها السماوي، أشهى من الجمل المشوي في التنور.

ويا لروعة شعرها المُضفر على شكل إكليل.

يا لروعة انعكاس ضياء الغرفة فوق بشرتها البيضاء! تراءى لي حينها، أن ضياء وجهها كأنه شقة قمر فوق غصن زيتونة.

وتنعم بفم جميل، تُزيِّنه شفة حمراء قانية كلون الكبد... وأسنان نضيدة حادة قاطعة كسكينٍ مسنون لشدّ ما ألمتني بها، وصدر نافر لطيف الملمس يشع سحراً ونُورا.

لم أرَ أجود منها عودًا، ولا أرقّ منها عاطفة، لم أجد لعودها أصلاً في الحُور الحِسان.... ولا لعاطفتها أثرًا في الطالبات أجمعهنّ.

وبعد هُنيهة أفاقتْ من سباتها العميق الّذِي أغرقها فيها ملامسة جسدها الحار.

جلستْ برهةً فدسّت رأسها بين ركبتيها، والهواء يداعب ضفائرها،

استعادتْ صحوتها ورباطة جأشها. ثمّ راحتْ تذرع الحجرة بخطواتها وتدور..وتدور لا تعرف الثبات.

هالتها قُوتي الجسمانية، فأيقنتْ أن بوسعي نسف أربع نسوة دفعةً واحدة، ولولا قُوَتي البدنية التي جاءتْ مِن حياتِي الريفية، وصلابة أرضية الحُجْرَةِ، لغاصت رجلاي داخل الأرض، بسبب ثقل حملها.

●●●

اهتـدتْ أخيـرًا أن تتوقـفَ أمـام مـرآة خزانـة الملابـس، تنهـدتْ تنهيـدة عميقـة وهـي تقـول:

(أتركنـي قليلاً لإعادة تصفيف شعري وهيئتي لو سمحت)

نزلـتُ إلـى بهـو الفنـدق، وبعـد هُنيهـة قفلـتُ راجعًـا، فجلسـتُ بعيـدًا منهـا والصمـت يخيّـم بيننـا، فقـد اكتشـفنا أننـا متشـاكلان ـِفي الشـهوة نلتقـي ـِفي نقطـة الغشـية، ومتطابقـان ـِفي الرغبـة نلتقـي ـِفي نقطـة الاشـتعال.

كانت أحزن ما تكون، وقفت فوقها وقبلتُ رأسها:

(ما هذا الحزن المرسوم على وجهك يا حلوتي الصغيرة؟)

(أنا .... خجلة منك)

كان الحُبّ بيننا أقوى دائماً من كل شيء فسألتها:

(خجلـة؟ يـا لـه مـن اتهـام باطـل لنفسـكِ الجميلـة!، أمـن اكتشـاـِفي لنوبـة ضعفـك، أم لغـرزِك أسـنانك ـِفي جيـدي؟ فكلاهمـا صِفتـان جميلتـان لـكِ).

أسبلت طرحتها فوق وجهها فأجابت:

(بـل خجِلـة بمـا نـدّ منّـي مـن هسـتيريا وغشـية، اكتشـفتُ تـوًا أنّـي بطلـة روايتـي «**متلازمـات السَّـعادة.... ـِفي قلـوب حامـلات الشِّـهادة**» وكنـتُ أقـوم بتنفيـذ أدوارهـا دورًا .... دورا، فـكل مـا ذكرتـه ـِفي الروايـة، أن الفتـاة التـي لـم تتحصـل علـى القـدر الـكاـِفي مـن الحريـة مـن أسـرتها للتعبيـر عـن مشـاعرها إبـان ثـورة المراهقـة، سـتنطلق خلـف عواطفهـا الواهنـة بـلا عقـل، وسـتفشـل

حتمًا في ضبطها مع أول رجل، ستدخل في حالة هستيريا وغشية بمجرد ملامسة مفاتنها، وتصحو وهي فاقدة عذريتها).

أحسّت بدوار، فأسقطت رأسها على حافة السرير:

(يبدو أن ذلك حدث معي الآن تمامًا، وكنت سأفقد عذريتي لولا أنك رجل شهمُ ونبيل، لك نفسًا رائعة، يا اللّه الكريم!! ... كنت لن تراني بعد اليوم أبدًا .... أبدًا ... من العار والدناءة).

كانت أوهن من أي وقتٍ مضى:

(يا إلهي...! لو علم أبي، لقتلك قتل العقارب، ولو علمت أمي، لدفعتني أتجرع السُّمّ المُجهز، لا أدري لماذا ارتكبت هذا الشطط؟).

أمسكتُ براحتها أقبّلها بلطف وأواسيها:

(يا عزيزتي، كان بوسعي أن أروح معكِ في مجاعة شهوانية إلى درجة الإشباع، ولكن ضميري أنبني أن أدنس روحكِ الطيبة، وأُلوث سمعتك العطرة. آه... أنت امرأة نقية...، طاهرة...عفيفة... لم تمسها يد).

أجهشت بالبكاء من كلماتي....

أجل بكت كما لم تبكِ من قبل، أجابت بنفسٍ واثقة:

(لكنك فوق طهري وعفتي، إنك تستحق من هي أعظم مني، فصفات الفضيلة طبعٌ فيك، ومركّبةٌ في جَوْهرِك، أما أنا بي نقص من هذه الصفات... آه...! فكيف تقاوم أنت رغبتك لصيانة عرضي، وأنا أدعوك لهتكها؟، يا إلهي...! ما كنت أعلم يومًا أني امرأة ساقطة!).

بدت إنها في أشدّ الألم، فأجبتها لرفع معنوياتها:

(يا عزيزتي، ما خلا رجُلٌ وامرأةٌ إلا دخل الشيطان بينهما، وما جرى بيننا، نزوة شيطانية سقط فيها خلق كثير).

كان الأمر مذهلاً بحق. ولكن كلماتي أعادت إليها بعض الاطمئنان.

نظرت إليّ نظرة مطمئنة، فرحت أمازحها:

(إنكِ لم ترتقِ إلى مصافِ الفهم يا جاهلتي الجميلة! فكيف تُأليفين رواية ولا تدرين أنك بطلتها؟ ماذا اكتشفتِ فيها أيضًا؟)

عادتْ قليلاً إلى حالتها الطبيعية وهي تقول:

(اكتشفت إن قوة الملاحظة للمرأة الحاذقة، تَكْمُنُ في قُوَّةِ الرّجلِ وبأسه، وليس في جماله ووسامته، هكذا وصفت بطل الرواية، وتوافق ذلك تمامًا مع شخصك).

انهارت قواي من ثقل تلميحها:

(صدقتِ، لأنَّه سيكوي بها أُنوثتها عندما يتزوَّجها، دعيني أسألك ماذا اكتشفت في شخصي منذ تعارفنا؟ هيّا أفصحي).

كانت نظراتها الثابتة في وجهي تعبر عن إعجاب بالغ بشخصي، كانت تسترسل في الحديث بصراحتها دون خجل:

(لم يخدعني شعوري منذ أول وهلة رأيتك فيها إنك.... فحلٌ جميل تعيش في مجاعة شهوانية، هكذا قدرت، أما اليوم، اكتشفت أنك قوي

البنيـة، طاغـي الرجولـة فخشـيت أن تنفجـر بداخلـك وتعتـدِي علـيّ، وهـذا مـا أربكنـي بشـدّة (فـأدخلنـي في نوبـة ضعفـي).

فيا له من إطراء بليغ! ظفر قلبي بالسعادة فقلت:

(وأَيّمُ الحـقّ، زوّدَتْنِـي الطبيعـة بالقـوةِ، فميـاه الأمطـار مشـربنا... الألبان الطازجـة مِـن ضـروع الأبقـار والمطايـا غذاءنـا.... أليـاف الأشـجار والثّمـار طعامنـا... ودواء أجسـادنا كُلّ مـا هـو مـرٌّ كطعـم العلقم، وآخر الحلولِ لشـفائنا الكـيّ بالنّـار).

أضفت منتشيًا:

(يـا جميلتـي الصغيـرة أنـتِ شـهيتي رغـم إدراكـي أنـك لـن تكوني لـي أبدًا بنظـرة التعالي العرقي لأسـرتك الكريمة).

احتبس نفسها وشعرت برعشات عنيفة في أعصابها من حديثي.

أجابت بنبرة غضب:

(ليلعـن اللّه التعالـي العرقـي.... سـأتزوجك بسـرور، ولـن أحفـل أبـدًا بمـا سـيقولون).

قُلت بنفس النبرة:

(آه.... العـذاب الـذي لا طائـل تحتـه ألا نُمتـع نفسـينا بالحـلال رغـم أننـا متشـاكلان في رغبتنـا).

أخذت مني عهدًا وذمة ألا أعود لملامسة جسدها:

(أتوسل إليك أن تكُفّ ملامسة جسدي من الساعة، وبدوري أعدك، أني سأرفض خطيبي المهندس لؤي الوردي، وأزوجك نفسي)

كانت عينيها سعيدتين راقصتين عندما أكدتُ تأكيد قاطع كضربة سيف بذلك، فسألتها مستوضحًا:

(لكن إذا جرت الأمور بغير ما نتمنّى بسبب نظرة التعالي العرقي، سأكون أنا مُحب مخلص كبح جماح رغبته ليحفظ عذريتك لخطيبك المهندس لؤي الوردي، هكذا نبأني يقيني).

قالت بطمأنينة:

(واللّه لغريزتي، أقوى من يقينك فصبر جميل).

●●●

لم تزل ذاكرتي تحتفظ بمشهدٍ فاضح لصديقتها فاطمة وهي تذوب أسى خلف راكب يتحرّش بها في المواصلاتِ العامّة، كان يطوّقها بذراعيه كأنّه يمتلِكها في فراشٍ وثير، ويضغط على جسدها إلى حدٍّ الالتصاق، يا لفاطمة المسكينة، كانت عديمة الحِيلة، منقطعة النّفس، وما أن التقت عينانا حتى غار قلبها، وكادت أن تموت خجلة.

وطالبة أخرى لم يزل ذلك «السافل اللعين» يُداجنها حتى ألفته، ذهبت معه ابتغاء المُجاملة لأنّها لم تقو أبدًا أن تطوع بكلمة لا... وما أن خلا بها حتى أحكم قبضته عليها، لم يحفل ببراءتها، لم تسعِفها كلمات الاستغاثة التي أطلقتها... استسلمت لاجتياحٍ مُدّمر كحمامة انقضّ عليها

نِسر. أحسّت لو أن آلة حادّة مُحمّلة أطرافها بالرصاص غاصت ما بين فخذيها لكان أرحم، ولما وجدت من الألم مثل ما وجدته من «السافل اللعين». عادتْ كسيرة النّفس، تبكي سارق عذريتها...

ولكن الحقّ أن أغلب الطالبات رفضن أن يُعبث بشرفهنّ، والتحرّش بأصل تربيتهنّ. قليلٌ جداً من كان سليم النّفس تجاه طالبات الشهادة العربية.

●●●

وبعد يسير، عاد إليها صوابها كأنّ أمرًا لم يحدث:

(ليس بيننا حشمة، أتدري إني كنت قد رجوت صديقتي فاطمة أن تختبرك في الصفة السادسة وهي الخيانة الزوجية أن تطرح عليك أسئلة استبيان، ولكنها لطمت خدّيها واتهمت عقلي بالجنون؟)

(ويحكِ! إنني أكاد أُصعق مما أسمع، ولم أقدمتِ على ذلك يا مجنونة؟)

هكذا سألتُها فأجابت:

(ليطمئن قلبي أنك ستكون بريئًا من الخيانة الزوجية، فإن تلك الصفة امقتها، ها هوذا القدر يختبرك من تلقاءه، فإن الرجل الكريم الذي لم يزنِ بامرأة قبل الزواج، خليق ألا يزني بعد الزواج)

ولهنيهة مضت، عادت كما كانت وقالت:

(تذرّعتُ بالحيلةِ والخداع مِن أمّي فتمكنتُ مِن الهروب، سأصطحبُكِ الآن في نزهةٍ في شاطئ البحر الأسود، فألبس ثيابك وعجّل).

لـم يمنـعْ الجـوُّ المائلُ للهطـولِ إرادتنـا للخـروجِ، غـادرنـا الحجـرةَ، ركبنـا سـيَّارة سـوداء اللـون، وتولَّـتْ القيـادة.

وصلنا البحـر، ورحنـا نتمشَّـى علـى الشـواطئ فـوق الرمـال بأقـدامٍ حافيـة، وبأطـرافِ أصابعِهَـا النّديـة، كأنَّهـا لـم تسـرْ يومـاً حافِيـة القدمـين.

نزلنـا إِلـى المـاء، فخاضتْ فِي المياه بسـاقيها العاريتـين، وبدأ الموج يلاطف سـاقيها بلطـفٍ وحنـانٍ، ثُـمَّ ارتفـعَ المـاء فـوق ركبتيهـا، فابتلَّ جـزءٌ مِـن بنطالهـا النّصفـي، انحنيتُ إجـلالاً فأثنيتُـه إِلـى أَعْلَـى، فيجب أنْ يكون الحبيب، سـريع البديهة، حاضـر الذهـن.

مـلأتْ فمهـا بالمـاءِ، وبَخَّتّـه فِي الهـواءِ، فتناثـرتْ ذراتهـا البـاردة فِي وجهـي، ثُـمَّ بـدأتْ تضـرب المـاءَ بيدِهَـا وقدميهـا، وتنثـر المـاءَ فِي وجوهنـا، إِنَّهـا سـعيدة... لا أحـدٌ أسـعد مِنهـا فِي تلـك اللحظـة.

هَبَّـتْ نسـمةٌ بـاردةٌ، تطايـرتْ خصـلاتُ شـعرُهَـا الغجـري، فنظـرتُ إِليهـا مِـن خـلال شـعرهـا المتطايـر، فكانـت فِي حالـة نشـوةٍ تبعـثُ علـى الدهشـة، كانت فِي حاجـة إلـى يـدٍ حازمـة تزجرهـا ...وإلا فقـدت عذريتهـا مـع أول ذئـب كاسـر يخلـو بهـا...

أمسكت بوجهها ووضعته بين يدي محذرًا:

(يـا سـيدتي، إنـي أخـاف عليـكِ مـن عاديـات الدهـر، فـكل مـن يـراكِ بهـذا الحسـن، تمنـى أن يذهـب معـكِ فِي متعـة مُحرمـة، وأنـت يـا عزيزتـي أضعـف أن تدافعـي عـن نفسـك، فإنـي أعلمـكِ آيات بيّنـات سـتحيل بينـكِ، وبـين نوبـة ضعفـكِ: «**إِنَّ الَّذِيـنَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَائِـفٌ مِّنَ الشَّـيْطَانِ**

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ» فإنها حصنٌ لكِ من الندامة، وأمن لكِ من الملامة).

لثاني مرة تراني أبكي كطفلٍ يتيم أمامها لحرصي المتناهي على أن تظل أبداً على عفتها، فإذا بشعورٍ عميق، يتدفق في شرايينها على حين فجأة.

رفعت يداً رحيمة، وراحت تكفكف دموعي بأناملها، وتمسح برفق قلبي المعذب بيدها الأخرى حتى سكن.

فقالت بحزم:

(سأفعل، وخوفك على شرفي، لأحبّ إليّ من الدنيا وما عليها).

ثمّ أمسكتني من عضدي كأني أمل حياتها، فقلت بقرار حاسم كأنها زوجتي:

(وإنّي أطلب منكِ ألا تكشفي جعدات شعرك هذه، ولا تلبسي بنطالاً كهذا.... آه. يا عزيزتي، إنني يمكنني أن أتحمل ألا أتزوجك أبداً، ولكن لا أستطيع أن أتحمل أن تكوني فتنة للأنظار وقبلة للآمال).

أعارت أُذناً صاغية، وقالت بسرور بالغ:

(يا مريدي.... كل ما خلا وصيتك، لا يحمل أي سحر لناظري..ولإن أمرتني بارتداء حجابٍ من نحاس، لارتديت).

●●●

موعدٌ مع القدر

في اليوم الرابع، عُدنا إلى الشاطئ عند الأصائلِ، ورأيت للمرة الأولى كم كانت محتشمة ووقورة، وكان وجهها شاحبًا فسألتها:

(ما بكِ يا سلوى؟ لم يعجبني كآبة وجهك اليوم)

أجابت:

(لم أنم الليلة بطولها، جافاني المنام، كانت أكبر تجربة مرّت في حياتي يستحيل نسيان آثارها)

تأوهت:

(آه... نِعم الرجل أنت، إني أفتخر بك لأنك لا تضر بمن أحببت، واعتز بمعرفتك لأنك تدعمني بخوفك عليّ، يا إلهي!!! كيف كنت أجهل ذلك؟).

اكتشفتُ جانبًا آخر من حياتي، فباحت بآخر ما لديها من أماني:

(عندما أعود إلى دولة قطر وأعمل في مؤسسة حمد الطبية، سأكون سعيدة لو أني حملت لقب السيدة/ بيلو في سجلاتها، ولو كان «بيلو» وحش إغريقي مثلك).

●●●

مكثْنَا في الشاطئ، حتَّى وافتِ الشمسُ غروبها، وفجأة تلبَّدَتِ السَّمَاءُ بالغيومِ، فقد كان الجوُّ ممتزجاً، بيَن الصحو والغيوم.

تدانى مِن الأرضِ رِكَام مِن السُحبِ، وبدأ البرقُ يلمعُ في غمامِهِ، فسمعنا رعداً مزمجراً، ففزع قلبها وارتعدتْ فرائصها.

هَبَّتْ ريحٌ باردةٌ، فأصابْنَا مطرٌ جُود، بدأ بهطول خفيف لبرهةٍ، ثُمَّ بمطرٍ غزيرٍ، واستمرتْ على ذلك حتَّى أقلعتْ.

ابتلَّتْ ملابسنا، فنحنُ لم نتوقع هطولها فكسا الجو فوحٌ مِن ريحٍ عبقة.

بعد سكون المطر، هبَّت موجة برد قارسة، فارتعدتْ حبيبتي، ولجلج لسانُها، وبدأتْ ترتجفُ مِن أَخْمُص قدميها، إلى أعلى شعر رأسها.

وبعد أنْ جَفَّتْ ملابسُنَا، قضينا ساعة أخرى، نتمشى حول ساحل البحر، نتمتعُ بسحرِ الطبيعة، ثُمَّ تعشينا في أحد الفنادق الفاخرة، على وجبة لذيذة، قالتْ حبيبتي، إنَّها أشهر وجبة في تركيا، وهي عبارة عن بيض مخفوق مع الفلفل والطماطم. والسلمون المشوي. وشربْنَا، وتناجينا، كأنّي أرشفُ ما تبقى لي مِن نعيمِ الدُّنْيا كُلّها في تلك اللحظة.

فلمّا صرنا على الطريق قالتْ:

(هذا التمَتُّعُ البديع، وهذه الأزهار المتفتحة، وصُدَّاح الطيورِ المغرّدَةِ، قد تخلق لنا نشوةً روحية سامية مِن نشوات الشّعر، ستناظرني غداً للبدءِ في تأليف مجموعتنا الشّعِرية «**ضَربَاتُ الحُبِّ النَّاعِمة**»)

●●●

وفي صباحِ اليوم الخامس، كنتُ معتدل المزاج.... وافر الثقة.... حاضر الذهن للمناظرة الشّعِرية.

جلستُ في بهوِ الفندق، أَتَسَلَّى بالمجلاتِ السياحية الملقاة على طاولاتِ الاستقبال رَيْثَمَا أتناولُ فطوري.

وعلى حين فجأة، انقبضَ صدري، وطغى على قلبي حزنٌ غامضٌ، لَمْ أدرِ ما السبب، كان قلبي يأكلُني، وكأنَّ مَردَّه إلى أَنَّني لن ألتقي بسلوى مرَّة أخرى، أو حزن آخر لم يكشفْه الغيبُ عني بعد.

ولكم تشاءمتُ بهذا الحَزَن حقاً.

أنشأتُ أُحَدِّثُ نفسي: سأعللُ ما تبقّى من الوقتِ بالتجوّل، وإذا حَلَّ وقتُ المناظرةِ، شققْتُ طريقي إلى المكانِ المُسَمَّى.

تجولتُ حول الأسواقِ المتاخمة للفندق ما شاء لي أنْ أتَجَوَّلَ، ثُمَّ عدت إلى الاستقبال لأطلب سيَّارة تأخذني إلى الشاليهات حيث مسرح المناظرة الشعرية مع سلوى.

●●●

يتفقُ للمرءِ أحياناً أنْ يصادفَ أناسًا لا يعرفهم البتّة، ولكن ما إنْ يتحادث معهم، حَتَّى يتفاجأ أنْ هنالك صلة قوية جداً تربطهم، حَدَثَ ذلك عندما أطلت سيَّارة سوداء اللون من مواقف سيارات الفندق ولا هجس في حدسي أن من يتولى قيادتها هو مدير الفندق بعينه.

رمقني رجلٌ متين البنية، يرتدي بدلة أنيقة كُلّ الأناقةِ، ورُبَّما شبهني ببني وطنه، فسرعان ما توقف:

(هل أستطيع أن أقدم لك الخدمة التي تريدُها؟).

(في انتظارِ سيارة أجرة تأخذني إلى الشاليهات يا سيدي).

دعاني للركوبِ، فانزويتُ إلى داخلِ السيارة، وقَدَّم لِي شخصَهُ الكريم بكُنية «أبو محمد».

آه... وما أكثر مَنْ يحملون كُنية «أبو محمد»! ولو قدّم لي اسمه كاملاً لعرفته بدون شك.

وبدوري قَدَّمَتُ له نفسي باسم «أحمد» وما أكثر مَنْ يحملون اسم «أحمد». ولو قدّمتُ له اسمي كاملاً لربما سمع عنّي على الأقل.

وكانت نفسه تفيضُ عظمةً ووقارا، كعظمة وزير... أو كوقار مستشار، وقبل أنْ نتوسع في التّعارف، تلقى الرجل اتصالاً مِن هاتفه الجوال، وبدأتُ أصغي إِليه بكثيرٍ مِن الاهتمامِ، ولَمْ تفتني كلمة.

وإِليكم حوار الاتصال الّذِي جرى:

كأنّ الشخصُ المتصل يتساءلُ:

(أَيْنَ مِفْتَاح البيت؟)

يبحثُ الرجل في جيوبِهِ، وفِي أدراجِ السيارة وأخيراً يهتف:

(نعم. لقد وجدتَهُ، المِفْتَاح بطرفي).

وكأنَّ الشخصَ المتصل يتساءل:

(أين نلتقي لنأخذ منك المفتاح؟)

يفكرُ ملياً ويجيبُ:

(أرى أَنَّ حديقةَ الخيول، أقربُ مكاناً للالتقاءِ، وسأكونُ فِي انتظارِكِ فأرجو أَلاَّ تتأخري).

علمتُ أَنَّ المتصلَ امرأةً، ورُبَّما زوجه.

التفتَ إِليَّ قائلاً:

(أَرْجُو أَلاَّ يسؤوك التأخير، سترافقني إلى حديقةِ الخيول، لشأنٍ مِن الشؤون، وبعدها سأتوجه بك إِلي حيثُ تريدُ.)

انعطفتْ السيارة، وتوجَّهنا صوب الحديقة، وعندما أحسّ الرجل أني أَصغي إِليه باهتمام، راح يتحدَّثُ بلغةٍ محلية لعلّها اللغة النُوبية المستخدمة على نطاقٍ واسع في شمال السودان حَتَّى وصلنا.

جلسنا على أريكة فِي انتظار قدومُ المرأةِ المتصلةِ.

ناولني الرجل مشروباً، وجلس طلق المُحَيا، جميل الطلعة.

وقبل أَنْ نتعارفَ أكثر، تَلَقَى اتصالاً آخراً ربما من مقر عمله.

نظرتُ إليه أتَفَحصُه، فكان وجهه ذو قسماتٍ جميلة، شامخ الأنف، عظيم البطن، يضع فِي عينية نظارة طبية ذاتَ سلسلة، تتدلى بحرية وتطوّق عنقه، وعلى أطرافِ رأسه الأصلع شَعَراً مائلاً قليلاً إِلى البياضِ، وشاربه خفيف ناعم، يلتقي بلحية قصيرة، فيحيطُ بفمه ليشكل إطاراً جميلاً لوجهه.

استرسلَ فِي الحديث، ثُمَّ أطلقَ ضحكةً مقهقهةً طويلةً «هأهأهأهأ»، وبلغتِ القهقهةُ مِن الشدَّةِ أنْ لمعَ فِي مِحراب جفنيه، دمعات توشكَ أَنْ تتدحرجَ؛ فتناولَ منديلاً فجففَهما.

وعلى حين فجأة، قرعت ذاكرتي، ضحكة مشابهة، لشخصٍ آخر أعرفُه، فتفرسْتُ فِي وجهه، فتَجَسَّدَ فِي قسمات وجهه الجميل، ملامح ذلك الشخص فِي صورةٍ صادقةٍ... حية... فِي دقة بالغة تماماً.

وثبتُ مِن مكاني وثبةً واحدةً، فتجمدتُ أمامَه جمودَ الصنم، وبصري شاخصٌ فِي وجهه، لا يطرفُ، ولا يحولُ، فاضطرَّ الرجل إِلى إنهاءِ المكالمة.

لقد عرفتُ الرجل... عرفتُه حقاً، إِنَّه هو، إِنَّه الأسد فأحسستُ بالخطرِ، ستجري الأمور عمَّا قليل، مجرىً سيئاً هُنا.

لقد أصابتْ تنبؤآتي كَبِد الحقيقة، عندما رفضتُ الإذعان لحبيبتي، لمرافقتِهَا إِلى تركيا، مخافةً مِن مقابلةِ الأسد، فقلتُ لها: «**مَنْ يدخلُ إِلى عرينِ الأسد؛ فيفتكُ بِه، فليسَ الذنب ذنب الأسد**»

مـا أكثـرَ مـا تفعلـه المصادفـاتُ التـي تشـبهُ العمـدَ! يجـبُ أنْ أغـادرَ حـالاً.... يجـب أنْ أُوَدِّعَـه وإلاّ حَمَّلْـتُ نَفسـي الأمـورَ المُوبقـة.

نظرَ إليّ مُستطلعاً؛ فسألني:

(ما بالك تنتفضُ وتضطربُ، ماذا دهاك؟)

تعذَّبْتُ عذاباً أليماً مِن نظراتِهِ، فاسترجعتُ أنفاسي بعد جهدٍ وعناءٍ:

(لا ...لا ... أنـا بخيـر، نعـم.. بخيـر ألا تـرى؟، لا يسـعني إلاّ شـكرُك، سـأتجولُ هُنـا، هنـا سـأتجولُ، صحبتّـك السـلامة)

قلتُ ذلـك، وأنـا أَفْـرِغُ فِي جوفِي نصفَ مـا تبقـى مِنْ مشـروب الكولا دفعـةً واحـدةً، حتـى لا أجـد سـبباً للبقـاءِ.

ولكنّه لم يطلقْ يدي:

(مـا بالـك لا تجلـس؟ أرى كأنَّـك تعرفُنِـي حـق المعرفـة، وإلاّ فمـاذا أسـتنتجُ مِـن اضطرابـك؟)

ثم أخذ يستجوبُنِي:

(لقد آثرت اهتمامي، وأيقظتَ فضولي حقاً، ما وراءَكَ؟)

تخاذلتْ أعضائي، واصطكتْ ساقاي؛ فسحبتُ يدي بعنف مودعاً.

فمَـنْ بوسـعه تحـدّي الأسـدِ فِي عرينِـهِ؟ فالأسـد هـو والـد حبيبتـي سـلوى، عبـد الحليـم المعاليـك!!

والحـقّ... مـا قـدّرتُ أن يكـون مديـر الفنـدق أباهـا، ولكـن عـدم إفصاحهـا عـن ذلـك تبـدو لـي غامضـة.

●●●

عُشّ البُلْبُل

وإذْ أنا في تلك الحالة، أرى والدها يُحَدِّقُ بدهشةٍ عظمى في وجه شخص آخر يقف خلفي مباشرةً.

أحسستُ بفطرتي، كأنَّ ذلك الشخص يتأملُني في صمت، أثناء التفاتي، إذْ بِيَّ أحسّعلى حين غِرّة، بقوةِ يدٍ تفوح منها رائحة أنثى تجذب ياقة قميصي مِن الخلف، وتنهالُ عليَّ بصفعةٍ مدَوِية في القفا «طاااااخ» هزَّت بها أحشائي.

وتوافق في نفسِ الثانية بالضبط مع صفعتي، إذ ندّت صرخة مفاجأة مِن امرأة، كأنَّها مُصابة بما يشبه الهوس «وااي، واااا...اااي»

ومِن هولِ الصدمة مِن الصفعةِ، ووطأة المفاجأة مِن الصرخة، لم أحسّ إلاّ وأنا جاثمٌ على الأرض! كيف حصل هذا؟، لستُ أدري!

وقفتُ مذهولاً لأستبينَ مصدر الصفعة، وأوَّل ما خطرَ ببالي، عدم الغرابة بوجه مَن أقدمتْ بصفعي، لكن دهشتي تضاعفتْ، وامتزجتْ بالهلعِ، عندما رأيتُ أنَّ أُمَّ سلوى، تلك الّتي أثقلتْ عليَّ القولَ في الجامعة. هي مَنْ أقدمتْ بصفعي!

ورأيتُ أنَّ المرأةَ التي ندّتْ منها الصرخة، هي سلوى وتحاولُ أنْ تتبخر مِن المكان.

أيقنتُ أنّ ذلك اليوم هو يوم هلاكي، ونفاد مُدَّتي.

رباه!

تسمّرتُ في مكاني لا ألوي على شيء، لم تكتفِ بذلك، بل بصقتْ في وجهي:

(يا حقير يا مقطوع الأنساب).

وقع كلامها في مسمعي، كأمشاط حديد تنهش لحم وجهي نهشاً موجعاً، انهالتْ عليَّ سَبَّاً، ولعناً، غرزتْ أظافرَهَا في وجهي.

صارت تصرخُ بصوتٍ متهدج وتولول، حتَّى أَنَّ مَنْ يراها، يجزمُ بأَنَّها مصابة بمسٍ مِن الجنون:

(ماذا تريدُ مِنَّا؟ أَمَا زلتَ تفتأ تطاردنا، كيف وصلتَ إلى هُنا يا ابن (.........))

كلمة يكرهُها سامعها، ولا يجرؤُ أحدٌ على التلفُظ بها، والأعجبُ أَنَّها تجيءُ مِن أستاذة، ومربية أجيال وأمم.

تدخَّلَ زوجُها ذاهلاً، لا يدري ما هو فاعل؟ أيفضُّ النزاعَ؟ أم يتساءل عمّا يجري؟ وبدأ يصرخُ صراخاً كالهذيان:

(ماذا جرى؟ ما هذا الهرج؟)

التفتتْ إليه، وأشارتْ إليّ:

(هذا قليل الأدب، هذا...)

لم تستطعْ الاسترسال في الحديث، كان الحنقُ يقطعُ شرايين قلبها إرباً... إرباً.

قام زوجها بإمساكي مِن ياقة قميصي بعنف:

(قل لي ماذا يجري؟ لقد أحسستُ إِحساساً غامضاً أَنَّ وراءَك مصيبة).

أجابت الأم:

(يا أستاذ. ابنتُكَ... (راحت تنوح) ابنتُكَ... التي أصبحتْ تجيدُ التمثيل بإتقان، تعشقُ هذا المتسوّل).

وفي ساعته، أصبح المتسوّل نسباً لا أُعرف إلاّ به.

تقول وكأَنَّها تُقَلِّبُ ذاكرتَهَا:

(ليس ثمة شك، إنّها مَن دعته، فقد داخلني إحساس غريب بتصرفاتها، قسماً......)

تشنجتْ الأم، ارتعدتْ وانهارتْ على الأرض. وقد ظهر في فمِها خيطٌ مِن اللعابِ اللزجِ حتى سال على صدرها.

تفاجأ زوجها بسبب وجودي في تركيا، وذُهل ذهولاً شديداً، فهاجَ وماجَ، ثمّ خرج مِن ذهوله، فاندفعَ نحو سلوى اندفاع مسعور.

شدَّ شعرها، وبلغتْ به شدّة الغضب أنْ دفعها بعنف، حتى فقدت توازنها وسقطت على الأرض.

واخجلتاه!.... انكشف منها «**عُش البلبل**» مكسوًا بقطعةِ حمراء كلون النار، ما كان ينبغي أنْ ينكشف أمامي اليوم من تلقائه، طالماً دعتني البارحة أن ينكشف تحت ضعفها وانكسارها فأبيت.

نهضتْ سلوى بصعوبةٍ بالغةٍ تنتحبُ وسألها:

(كيف جاء هذا المتسوّل هنا ليطاردك؟)

لكن حبيبتي، -وكعهدي بها-تقولُ الصدقَ المتناهي، وأعظم الصدق، ذلك الصدقُ الّذِي يُورِدُ صاحبَه إِلى العقاب.

أجابتْ بأدب:

(إِنَّه كاملُ البراءةِ يا أبي، أنا دعوتُه، فدعه يذهبُ بسلام)

يا للمرأة العظيمة!

هوى على خدّها بصفعة مدوِّية، جعلتْ شواطئ تركيا تتراقصُ أمام عينيها، ولكنها لم تفقد رباطة جأشها، وثبات جنانها.

يسألها:

(أتعترفين بذنبك يا شيطانة؟)

ما كان ليصفعها لولا أن رأى كريمته، تعشق فتى قبلي... لقيط... متسوّل، فِي نظره، وليس فتى أمرد... جميل الوجه... مستقيم الأنف... إذن لكان أظهر عليه الكثير من ضروب المودة، ومهد له سبيل الخلوة بها... أو على أقلّ تقدير لتركه ذهب بسلام.... ألا إنّ للعنصرية معايير لاختيار العُشاق!

●●●

حزنتُ على سلوى حزناً، أشدّ مِن حزن الخنساء على أخيها صخر.

فتاة تتلقى ضربات برباطة جأش وجنان في سبيلي، وتقولُ بصراحة متناهية: «إنَّه كاملُ البراءةِ يا أَبِي» يميناً..يمينًا ستكون لي إلى الأبد، فلِمَ الخوف إذن؟ ولِمَ الفرار؟

لن أشربَ كأسَ الحُبِّ قطرة بعزة... سأشربها مترعة بذلة، فلم يَدُمْ خوفي بعد صفعها إلاّ هُنيهة.

تقدَّمتُ نحوه ساكن الجوارح:

(يا سيدي، لا مرية في أَنَّها أخطأتْ ودعتني، وما كان ينبغي أن أُلبِّي دعوتها، ولكن يا سيدي العزيز إنّما يَعْرِف الكُره مَن ضُرب).

ثمّ جاءَ دوري.

رمقَنِي بنظرة قاسية، فانتفختْ أوداجُه، ودَنَا مني بغضبٍ لا يعرف الرحمة، وأخذ بتلابيبي بكُلِّ ما أُوتِيَ مِن قوةٍ.

وتتابعتْ الضرباتُ المترادفةُ، ولَمْ أَقْوَ حتَّى على رفعِ راحتي للاحتماءِ، فقد كنتُ كالحملِ الوديعِ.

آه.... وقوعي في قبضةِ والد سلوى وضرباته المتلاحقة التي انهالت عليّ، أعادت إلى ذهني حادثة مشابهة لمغامراتي في عهد الصِبا، حين هدَّدَني أبي أَلاَّ أستأجرُ دراجةً هوائية أشقُّ بها طُرُق السياراتِ حفاظاً على حياتي فقال مُحذرًا:

(إياك ... ثم إياك تستأجر دراجة تشقّ بها الطُرقات ضنّاً بحياتك)

ولكنّـي خرجـتُ خِلسـة، واسـتأجرتُ دراجـةً، ولـم اصطـدمْ بأحـد فِي مدينـة يقطنهـا أكثـر مـن ٦٠٠ ألـف مِن الأنفس غيـر أبـي. فكان نصيبـي رَكْلاً وضربـاً ورفسـاً.

والتاريـخ يعيـد نفسـه اليوم..فقُبيـل السـفر إلـى تركيـا بأيـام، قالـتْ لـي سـلوى محـذرةً مـن التجـول حـول تلـك المنطقـة مخافـة مقابلـة والدهـا:

(إيـاك.. ثـمّ إيـاك، أَنْ تَتَجَـوَّلَ راجـلاً حـول تلـك المنطقـة، أقـولُ لـك ذلـك لأخـذ الاحتيـاط لـكُلِّ مصادفـة).

وهـأنـذا لا أقـع إلاّ فِي يـدِ والدهـا فِي مدينـة يقطنهـا أكثـر مـن ٦٠٠ ألـف مـن الأنفس! فكان نصيبـي أيضًـا، رَكْلاً وضربـاً ورفسـا.

●●●

وبحلقٍ جاف يتقاطر زبداً على شفتيه يخاطبني والد سلوى:

(ما أحقرَكَ أيها المتسوّل! أتجرؤ على مخاطبتي يا وسخ العبيد؟)

ولكـن إذا بلغـتْ المذلـة منتهاهـا، أصبـح المُذَلُّ كالتمثـالِ بـلا روح، فلم أحـسّ حرجـاً البتّـة بعبـارة «وسـخ العبيـد». كُلُّ مـا كان يشـغلُني هـو عـدم تعـرضُ سـلوى لمخاطـر الأذى الجسـيم.

أه..... وعندما طرقتْ أُمُّ سلوى مسمعَ زوجِها باسم قبيلتي وأضافت:

(كان نذلاً، فقيرًا أجرب، وراعياً للأبقار واليوم يرافق هذه العاصية)

اشـمأزا منّـي اشـمئزازاً شـديداً، بصـق غضبـه علـى الأرض كأن بصقـه علـى وجهـي سـيزيد مـن قـذارة بصاقـه.

انهال عليّ مرة أخرى هو وزوجته ضرباً وصفعًا وسيولاً مِن البصاقِ في وجهي، وقطعا نِعَالهُمَا على قفاي فأيقظاني مِن غيبوبة الحُبِّ، التي كانتْ تدوخني، وعاد إليَّ رشدِي.

تساءلتُ بأسى: ألهذا الحد، انحطاط منزلة قبيلتي في نظر العنصريين؟

لو قُدر لبني أرومتنا معرفة مقدار الكُره الّذِي يَكِنّه العنصريون لهم، لماتوا كمداً، قبل أن يموتوا بالملاريا!

وعلى حين فجأةٍ، ربط عقلي بين الضربات المتتابعة التي تلقيناها أنا وسلوى، بعنوانِ المجموعة الشّعِرية «**ضربات الحُبّ النّاعِمَة**» والتي نحن بصدد تأليف قصائدَها بالمناظرة الشّعِرية بعد قليل.

والعجب العجيب، كان كُلٌّ مِنّا يتلقى الضربات، برباطة جأشٍ وجنانٍ، لَمْ نحسّ البتّة بألم تلك الضربات!

فهل **ضربات الحب حقًا ناعمة؟**

فقد أصابتْ المجموعة الشّعِرية عنوانها تماماً.

●●●

التصقتُ بِهِ كَأَّني أمنعُهُ مِن ضربِهَا. فدفعَنِي بعنف:

(والله إنَّك للقيط، إليكَ عَنِّي يا بول القِرَدَة)

لم أحفلْ بما يقول، فللحبِّ ثمنٌ، وإنَّ المذلة في سبيلِ الحبِّ، لهي أسمى درجات الحب.

كان لسانه كالسيل الجارف لا ينقطعُ عن التجريحِ، ولساني كالديمة الهاطلة لا تنقطعُ عن الرجاءِ:

(يا سيدي الطيّب! لا تُغَلِّبَنَ غضبك على عفوك...فاجعلْ النصيحة حكماً بينك وبين ابنتك، واجعل تأنيبك أغلظ عقوبتك فإنّ ذلك أدلُ على محبتك لها)

(اِخرسْ، ما أنت إلا كلب أجرب، أَتُقَدِّم لي درساً فِي الأخلاقِ؟ والله أمرك لعجب، أتفرضُ نفسَكَ حامياً عليها مِن أبيها؟)

فِي الشدّةِ، تتدفقُ عباراتُ الحكمةِ بلا تكلف:

(يا سيدي، إِنَّ العفو يُولّد الثقة بابنتك فتتقربُ إليكَ. والعقوبة تُولّد الكُره فتهرب منك)

تلاشى رجائي، كان الرجل مُجِدًّا فِي إِلحاقِ الأذى بابنتهِ.

رفسني وصرخ:

(والله لأوسعِنَّكَ ضرباً يا لقيط، ولو كنتَ ابن حلال لفررتَ مني ونكستَ رأسَكَ خجلاً)

أَنَّى لي بالفرارِ وتَرْكِهَا وهي تتلقى الضربات فِي سبيلي؟ إِنَّه ضربٌ مِن المحال، كُلّ ذلة، كُلّ لعنةٍ تهونُ إلاّ ضربها. فأنا شريكها فيما نابها مِن ضَرْب.

سحبَ كريمته بعنفٍ، وسألها:

(سأقطع عنقكِ اليوم، لِمَ دعوتِ هذا اللقيط هنا؟)

أجابتْ بالصدق الجميل:

(لتأليف ديوانٍ للشعر معًا، وما دعوته إلاّ لأنّه يحمل كُلّ معاني الإنسانية، وتعرفون جيدًا أنني لا أكذب، ولا أخالط رجلاً إلاَّ إذا تكاملت فيه صفات الفضيلة)

(يا للعار! لكن أتدعين هذا اللقيط؟)

كما عهدتها أنها لا تتخلّى عنيّ في المواقف الحرجة أبداً فتجيبه:

(يا أبى، إنّ العيون لتُخْطِئُ في الحكم، فإنه ليس بلقيط، إنّ مغرسه كريم، وفيه جمال النفس الداخلية، يا أبي، من ذمّ هذا الرجل، فقد ذمّ صفات الفضيلة كلها)

صفعها مرة أخرى صفعة مدوّية وأجابها بصوت كهذيم الرعد:

(تخاطبيني كأنّي طفل؟، لن يذهب إلاّ إلى قسم الشرطة)

أمسك بياقة قميصي:

(سأتقدم بشكوى ضدك لمضايقتك ابنتي)

وَجَمتُ للأمرِ وجُوماً.

ولكن..... إنَّ للمآزقِ مخرجاً حقًا، فإنّي نسيتُ أنْ حُبها يأتِي دائماً في صرخة اليأس،

انهارت سلوى تماماً من فتح شكوى مضايقة، فراحت تناشد أباها الرّأفة، وهي تنوح بصوتٍ عالٍ:

(يا أبي إِنَّ القلوبَ جُبِلْنَ على حبِّ مَنْ أحسن إِليها وإِنْ كان عدواً، وبُغْض مَنْ أَسَاءَ إِليها وإِنْ كان آباء؛ فاجعلِ الحلمَ عقوبتَكَ، فالضرب كسر لقلبي، وكسر قلب الفتاة تلافيه صعب شديد... فأغفر لي خطيئتي، ودع هذا الرجل يذهب بسلام.)

تَغَيَّرَ الأبُ على حين فجأةٍ، وزن كلمات ابنته فأحسَّ بوهجها في قلبِهِ، أطلقَ سراحي فقال:

(دعيه يذهب، ولكن قسماً لأقتلعنّه مِن الجامعة اقتلاعاً أبدياً)

وابتعدَ عنّي بجسمِهِ الضخم، فتهالك فوق أقرب كرسي صادفه مَنْهُوك القوَى كأسدٍ جريح.

●●●

في مشهدٍ مُهيب، وموقف لا يخطر على قلبِ بشر، تقترب سلوى منّي وتهمس بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

(لشدّ ما أجهدني التفكير في الجامعة كيف أختبرك في صفة بِرّ والديّ إذا زوجتك نفسي؟ واليوم توفرت فيك الصفة السابعة – الصفة الأخيرة).

اتسعت عيناي اتساعًا، وأيمّ الحق لم أتوقع البتّة أن تستغل ذلك الموقف لاختباري.

تودعنِي بدموعها، وكأَنَّها تُوَدعُنِي إِلى الأبدِ... أو تَوْدِيع غامض بأنّي لنْ أراها بَعد اليوم أبدًا.... أبدًا:

(هيّا اِذهبْ بسلام).

ولكن أُمّها تمسكتْ بذهابي إلى قسم الشرطة، فتدخّل بعضُ المارةِ والعقلاء، محاولةً منهم فضّ النزاع بالسلم، أو الاحتكام إلى القانون.

قالت سلوى لأمها بأدب جمّ:

(ماما لو أنني مثلت بين يدّي الشرطة، سأقول الصِّدق بأنه لم يضايقني.... بل أنا التي دعوته) أيّ امرأة تكون هذه الفتاة!

وأثناء نقاشها مع المارة، نجوتُ مِن قبضتها، وتبخرتُ مِن المكان هارباً، وانتهى بي الأمر في ثانيته إلى الفندق، وما بي مِن عظمٍ صحيح، فقد هُتِكَتْ ملابسي، وثُنِيَتْ أسنانِي، وخُلِعَ كتفي.

في سبيل البقاءِ على الأرضِ، يهون الهرب، وجدتُ قِصَّة أُخرى تشبهني، ففي حياة العصر العباسي، لم يعتد الشاعر الكُوفي، أبو الطيب المتنبئ الفرار، بَيْدَ أنَّه، عندما تقابل مع فاتك بن أبي شجاعٍ الأسدي، ولَّى هارِبَاً، فقال له غلامه: أتهرب؛ وأنت القائل:

«الخيل والليل والبيداء تعرفني ●●● والسّيف والرّمح والقرطاس والقلم»

فالنفس تأبى الموتَ.

وفي حياتي الريفية، لم أعتدْ الفرار مِن معاركي مع العجول المتوحشة، ولطالما اقتحمتُ معاركَ داميةً، انتهتْ إمَّا بضربةٍ موجعةٍ للعجولِ، أو بنطحةٍ نجلاء في جسمي. لكن ما أحوجَنِي يومها إلى الفرارِ من امرأة وهي أضعف خلق الله انسانا، وأنا الّذِي أنشدتُ لسلوى يوماً مزهواً بنفسي بِأنِّي فارسُهَا المنتظر:

المدفعُ الرّزام طلقاته مِن صدرك

يا جبل الضرا المايِ سيل حدرك

النار ولعا واتوطأ فوق جمرك

●●●

قادتني قدماي إِلى المطار، بلا روح، وبحالة يُرْثَى لها، صرت أحسُّ بألمٍ حاد في ترقوتي.

وكنتُ قد حزمتُ حقيبتي في الصباح للسفر في اليوم التالي، واتفق لحظتها وجود رحلتين في اليوم، ولم أكنْ أحملُ مبلغاً ذا بالٍ.

تمكنْتُ مِن إِنهاء الحجز برحلة العصر، بورقتين مِن الوريقات النقدية مِن فئة الخمسمائة دولار الّتي زودتني بها سلوى في الجامعة عندما قالتْ: «هذا قد يلزمك، وستعيدها إِليَّ حتَّى لا يفقدُ الحُبّ سيماءه»

ولكن فقد سيماءه ومزاجه معاً.

جلستُ في صالة المغادرين، وكلما صدرَ نداءٌ بوصول طائرة أو مغادرة أخرى أو عبارة « على السادة المسافرين....» باللغة الإنجليزية غاص قلبي في أضلعي، فظننتُ أنَّ والدها سيحول بيني وبين سفري.

اتسخَ قميصي مِن شِدَّةِ الإمساكِ والضربِ؛ فأصبح كَمِمْسَحة بلاط، وتساقطَت نصفُ أزراره، ونصفها الآخر تهلهلَ، فخشيتُ أنْ يتمَّ الاشتباه بِي كمجرم هارب من السجنِ، أو مأخوذ بجريمةِ قتل.

ريثما تقلعُ الطائرة قضيتُ لحظاتٍ يقصر عمرُ الدهرِ عن ساعة منِها طولاً وهَمّاً وغمَّاً.

عندما أقلعت، تنفستُ الصعداءَ؛ فأخذتْ رحلتها بين طَيَّاتِ السحابِ، لكن هذه المرة، بمذلةٍ، وإهانة.

لن أنسى تلك الإهانة ما دُمتُ حَيَّاً، بكُلِّ تفاصيلها، وقد كانتْ قاصمةُ الظهرِ، التِي عَجَّلَتْ بانتهاء عهد الحُبّ والهيام، حيث كنتُ غافلاً عمّا جرت به الأقدار بعد ذلك بالأديبة سلوى.

وفي كُلِّ نازلة تُصيبني، يسامحني الدهر، وتتغافل عنّي الأيام، وتشاءُ الأقدارُ، أنْ أخرجَ منِها سالماً، إلاّ هذه الحادثة، فما أعظمَها كيداً... وما أعمقها جِراحاً.... وما أشدَّهُا ألماً!

نزلتُ في مطارِ الخُرطوم، فآثرتُ التَّواري عنِ الأنظارِ، وانتظارِ ما ستسفرُ عنه الأيام القادمات، حين قدوم الدكتورة وزوجها المهندس، حتماً إلِى الجامعة للبحثِ عَنِّي.

●●●

رحلة السّراب

بعد حادثة تركيا، امتلأ قلبي رُعباً، وأحسستُ أَنَّ الدُّنْيا لا تسعني؛ فَرَانَ عَلَى صدرِي هَمٌّ عظيم.

تراءَى لي أنَّ والدها يُدَبِّرُ مكيدةً للإيقاعِ بي، وتمثَّل لي الاعتقال كما لو كان واقعاً، وعَمَّا قريب سيتمُّ الإمساك بي، وزجِّي في سجنٍ طويل الأمد.

وما زاد من يقيني، أنه هددَنِي بأشنع كلمات التهديد وأفظعها.

توقفتُ عن الحضورِ إِلى الجامعةِ ريثما أجدُ حِيلةً أدفعُ بها شبح المطاردة، فانزويتُ بمنزلِ صديق طفولتي، وملجأي عند المحن فاروق «كرنكي»، مكثتُ معه زُهاء العشرين يوماً.

رأيتُ مِن الحكمةِ، إِشراكه في محنتي لعَلَّنِي أجدُ مخرجاً مِمَّا أنا فيه:

(لقد عَلِمْتَ، أَنّي مكثتُ معكَ ليالٍ طوالاً، ولا أُريدُ أَنْ أكتمَ عنكَ سِري فوق الَّذي كتمتك، فقد نزلتْ بي نازلة، وحمّلتُ نفسي الأمور المُوبِقَة).

وكنتُ قد عاهدتُ حبيبتي ألاّ أكشفَ أمرَ سفرنا لأحد.

وكأَنَّه كان عالماً بِمَا حَلَّ بي:

(كنتُ أحسُّ أَنَّ وراءَكَ مُصيبة، ولكن لرغبتي في اسِتضافتك، كرهتُ أَنْ أسأَلَك، ومن أُعجِبَ برأيه، كان من الظفر بعيداً، ومن الخذلان قريباً).

ثُمَّ حكيتُ له مُصيبتي فصلاً، فصلاً حتَّى انتهيتُ بالوصولِ إِلى منزلهم.

نظرَ إِليَّ بتعجُب:

(فتاة مُراهقة تقودُك مِن زمامِ أنفك، بخيوطِ مشاعرها الواهنة، وتَرْمِي بِكَ فِي شواطئ تركيا، فهذا أمرٌ لا يجرؤ عليه إلاّ أهوج، فالعاقل مَنْ يحترز للأمرِ قبل وقوعه، ولكنّكَ ارتقيتَ خطراً عظيماً).

احتملَ قلبي ضغناً عليه:

(لقد أبعدتَ المُثلَ، وتجاوزتَ القياسَ، تتحدَّثُ كاللبيبِ العاقل، والخبير الفاضل، وتصفها بالمراهقة، لن أرضى لك بإهانتها، فالعلاقة بيننا نارٌ كامنة).

يجيبُ بفلسفة عمياء:

(والآن لقد أيقظتْكَ هذه النار مِن غفوتك، هه؟).

استقبلْتُ ردَّه بصبرٍ فأجبْتُه:

(ألاَ فاعلم إنَّ ما فعلتُه ليس جهلاً منّي، حملَني ذلك صدقُ مشاعرها، واتفاقنا على تصنيف ديوان شعر، وأن يقترن فيه اسمي باسمها وهذا شرف، لا يدانيه شرف).

يتعمَّقُ فِي فلسفتهِ:

(ألم تقرأ فِي الخطّة:

«......إن المشاعرَ بين المحبين خيطٌ رفيعٌ، يربطُ بين العقل والجوارح، ومتى ما غابَ العقلُ، انفصلَ ذلك الخيط؛ فتساقطتْ الجوارحُ تِبَاعًا»).

حمّلته مصيبتي:

(لقد طبقتْ الخطّة العاطفية بحذافيرها، فلم تستطعْ قضاء إجازتها السنوية إلاّ بصحبتي)

يجيبُ منكراً:

(كلا، أرى أنَّك طبقتَ نَظرية الدومينو، حيثُ يؤدي سقوطُ إحْدَى القطع إلى سقوطِ البقية ووقوع خسائر فادحة، قد سقط عقلك، فسقطتْ جوارحُكَ تِبَاعاً)

ثُمَّ يضيفُ بلمسةِ العُلماءِ:

(لقد أجريت لك الأمثال في الخطّة، وسطرتُ لك الأقاويل، وكنتُ أشفقُ عليكَ من نجاحها لتصيبَ بُغيتَكَ، فإنَّ بعضَ الخطَط مُهْلِكَة للداهية، ووبالاً عليه إذا أفرطَ في الإعجاب بها، وكُلّ شيء أُفرط في طبعه، صار ضدّ طِباعِه مثل الفتى عادل تماماً، فقد كان زهوه بجماله وبالاً عليه)

ضجرتُ مِن فلسفته اللاذعة:

(دعكَ مَنْ الخطّة جانباً، فإنّي قد أتيتكَ، لتشير عليَّ، فأنتَ شريكي فيما أنا فيه، فانطلق إلى كُليتها وتحسس الخبر).

هزّ راسه متعجباً:

(كنتُ أنكر عليكَ ملازمتها كظلها، فما ظنّك بمرافقتها إلى تركيا!)

●●●

وفي اليوم الأول، ذهبَ إلى الجامعة، فعاد في المساءِ بخفي حنين، وتكررُ ذلك المشهد في اليوم الثاني والثالث.

الانتظار جحيم لا يطيقه من نزلت به نازلة، فقلتُ لنفسي: فإن لم يأتني اليوم بخبرٍ، خيراً كان أم شرّاً، ذهبتُ بنفسي إلى الجامعة، وليكن ما يكون.

ولكن عندما لاحَ قادماً، انتفضَ مَا بداخلي قلقاً، فبدا لي كأَنَّهُ يحملُ خَبَراً عن سلوى، كرسالة مُرسلة منها:

(سأقطعُ حَدَّ ذراعِي رهاناً إنَّك رأيتَها اليوم - هيَّا اسردْ لِي أخبارَهَا وأوجز حتَّى أرى كيف تبدو الأديبة؟)

(بلى رأيتُها، وتقرَّبتُ إليها خلسة، فهي تمارسُ حياتَها الجامعية كزميلاتها، ولم أرَ شيئًا قد يُكَدّرُ صفوك غير أنّ يديها مُخَضَّبتين بالحناءِ، وملامح وجهها قد تَغَيَّرتْ كعروسٍ تزوجتْ حديثاً).

تزوجت؟

سلوى تزوجت غيري؟

يا للخبر الحزين!

لم تحملني رجلاي، فدارتْ بي الأرض دورةً كاملةً، فارتطمتُ بها صامتاً لا أحسُّ شيئاً مِن حولي، وبدأ العرقَ يَرْفَضُ مِن جبيني، ثُمَّ بدأ جسمي يرتجفُ مِن رأسي حتّى قدمي كَمَنْ أصابتْهُ الحُمَّى، فلم أَفِقْ مِن هَوْلِ الخبر إلاّ بعد حين. فتحتُ عينيَّ فإذا النَّهار مُظْلِم، وصديقي يجلسُ بجانبي على الأرض ويربَتُ على كتفي:

(أقسمُ لك أنَّ هذه الزِّيجة خيرٌ لك، حتّى تفيق مِن غيبوبتك، وتعلمُ معالمَ طريقِكَ)

آه.... لقد زَوَّجُوها على عَجَل.

وانتهى حُبُّنا على عجلٍ.

لقد قادوها إلى عُشِّ الزوجية قسراً ...

سلبوا مني قلبها...

سلبوا مني بسمتها،،،،ضحكتها

لم يتركوا حتَّى آثارها اللطيفة!

تعمّدوا أنْ يتركوا جرحاً غائراً...

وقلباً مكلوماً.

فوا أسفي، ووا فجيعتي، فإنَّنِي أشيّعُ نفسي بعد زواجها!

رأى العنصريون، أَنَّ هذا الحُبَّ الجارف، لا يصدُّ مجراه إلاّ الزواج، فجعلوا مِن هذه الزِّيجة، دور الأمل الأخير لإنهاء علاقاتنا.

وما حبيبتي بالآثمة، ولا المذنبة.

بل الفتاة الصادقة، صدقتْ مع مَنْ يغمر حياتها بسعادة لا ينضب معينُها.

إِنَّ حزني عليها لعميق، وإنّي لا أطيقُ السُهاد مَرَّة أُخرى، لقد توسَّدتُ النَّارَ، وافترشتُ الحَيَّات، ولكن سأتناولُ عقاراً مُضَاداً للأرق حتَّى إذا لاحَ شُعَاعُ الفجرِ، ذهبتُ إليها لأستبينَ منها الخبر اليقين.

قال وكأنَّه يفرغُ عقلَهُ:

(الحُبُّ أرجوحة يتأرجحُ المُحبُّ، بينَ الأملِ المُمْكِنِ، والرّجاء الخائب، فتركها حكمة، والسّكون إليها نقمة، فَكُنْ محمودَ الخليقة وانسَاها).

انسَاها؟ ذلك ما لا يكون...

قلتُ كَمَنْ يخوضُ حرباً لينتصر:

(لا أرى إلاّ المُجَاهَدة لمواصلة الهوى تحتَ عُشّ الزوجية، وليس الرأي عندي نسيانها)

قال بحكمة لا تزال تَرِنُّ في ذاكرتي:

(هذه حكمة أَخُصُّك بها وحدك، فإنْ عملتَ بها، فقد بَلَّغْتُكَ ما يلزمُنِي تجاهك، وإنْ أعرضتَ عنها، فقد خرجتُ مِن لومٍ قد يلحقني).

(هاتها).

(أعلمُ أَنَّ الحُبَّ تحت عش الزّوجية، كرجل جالس تحت دوحة وارفة الظلال، مُمْسِكاً بزجاجة معتمة، ممتلئة عسلاً لا يرى باطنها مِن ظاهرِهَا، فتشغله حلاوتها، فيظَلُّ غافلاً، حتَّى يتجرَّعُ في أسفلها سُمّاً زعافاً).

لمْ أفهمْ ما يشير إليه، فأوضح:

(قصدتُ لك بالدوحة الوارفة، الحياةُ الزّوجية التي تريدُ أنْ تتظلل تحتها، وقصدتُ بِالزجاجةِ المُعْتَمَة، بصرك الّذِي لاحَ، وقصدتُ بالسُّمِ الزُعافِ، أَنَّك ستتجرعُ مرارة فعلتِكَ الشنيعة في ابنتك لاحقاً).

انشرح صدري من حكمته، وانبسطتْ أساريري على نحوٍ مبالغ، فجَرَتْ عَلى لساني كلماتٌ لا أعرفُ معناها:

(لعمري لقد أحسنتُ القولَ، إنَّ المحبَّ الصادق، لا يكونُ إلاّ وفياً، وإنَّ المُحَبَّ الخائن، من التمسَ منفعته بضرر زميلته التي تَحَصَّنَتْ)

فتحتُ فمي للثناء على حكمته، ولكن قلبي نطق تلقائياً:

(وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)

في لحظته، داخلني إيمان قوي بأن العناية الإلهية اختارت أن تتمّ هذه الزيجة على عجل لحكمة بالِغة لا يراها أهل التعالي العرقي.

ستتولَّى العناية الإلهية حراسة علاقاتنا الصادقة بعدما أخلصتُ لها إخلاصًا عظيمًا... فلم أعاشرها معاشرة الأزواج أثناء نوبة ضعفها في أكثر من مناسبة وهي في وضعية لا سبيل لرجلٍ مقاومة إغرائها...

قد تقع أعجوبة.... ستكشف الزِّيجة سرّاً.... فكل شيء جائز في الدنيا! فصبرٌ جميل.

●●●

عُدتُ إلى الجامعة بهزيمةِ الحُبِّ، سيئ الحالِ، شارد الذهنِ، خائر النفس، بقلبٍ مليءٍ بالخيبات.

عُدتُ كما دخلتُها أوّل مَرَّة بلا حُبٍّ، فمؤلم جدّاً مَا حَلَّ بي! ولكن زواجها لن يمنعَني مقابلتها، فلا أرى إلاّ المجاهدة وإنْ صدَّت عَنِّي فلن أكترثَ فإنها دائنة لي بمبلغ واجب السداد.

كَمنْتُ أياماً في طريقها، وما إنْ لمحتُهَا خارجة من الجامعة، حتَّى نهضتُ واقفاً، وتسمَّرتُ أمامها. تنظرُ إليَّ مدهوشةً وتتأملُني مذعورةً، كأنّي موتٌ نزلَ بساحتِهَا. ترتجفُ شفتاها، ويتسمَّرُ بصرها بوجهي، لا أعلمُ كم مِن الدقائق تأملتْنِي.

رحت أحادثها وهي صامتة:

(لقد حفظتُ حبي، في قِلاعِك الحصينة، فكيف اقتحمُوا قلاعَك وقطفوا ثمرةَ حُبِّنَا؟ واحرّ قلباه! هل استوفيتُ أيَّام حياتي في حُبِّك؟ أم أنَّ في الأملِ بقيَّة؟ إذْ كنتِ كارهَةً لهذه الزِّيجة، فانسفي عش الزّوجية نسفاً... أو لسنا في هدأةِ الحُبّ؟)

لم تجب فأخاطبها بعيونٍ تترقرق دموعًا:

(ما كنتُ أحسبُ، أنَّ قهوتَكَ قد يرتشفُها غيري، وارتشفُ خيبتي).

أضعُ بين يديها مظروفاً بداخلِهِ خمس وريقات مِن فئةِ المائة دولار وأُذكِرُها بعهدنا:

(لا تنسي شعارنا .... أنا نصفك الآخر، وموعدنا صرخة اليأس)

أخرجت من حقيبتها، ورقة مطوية ودسّتها بين يدي وغابت عن ناظري، فإذا هي تقول: « .... اكتشف. أنه كآكل البصلِ الّذِي لا يجدُ نَتن ريح فمِه إلاّ إذا تحدَّثَ، فلا يتعلّق بالرجال إلاّ بالاسم، ولا بالفحولة إلا بالجسم. فقضيتُ زيجتي الفاشلة في شكرٍ.... وصلاةٍ.... وتهجد .... مبتهلة بسبب ما يعانيه في مستودع أسراره.... وإلى أمريكا سنبدأ «رحلة السّراب» ليحيلَ ظُلْمَةَ اليأسِ إلى نسمةٍ، وجمودَ الجسدِ إلى حراك....... وجرحَ القلبِ إلى بلسم.... وتقويمِ (مستودع أسراره) الذي لا يستقيمُ! فإن عُدْنَا خائبَين، ولا أحسبُ إلاّ ذلك، سيُحَل قيدي، ويُفَك وثاقي... فانتظرني...ولن يطول انتظارك). ومهرت ذيل رسالتها بِلُغز «رحلة السّراب»:

●●●

المطرقة والسندان

تصرّمت أيام قليلة، فتفاجأ معظمُ الطُلاّب، بقيامِ الانتخابات دون سابق إنذارٍ، ولمَّا كان الفصيل الحكومي على علمٍ مُسْبَق بموعدِ الانتخابات، تَمَكَّنَ مِن تجميعِ منسوبيه في لمح البصر، بَيْدَ أنَّ التنظِيمات السِّياسية الأخرى، لم تجد بُداًّ سوى التوحد في قائمة واحدة، لدعم التنظيم الحيادي.

كانتْ كُلّ الدلائل، تشير بفوز التنظيم الحيادي للانتخابات بسهولة، ولكن عمادة الطُلاّب -لجنة تسيير الانتخابات-أرادتْ غير ذلك، فقامتْ بتغيير قواعد اللعبة، لجرّ التنظِيمات إلى سيناريو لا يتنبأُ بنهايته أحد.

قررتْ اللجنة، التصويت لمدَّة يومين متتالين، خلافاً لما كان سائداً آنذاك، وهو التصويت ليومٍ واحدٍ فقط.

ومِن ضمن السيناريوهات غير المتوقعة، ترحيل صناديق الاقتراع، بعد انتهاء التصويت في اليوم الأول، لحراستها في دار الاتحاد، وترحيلها مَرَّةً أُخرَى إلى مراكزها المختلفة، مِمَّا ألقى بظلال الشّك على مصداقية لجنة الانتخابات، لإجراء انتخابات حرة، ونزيهة.

وفي نهاية اليوم الثاني مباشرةً، بدأتْ عملية فرز الأصوات، واستمرتْ حتَّى صبيحة اليوم الثالث، وبدأتْ التنظِيمات المساندة للتنظيم الحيادي، تسيير مسيرات هاتفة، تعبّر عن أنَّ النّصرَ قادمٌ لا محالة، وإنَّمَا هي مسألة وقت ليس إلاّ.

أمّا الفصيل الحكومي، فقام بتسيير مسيرات مضادة مفادها، بأَنَّ الدلائل الأولية، تشير بتقدُّم الفصيل الحكومي في الانتخابات.

واستمرّ الفرز، حتَّى أعلنت اللجنةُ، بفوز غير متوقع للفصيل الحكومي، وكانتْ معظم التنظِيمات مندهشة، لم تعِ كيف تمَّ ذلك، إلاّ بعد أيام طوال.

●●●

رفضت التنظِيمات المناوئة، نتيجة الانتخابات، التي اعتمدتْهَا اللجنةُ المختصة، ممّا حدا بقوات الاحتياط المركزي تطويق الجامعة.

جلستُ على الأرضِ، وأسندتُ ظهري على شجرة عظيمة؛ جَرَّاء الإرهاق الّذِي نَالَ مِني، لأتابعَ مَا صاحبَ مَجْرَى الانتخابات، بفوز غير متوقع للفصيل الحكومي.

سَيَّر الفصيل الطُّلابي، مسيرات حاشدة، فرحة بالنصر الّذِي حققه، بعد اعتماد عمادة الطُّلاّب النتيجة، وتواصلت المسيرة فعمَّتْ جميع كليات الوسط، بينما أنكرت التنظِيمات الأخرى تلك المهزلة، فاحتدمَ صِدَامٌ بينهما، أُستخدم فيه العصي، والهراوات، والسيخ بشكلٍ مُفرط.

●●●

قال صديقي يوصيني:

(عليك مغادرة الجامعة لتَنْجُوَ بنفسِكَ، فقد كَثُرَ اتهامك بالانتماء مرة للفصيل الحكومي وأخرى للتنظيمات المناوئة، وهذا الجو السِّياسي، مشحونٌ بروحِ الانتقامِ، وتصفية حسابات متراكمة).

أجبته مستغرقًا فِي التفكير:

(ما أنا بمفارقِ الجامعةَ، حتّى يبدو لي مَا أتَخَوَّفُ منه).

ذهب صديقي وتركَني، وفَجْأَةً ألقيتُ ناظري حول الطريق الرئيسي، ورأيتُ الطُلاّب والطَّالبات، يسرعون الخُطى لمغادرة الجامعة، فتياتٌ يصرخن، وطلاّب هاربون مِن كُلِّ الاتجاهات، وآخرون مصابون، وحالة ذعر، وفوضى عارمة. فنهضتُ لاستجلاء حقيقةِ الأمرِ.

ثُمَّ بَدَأَ صِدامٌ عنيفٌ، بين بعض منتسبي الفصيل الحكومي والمناوئين له، فداخلَنِي فضولٌ للفرجةِ.

وعندما اشتدَّ الصِدامُ، رأيت الفتى عادل يرصدُني ويتربص بي، وفي نفسه العداوة للنيل منّي، ليشفي غليله، ويُبرد ثأره، ليستردّ جزءاً مِن حبي لسلوى التي أوصدتْ بابَ قلبِهَا في وجهه.

ثمّ أقبلَ ومعه لفيفٌ مِن طواغيتِ الشرّ، وانضمَ إليه الفتى ضياء ومعه أحزاب الفتنة، وطالب آخر يقود مجموعة من طلاب الخراب يحملون حجارة وعِصِيٌّ ويتوجهون نحوي.

قلتُ في نفسي: أرى اليوم، إنـي في نِزَالٍ مِن العيار الثقيل مع غريمي الفتى.

اتخذتُ خطوات للوراءِ لأرى ما يصنعون، تحصَّنْتُ في زاوية مِن زوايا الحجراتِ الدراسية، فَتَبَيَّنَ لي بغير عناءٍ، أنّهم يريدون النَّيْلَ مِني، نَيْلاً لا تراجع عنه.

حدَّثَتْنِي نفسي، لو اشتبكتُ مع هؤلاءِ الفتية، حملتُ نفسي إلى حتفها، يجبُ عليَّ عدم استصغار قوة عدُوِي، لكن الهرب إحدى الحِيَلِ.

ناشدتُ الفتى عادل برفقٍ ولين:

(يا أخي، رجائي عندك أنْ تلتزمَ جانبَ التعقُلِ والتبصُرِ، وأَنْ تدعني أذهب بسلامٍ، فعار عليك أنْ تشفي غليلك بضربي بسبب حبنا لفتاة، وإنْ ألحقتَ بيّ أذى، فلن تستطيع النّظر إلي وجهي إلاّ ورأسك غائرٌ في صدرِكَ مِن الحياءِ)

لكن غريمي تمادى فِي غيّه وعلى حِين غِرَّةٍ، أطلقَ حجراً، وصرخ:

(خُذْ هذه يا وجه القرد)

كاد أنْ يصيبَ هامتي.

أمر بقية زمرتِه بالانتشار حول المبني، لإحكام الطوق حولي.

لا شيء يُنجيني إلاّ القتال، وبلمح البصر، تحرزتُ في إحدى الحجرات الدراسية، ولكنهم ما لبثوا إلاَّ قليلاً حَتَّى اقتحموها واتجهوا نحوي، واتفقَ ذلك أنِّي فتحت إحدى النّوافذ للقفز. وبين غمضةٍ وانتباهةٍ، رميتُ نفسي، ولكن تَعَلّقَ قميصي بالنافذةِ، فأحسست بجسم صلبٍ يمزق ظهري فسقطتُ على أثرها خارج النّافذة، وكما لو بدأتُ أفقدُ الوعي مِن شدّة الارتطام بالأرض.

ومُستغلاً استلقائي على الأرض، سددَّ لي عادل ضربةً مُوجِعَةً بعصا عجراء فِي جسدي، فَدَوَّتْ في جسدي بصوتٍ أصم، فصرخ:

(تَأَلَّم يَا شرّ الخليقة، نحن أجنحة الموت، وتربية تنظيم...في أركان النِّقاش ولدنا)

قبلَ أنْ أفيقَ والتمسَ الخلاصَ لنفسي، تملّكتِني الدهشة عندما رأيتُهم، قد تمكّنُوا مِن تطويقي فذهبَ قلبي شعاعاً، ارتعدتْ مفاصلي فلا سبيل إلى المقاومة.

نهضت واقفاً، وتسمَّرْتُ فِي مكاني لا ألوي على شيء، والألمُ ما فتئ يزداد.

قال عادل لزمرته:

(إنَّه صيدي الثمين فدعوه لي).

ثمّ راح يقول عبارات حماسية:

(يا «بيلّو» نحن أهل الثبات عند الصدام، ومن يختال بين الصفوف، وأهل الفتك والإقدام، والصبر على الجراح)

تقدَّم نحوي ممسكاً بالعصا العجراء، فتمثّلتْ لي أَنَّ العصا كقرني بقرة هائجة، إذنْ أستطيعُ أَنْ أتدبرَ هذا الموقف بثبات.

أجبته بكلماتٍ كهزيم الرعد:

(سل عنّي يا منتوف اللحية، فأنا الموت الأحمر، والنَّفس المُرّة، من زفيري رياح الموت هبّت، ومن غضبي حمم البراكين شبّت، هلمّ لمبارزتي لأسلب منك رجولتك)

رفع العصا بِكُلّ ما أُوتِيَ مِنْ قوة وبكلتا يديه وهوى بها فتفاديتها بحركةٍ رشيقة، وتبعها بأخرى، وبدأتُ أُراوِغُ للامساكِ بالعصا مستغلاً معاركي مع العجولِ المتوحشةِ، فالضرب بالعصا خطفة.

ولكن الفتى الأمرد «ضياء» استغلَّ انشغالي بنزع العصا فسدَّدَ لِي ضربةً مُوفّقة في ظهري، تمايلتُ يمنةً ويسرةً من ألمها، ولولا حميتي الغذائية، وصلابة بدني، لافترشتُ الأرضَ ألماً.

رأيتُ غريمي مُجداً في إلحاق الأذى بيّ، فتقدَّمَ لضربي مرَّة أخرى فالتحمتُ به جسدياً فتعاركنا، ولكن الفتى الأمرد ضياء، كان ذا نجدة ومدد، فسدّدَ لي ضربة أخرى فتراختْ يداي ولكنّي لم أمكن غريمي من الهرب. أمسكتُ به مِن ظهرِهِ، فأحسستُ أنّي ممسكٌ بأرداف وثيرة، ثُمَّ أمسكني بيديه ليدفعَني، فأحسستُ بلطافة كَفَيّه، ورخاوة عظامه. حاولتُ أنْ أخسفَ به الأرضَ، ولكن كان ثقيل الحمل، بسبب تحكمه في رجليه، فدفعته أرضًا فنهضَ وولى هارباً، وأعاد الكرّة فلم ينقطعْ طمعُه للنَيْلِ مِني.

تمنيتُ لو أنّي نزعتُ العصا، وسدَّدتُ له ضربةً واحدةً في مؤخرته، لتكون ذكرى مؤلمة مِنّي لحُبّنا لسلوى، صرختُ فيه:

(لو أمسكتُ بك يا لين الأعطاف، فلن أطلقَ ساقيك للريح حتى ترقصَ أمامي رقصة «قطع الرحط»، ورقصة فيلم «**الليلة الموعودة**»).

و«قطع الرحط» طقوس سودانية في الأعراس، ترقصها العروس أمام زوجها.

ردّ عليّ بصوت قوي، بأبياتٍ ثورية قالها الشاعر محجوب شريف تُمجّد صمود الخرطوم ضد نظامِ العسكر:

(نحن يا ست الحبايب (الخرطوم) من ثمارك...

في دروب الليل نهارك...

قبل ما يطول انتظارك.....

نحن جينا...

ديل نحنا القالوا مُتنا..

وقالو فُتّنَا....

وقالو للناس انتهينا...)

والحقّ لَمْ أرَ كادراً شديد القوة، شديد النزال، صعب المراس مثل هذا الفتى، كان يرمي مدبراً ويضرب مقبلاً، ولو كان مُحترفاً الشجار بالعصا، لأشفى غليله من جسدي.

بدأ ذهني يعملُ بعنف، كيف الهرب مِن هذهِ الفئة الضالة؟ وما حيلتي أمام عددهم؟ وكان لا بُدّ مِن إيجاد حلٍّ لأنجو مِن تلك النّازلة.

قيل: إنَّ «**الكثرة، تغلب الشجاعة**» ولكن اكتشفتُ لحظتها، أنَّ القتالَ ليس بالكثرةِ، وإنَّمَا بالحيلةِ والدَّهاءِ، فرُبَّ شجاعٍ بلغ بحيلتِهِ، ما لم تبلغه الكثرة.

ألقيتُ صرخةً كادتْ لها قلوبهم تَتَفَطَّرُ:

(الويل لطواغيت الشرّ، سأقتلكم قتل العقارب، وأسقيكم كأس المنِية مُترعة)

توجهتُ نحوهم بِكُلِّ ما أُوتيتْ مِن قُوة، فاصطدمتُ بالفتى ضياء فطرحتُه أرضاً... سحقتُ عظامه سحق الطحين.... ودمغتُ رأسه بركبتي دمغ رؤوس الحيّات، فتركته يثغو ثغاء النعجة، ويئن أنين الذبيح من الألم.

ثمّ توجهتُ إلى عادل بنفس القوة والبأس للاصطدام به، ولكنّه تفادى اندفاعي، فاصطدمت بشجرةٍ عظيمة طرحتني أرضاً فسدد لي ضربة قوية، فراح يعيد عباراته الجميلة:

(نحن تربية تنظيم..وفي أركان النِّقّاش ولدنا..... نحن أولاد عزّة (أول امرأة وطنية تشارك في النشاط السياسي المناوئ للاستعمار) .... عزّة نحن الجبال، عزّة نحن النبال)

ضرباته الأليمة، كأنّما ولّدت في أوصالي قوة، فقد كنت مثل المصارع هولك هوجان الذي يزداد قوة كلما ضُرب.

نهضتُ واقفاً دفعة واحدة، والانتقام يسكن جوفي.

هاجني ما تلقيتُ من ضربات، فهرعتُ إلى شجرة عظيمة، نزعتُ منها غصنًا... أصمَّ...خشنًا كثير الشَّوك كمشط الحديد.

فخطوتُ راكضاً نحو مجموعة الأمرد ضياء كالجمل الصَّئُول فتفرقوا تفرّق الشَّعَر.

وخطوتُ رُباعًا.... رُباعًا كالأسد الضاري نحو غريمي، ولكنّه كان شديدَ العقل، ثاقبَ الرؤيا، فبعدما استخدم شجاعته في موضعها، رأى أن الإقدام لمواجهتي الآن ليس بالشجاعة وإنّما حماقة بيّنة، فقد قال يومًا في إحدى أركان النقاش: «**أن الهرب من المكروه أحيانًا محمود، والمقام عليه مذموم**» فطرح العصا العجراء وولّى هارباً ضنًا بحياته، وتبعتْه زمرتُه مُدبرين، وتفرَّقُوا طرائق قدداً، ونجوتُ بنفسي مِن حصارهم.

●●●

انتهى بي الطريق، بالاحتماء ببعض أفراد الفصيل الموالي للحكومة، الّذين كانوا يبحثون عن مخرج، والنجاة بأنفسهم، فسكنتْ روعتي حين شكَّلنا قوةً للمجاهدة فِي الدفاعِ عن أنفسنا، ولكن رأيتُ بعضهم ينظرون إليّ نظرات مُريبة، فتجاهلتُها لآخذ قسطاً من الراحة، كاستراحة المكروب.

وأثناء استغراقي في لُجة الألم، أغارَ عليّ بعضهم دون سببٍ جرى فصرخَوا:

(عليكم بهذا الطَّالب المُناوِئ، إنَّه صَاحِب مَقَال تَزْوِير الانتخابات، ومِنْ أهْلِ الشِقاق والنِفاق، وأعداء الحق والإلحاد، أثخنوا فيه الجراح، ولا تأخذكم به رأفة)

انهالُوا عليَّ ضرباً مبرحا أكثر إيلاماً مِن الضربِ الّذِي تلقيته مِن عادل وزمرته، عُدتُ فراراً مِن حيثُ قدمْتُ. ألعنُ الفصيل الحكومي شرّ لعنة.

في الحقيقة، كثرتْ الاتهاماتُ حولَ حقيقة انتمائي السِّياسي، ممّا جعلَنِي أتأرجحُ يومذاك، بين سندان الفصيل الحكومي، وبين مِطْرَقَةِ التنظِيمات المناوئة له.

●●●

أدركَنِي الفتور مِن أَثَرِ الضّربِ، وأحسستُ أَنَّ آثار الضرْبِ، تزدادُ تدريجياً، وألماً بعد ألم.

فلمَّا سكنَ مِنّي الألمُ، تساءلتُ: أي شيء أغيظ من أتلقى الضربات المتتابعة مِن الفتى الأمْرَد ضياء، والضربات الوجيعة من منتوف اللحية عادل؟

وما زاد مِن سخطي، أنَّنِي أسكنتُ بقرةً متوحشةً بضربةٍ واحدةٍ مِن ساعدي لم تبارحْ مكانها ثلاث ليالٍ طوال.

خرجتُ بكمد قاتلٍ من الانتخابات كَمَنْ هو خارج مِن نارٍ متأججةٍ، فلعنتُ الساسةَ والسّياسيين.

●●●

ذهبتُ إلى منزل صديقي، فاتر النّشاطِ، وأيقنتُ أَنّي سأُلقي حتفي في دنيا السِّياسة، فقال بحكمة:

(إنَّ مَنْ يمارس السِّياسة لا يُرى إلاَّ في منصبين، ولا يليقُ به غيرهما، إمَّا مع صنَّاعِ القرارِ بارزاً، وإمَّا مع المعارضةِ ثائراً، فمِنَ الطبيعي أَنْ تتلقى ضربات مِن جميعِ الجهاتِ)

●●●

انتقام التسامح

الضربُ غدراً، مِن العذابِ النَّفسي الّذِي لا ينساهُ المرءُ مهما كان ميَّالاً للتسامح، ومن لم يتجرّع مرارة الغدر والظُّلم، لن يتذوق حلاوة التسامح والعفو، ولطالما عفوتُ عمن ظلمني في مناطق التماس بين المزارعين والرُّعاة؛ فقد مزّق اثنان من الرُّعاةِ جسدي بالسياط شرَّ ممزق عندما كنّا نتنافس في الموارد المتاحة في المناطق الرّطبة بسبب شُح المياه، شرّدا أبقاري، فبكيتُ يومها بكاء الثُكلى، ورفعتُ أكُفي داعياً: «يا إلهي الشاهدِ لكل نجوى، السامعِ لكل شكوى، الكاشِف لكل بلوى، رُدَّ إليّ أبقاري نظير عفوي عمّن ظلمني».

لم تعد أبقاري، ولكن تكاثرت المتبقية أكثر ممّا كانت عليه.

وعندما شارفتُ على التَّعافِي، اصطحبتُ صديقي «كرنكي» إلى الطبيب ليضمد جُرحي، فكشفْتُ ظهري، فرأى كدماتٍ سوداء مِن جَرَّاءِ الضربِ بالعصا العجراء. فقالَ:

(إنّ الفتى الّذِي أوقع بك هذا الضرب، انقطعتْ ربلة ساقه أثناءَ هروبه مِن الجامعة.)

وإِذا برغبةٍ مفاجأة تدفعني دفعاً لزيارتهِ؛ ليعلمَ أَنَّ اللّٰه عاقبه أوعظ عقوبة. فسرعان ما تذكرتُ أن اللّٰه عزَّ وجل سهَّل لي سبيل الزيارة للالتقاء بالفتى للانتصار عليه، وأحسستُ كأَنَّ صخرةً عاتية تجثمُ فوق صدري، وحملاً ثقيلاً يسحقُني سحقاً، فلا سبيل إلى التحررِ مِنه إلاّ بالصفح عنه.

سألتُ صديقِي:

(أيمكنني مرافقتك لزيارة الفتىِ؟)

أجابني باندهاش:

(عجبتُ حَقّاً لأمركَ! كيفَ تزورُ مَنْ أثخنَ جَسَدَك جراحاً؟)

(حتى أثبتُ له أنَّ الله حبّب إلى قبيلتنا حبّ التسامح التي لا يشاركنا فيها العنصريون، وسأشتري عزَّة نفسي بأغلى الأثمانِ، وأعفو عنه في دارهِ حتَّى تتلاشى العنصرية؛ فينظر إِليَّ عزيزًا)

فكّر مليّاً:

(إنّها رسالة جميلة، فإن حُسن الخُلُق يُوجب المودّة).

●●●

ذهبنا لزيارة عادل في منزلِهِ بحيّ الطائف وسط الخرطوم، ودخلنا شقَّة هي آية في الجمال، وما أَنْ ولجَنْا الحجرة التي يتمددُ فيها ووقع بصره عليَّ، حتَّى انتصبَ جالساً دفعة واحدة، وتجمَّد جمود التمثال.

راح يُحَدِّق في وجهي تحديقاً طويلاً، لا يطرفُ، ولا ينطقُ. فكأَنَّمَا هبَّت عليه رياحُ الموتِ. اتّسعتْ عيناه، وازدادتا اتسَاعاً عندما دنوتُ لمصافحتِه، ولكن صديقي طَمْأَنهُ:

(إنما جاءَ لزيارة زميله المصاب، هكذا بنو أُرومتنا يا عادل، إنّ العفو شيءٌ في طَبْعِنا، والتسامح أصلٌ في أعراقنا، والسِلْم جَوهرٌ في قُلُوبُنا، وهذه الخطوة، لا يخطوها إلاّ مَنْ لا يحملُ في قلبِهِ ضغنَاً)

خاطبتُ عادلاً مُذَكِّراً:

(علمتُ بإصابتِك بعدما نجوتُ مِن قبضتكم المُحكمة بشق الأنفس، رأيتُ من المروءة زيارة أخي المُصاب، مهما اختلفنا في وجهات النظر)

كان ممسكاً بملاءَةٍ، يشدُّها بإِحكامٍ ويبسطها دون إِدراكٍ منه.

أجابَ بصوت مبحوح:

(لقد ناهزت الكمال!)

توقع أن أهاجمه على حين بغتة في ممرٍ ضيقٍ في الجامعة لآخذ ثأري، فجئته زائراً مسالما في داره.

وبدوري تساءلتُ في نفسي:» أيمكنُ لزيارةٍ مفاجأة لِمَنْ ضربك غدراً أنْ تكونَ كزيارة ملك الموت؟»

حملتُ معي حلوى لذيذة مِن ماركة «ماكنتوش» التي كان الإِقبال عليها كثيراً آنذاك ووضعتها أمامه، كنتُ قد قرأتُ أَنَّ الهدية، دليلٌ للمودةِ، وتُألِّفُ بين القلوب المتخاصمة وتزيل الضغائن.

جلستُ والتقتْ عيناي بعينيه. ولكنّه سرعان ما استردّ ناظريه بعيداً، فقد كنتُ زائراً عملاقاً .... قاهراً... منشرح الصدر في حجرتِهِ، والمَزار قَزَماً...مقهوراً.... منقبض الصدر في دارِهِ. ما أَقسى عقوبة التسامُح!

نهضتُ مُودِّعاً؛ فعانقتُه:

(نسألُ اللّهَ أنْ يديمَ عليك بنعمةَ الصحةِ، وأنْ تتلحفَ العافية غطاء، وتتوشح السَّعادة رداء)

لشدّ ما آمن بأنّ سلوى لم تحبني إلاّ لصفاء قلبي، لا لسحرٍ أسود، ولا لدجلٍ وشعوذة كما كان يتوهم.

وبنبرةِ حزنٍ عميقةٍ أوقفني وطلب أن أدنو منه ففعلت فهمس:

(اليوم فقط علمت أسباب علاقة سلوى معك، لقد أحسنت لنفسها كُلّ الاختيار، التسامح يعمل المعجزات)

●●●

فلمّا صرنا في الرجوع، قالَ صديقي:

(لن ينسى وطأة تلك الزيارة في قلبه طول حياته)

(لأنَّ العفو عند المقدرة، أشدّ إِيلامَاً مِن العصا العجراء عند الغدر)

بعد الزيارة، أحسستُ كمن تحرَّرَ مِن حِمْلٍ ثقيلٍ كان يكتمُ نفسي، فتنفستُ الصعداء، فألم الفتى وجزعه في داره، وتفطّر قلبه أمامي، كفاني مؤونة أخذ ثأري، وكم تفاءلتُ خيراً بِالزيارةِ. وبهذا التسامح. ومَا عليّ إِلاّ الانتظار لجني ثمرة تسامُحِي وذلك حقٌّ بلا ريب.

●●●

عَالِمُ القَرن

بعد انقطاع أملي في «**لن يطولَ انتظارُكَ**»، سمجتِ الجامعةُ مِن بعدِهَا، فتركتُ قاعات المحاضرة، وتَوَجَّهْتُ إلى ريفِ مدينتا الشرقية، للإشرافِ على موسم حصاد السّمسم، قبلَ أَنْ تتفتقَ سِيقَانُهُ، وتتدفقُ حُبَيْبَاتُهُ بفعلِ أشعة الشّمس الحارقة، فحصاد السمسم عملية عاجلة لا تحتملُ التّأخيرَ.

والزراعةُ، هي الأملُ الوحيدُ لنا للبقاء على الأرضِ، فتأتي في سُلَّمِ أولوياتنا، ويلي ذلك تربية الأنعام، وما خلا ذلك يُعَدُّ مِن الثَّانَوِيَات.

ويقع مشروعنا الزراعي في قريتنا الريفية التي تتكون مِن قبيلتين، عند مدخلها، تقع قبيلتنا الرَّاطِنة، ويلتوي الطريق شمالاً صاعداً، فيشقُّ خور لاحب، فتقع قبيلة العرب، ويقطنها عربٌ خُلصٌ، ذو بشرةٍ بيضاء، وهم مِن الأعيان والأشراف الّذين لا يُطْعَنُ في حسَبِهِم، لا يُرَدُّ حاجتهم.

نختلفُ على مشروعنا الزراعي، في بداية كُلّ خريفٍ لاستصلاحه واستثماره؛ لنجدَ فيه قوتنا ورزقنا. وُلِدنا فيها... ونَعمل فيها... ونَأكل منها.

نفرحُ حين يهطلُ المطرُ فتدر لنا الأرضُ رِبحاً وفيراً... ونحزن حين يحتجبُ فنأكل مِمَّا أدخرنا، وعند نهاية الحصاد نطلق ماشيتنا تمرح فيها ما شاءَ أَنْ تمرح حتى بداية الخريف فنسوقُهَا إلى مناطقَ بعيدةٍ؛ لترعى فيها وتعود مرَّة أخرى.

وفي وسط المشروع أنشأْنا نقطةَ تجمُّعٍ كبيرة لتجميع المحاصيل، ومخزن كبير لتخزين لوازمِ الخريف من الأمطار.

وفِي بطن مَجْرَى مائي، أقمنا سَدّاً لتجميعِ المياه، ويُعْرَف ب «**الحفير**»، يَظلُّ ممتلئاً حتَّى بداية الخريف القادم لِتَردَ فيه ماشيتنا، وهكذا شأننا.

●●●

ذهبتُ إِلى القُرَى المجاورة للاستعانَةِ بذوي القربى فلمْ أصادفْ ترحيباً منهم فخابَ رجائي، وأجهدني البحثُ عن عمالة فأعياني التفكيرُ، وكنتُ على وشك الاستسلام لليأسِ ولكن القدر أرادَ غير ذلك، للتعرّف على الشّاب الّذِي سيتزوج «**الجوهرة الأولى التي ترتدي ثياب كفن الموتى**» بطريقةٍ أشبه بلحظِ الغيب.

توقفتُ عند مسجدٍ عتيقٍ أثناءَ المغيب، فصَلَّيتُ فيه صلاة المغرب، فأمَّنا شابٌ مديد في مُقتبل العُمْر، رخيم الصّوتِ، سليم اللفظ، فصيح اللسان، شديد النفس، طويل المَد إذا تَلاَ.

وبعد أنْ انفض المُصلُون، ترأس الشّاب حلقة لتدريس «علم فنَّ القراءات»، فاتخذتُ موقعاً في زاوية مِن زوايا المسجد، منهوكُ القِوَى أتابعُ الدَّرسَ، بعقلٍ شارد، وطَرْفٍ ناعس.

أخذَني العجب بطريقةِ التّدريسِ التي كان يُلَقِّنُ بها الطُلاّب، وهي الطريقةِ المزدوجة «التلقي والمشافهة» وبأسلوبٍ سحريّ أَخّاذ.

وكان أحدُ الطُلاّب يقرأُ آيات بيِّنات مِن سورة هود « **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**». ويشرحُ الشّاب:

(اِقْرَأْ بالإمالةِ الصُّغرى، فإِنَّ الألف والياء إذا اجتمعتا، وجب خلط صوت الألف بصوتِ الياءِ بحيثُ يكونُ فيها الغلبة للألف كما قرأ حفص – «مجْرَاهَا»)

ظلّ يتأملني بابتسامة ويشرحُ لطالبٍ آخر:

(وأنتَ اِقْرَأْ بالإمالةِ الكبرى بأنْ تجعلَ نسبة الألف والياء متساوية، كما قرأ ورش وأبي عمر البصري – «مجْرَيهَا»)

وكان يتدفق العلم من لسانه الذّرب، كتدفُقِ المطرِ الغزير في القيعان، ويمتلكُ سَمَعَاً مُرهفَاً، يكتشفُ الأخطاءَ التِي تُرتكبُ في آنٍ واحد.

اِنْفضّ الطُلاّب مِن حلقةِ التّدريس، فدنا منّي لمصافحتي، وكان في الرّابعة والعشرين من عُمره تقريبًا، مديد القامة. مفتول العضلِ، وكأَنَّ عافية الشَّباب كلها في بدنه، ويَتزَيَّن فمه بسنتين مِن الذّهبِ.

قدّم لي شخصه العزيز، وصافحني بيدٍ قوية كمطرقة الحديد:

(أعرفك بنفسي، أنا الأمين بابكر ولكن جرى على الألسن، مناداتي بالأمين تلج، لمهنةٍ كنتُ أمتهنها)

أجلسَني بجانبه، كما لو كنا على علاقةٍ وطيدة منذ أمدٍ بعيدٍ، فافترقنا ثم تلاقينا.

وبدوري عرّفته بنفسي، وعندما علم أننا من قبيلةٍ واحدة، دعاني إلى صدر مجلسه، فاعتذرت:

(عفواً! فإنَّني على عجلةٍ مِن أمري، وقد جئتُ أسترشدُ بكم للمساعدةِ للحصول على عمالةً لحصاد السّمسم)

نظر إليّ نظرة فيها كثير من الاحترام والتقدير. فقال:

(واأسفاه! إنّه لطلبٌ قد لا يكلل بالنجاحِ، تفضل بالجلوسِ في المجلس، رَيْثَمَا أعودُ فربَّمَا وجدتُ لك حلاًّ)

غابَ عنَّي برهة، ثُمَّ قَفَلَ راجعًا يحملُ قهوةً.

طافَ بنا الكلامُ إلى مذاكرة علوم شتَّى، ولَمْ أرَ شاباً مثله معرفة وعلماً، فقد أخذَ في كُلِّ علمٍ مِن العلوم حظاً وافراً، ومِن كُلِّ فنٍّ مِن الفنونِ سهماً مِن المعرفة، أدباً وحكمةً، وخطّاً وكتابةً، وحساباً وهندسةً، وفلكاً ومجرة.

كان متقدمًا في علم الفقه والرّواية والحديث، والجدّ والهزل والشّعرِ. فخرجتُ بانطباعٍ، بأنَّ الشّاب عالم من علماء القرن، وإمامٌ في اللغة والأدب.

أكثرُ مَا يجذبُكَ إليه حديثه، وسهولة ألفاظه. وهندامه، ويدلُ على ذلك خزانة ملابسه، فيها مِن الثّياب أحسنها، ومِن الأنواع أجودها.

ناقشني في ضروب الكلام، وبعدما قرأ يأسي قال:

(جالستُ أخلاطاً مِن أهل العلّم والمعرفة، ولكن جَذَبَني تهذيبُ ألفاظِكَ، ورِقَّةُ معانيها، ثمّ إنّ حالتك أوجدتْ في نفسي الذّهاب)

يفكر مليًا ويضيف:

(أَعِدُّ العُدَّةَ للزواجِ، وفي مسيس الحاجة إلى المال، سأذهب لعلّ اللّه يحدث في ذهابي أمرا)

أحسستُ بصيصاً مِن الأمل، لانفراج كُربتي، ولكن لم تصدقْ أُذُناي، بأَنَّ الشَّاب سيرافقُنِي للحصاد!

●●●

في صباح اليوم الثّاني، تسلحنا بلوازمِ الحصاد، ووصلنا عند الأصائل، فاقتحمنا حقل السّمسم في حينه.

وقد كانتْ عملية الحصاد، أشبه بالمعركة، وجدنا السّمسم، مرصوصا كسيقان عروسٍ حسناء تنتظرُ فارسَها ليلتهمها، وقد اكتسى لوناً مصفّرا.

وكُنَّا نلجأُ أحياناً، عند اشتدادِ حرارة الشَّمسِ، إلى الحصاد في الليالي القمرية التي تزامنتْ مع بداية الحصاد كَسْبَاً للوقتِ، حيثُ أَنَّ حصادَ السّمسم، مرتبط بأجلِ نضوجِهِ، وهو ما يتراوح بين (١١٠) يومٍ مِن تاريخِ نثره في الأرض إِذا كانتْ الأَرض مرتوية، و (٩٥) يوماً خلا ذلك.

وبدأ الكُلُّ يتغنَّى بأبياتٍ مِن الشّعرِ والأغاني العاطفية بإيقاع صوت المنجل على سيقان السّمسمِ، وطرق مسمعي، صوتٌ عذبٌ ساحر ما سمعتُ مثل ترنُّمه مُدَّة حَياتِي! فالتمستُ طريقي إلى مصدر الصوت، ولشدَّ ما أخذني العجب، عندما رأيتُ أَنَّ المغنّي هو الشّاب/ الأمين تلج! وكادَ أن يحلّق سروراً، وطرباً:

مِن حور الجنان أمْ أنتَ إنسان الكمال؟

هل أنتَ الملاك جيت تَوَرِّي النَّاس الجمال؟

فلبثتُ حائراً، أُرهفُ سمعي، فنظرَ إِليَّ وابتسمَ، ثُمَّ شرع في أُغنية أخرى، فبدأ الطَّربُ يسري في مفاصلي:

أنا مِن صَفَاك مسحور

باللّه أنت ملاك؟ ولا مِن حسان الحور؟

يا ناعس الأجفان

قفلتُ مِن حيثُ أتيتُ، وسألت شقيقه الأكبر:

(أيعقلُ أَنْ يترنّم عالم القراءات، ومُقْرِئ القرآن، وإمام المسجد بأغانٍ عاطفية؟)

فنظر إليَّ نظرةَ إِشفاق:

(لا غرابة في ذلك، إِنَّه عالم القرن، ومُجَدِّد زمانه، فطبائعُ النَّاس تميلُ إِلى حب التجديد، وتعشقُ كُلَّ جديد؛ لتتواكبَ مع الحياة السّائدة. أما علمتَ أنَّ الوفودَ تأتيه مِن مُدن شتَّى في شهر رمضان؟، فإنْ ترنَّم بالأغاني، فقد أجازها إذن)

(وأية عبادة يقيمها حتّى تأتيه الوفود؟)

(إِحياءُ ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان)

ويضيفُ فيزيدنِي حيْرة:

(في ليلةٍ مِن لياليها، أَحيا قيامَ ليلةِ القدرِ بركعتين فقط! فقرأَ في الركعةِ الأولى، سورة البقرة كاملة، وفي الركعة الثانية قرأ سورة يوسف، ووصل آخرها بأوّل سورة الرعد، وإبراهيم مِن غير بسملة، وبصوتٍ رخيم، براوية خلف بن حمزة!)

سألتُه بغرابة:

(يا للهولِ، ومَنْ يتحمّلُ الوقوف لأكثرَ مِن ساعة؟)

(كان يأسرُ قلوبَ المصلين بفنِّ القراءات، ويجيدُ مفاجأتهم فِي كُلِّ آية، بتغيير حروف التاء ياءً...والباء ثاءً... والياء نوناً، فيخرج المصلون، ونور الإيمان يغمرُ قلوبَهم)

●●●

بدأتْ شخصية عالمِ القرنِ تثيرُ فضولي، وتغرسُ فِي نفسي العجبَ، وفِي أوقاتِ الرّاحة، جلسْنا على انفراد، وداخلتُه فِي الحديثِ:

(لقد أطربتَ الخاشعَ، وأفهمتَ السامعَ، وأطلقتَ النفس مِن رباطها، لم أسمعْ صوتاً أشجى مِن صوتِكَ، وأنتَ تَتَغَنَّى بالأغاني العاطفية)

أجابَ ضاحكاً:

(الغناءُ مرتعُ النفس، وربيعُ القلب، يهشُّ له البدن، ويرتاح له الضمير، وهو زاد العاملِ فِي حصاد السّمسمِ، وأنا عامل فترنّمتُ لطردِ الكآبة، ولأروّحَ عن نفسي)

وجدتُ مدخلاً للنقاش فسألته:

(ألا يتعارض الغناءُ مع ما يحمله جوفكَ مِن القرآن الكريمِ؟)

ردّ بفلسفة العُلماء:

(الغِنَاءَ أصله الشّعِر الّذِي أمرَ به النَبِيُّ (صلّى الله عليه وسلَّم) وندبَ أصحابه إليه، فقالَ لحسان بن ثابت: «**شُنَّ الغارةَ عليهم فوالله**

لشِعركَ أشدّ عليهم مِن وقعِ السهامِ في غلسِ الظّلامِ» وأكثر شعر حسان بن ثابت كان يُغنى به)

أنكرتُ ذلك إنْكاراً عظيماً فأجبتُه:

(لقد أخطأتَ في تأويلها، فالغناء يبعث على اللهو، ويدعو إلى الفجور ويُقَرِّب الشعور لشبق الرجل بجسدِ المرأة، لأنَّه موسيقى يتزين بمزامير إبليس مِمَّا يعني أنَّه باطلٌ في أصلِهِ)

يَتَعَمَّقُ فِي فلسفته:

(الغناءُ ليس مِن أكبرِ الكبائرِ، ولا مِن أصغر الصّغائرِ، فالعربُ تعدُّ الغناءَ كلاماً وشعراً ونثراً، أمَّا فارس فتعدُّهُ أدباً، والروم فلسفةً، وكلامُ العرب قد تجدُ فيه الحسنَ، وقد تجدُ فيه القبيحَ، مَن كرهه تركه، ومَن استحسنه ترنَّمَ به، وأنا استحسنته فترنّمتُ به!)

كان ردّه مقنعاً، ولكن جاريته في النِّقاش:

(لقد أقسمَ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أنَّ لهو الحديث، هو الغناء)

أجابَ بهدوء:

(هذا قول قد يطول، وله وجوهٌ كثيرةٌ، ومعانٍ مختلفة، وقد نزلت الآية في موضعٍ آخرٍ لقومٍ كانوا يشترون بعضَ الكُتُبِ يُضاهُون بها القرآن الكريم، وقد اختلفَ العُلماء في جواز الغناء، ومَن قالَ إنَّه حرامٌ كذَّبه النّظر، ولكن لا يكره الغناء، إلاّ مَن به آفة في حاسة النفس، أَلَم تقرأ قول الإمام أبو حامد الغزالي وهو أعلم الأمة؟:

«مَـن لم يحركـه الرّبيـع وأزهـاره والعـود وأوتـاره؛ فاسـدُ المـزاجِ ليـس لـه عـلاج»)

كنت مُصراّ في رأيي فجادلتُه:

(ولكني قرأت، أنّ الغناء رفث، والاستماع له يسقط للرجل مروءته)

أجاب بتواضع:

(إنَّمَا الرفثُ ما كان عندَ النساءِ، هكذا قال عبد اللّه بن عباس (رضي اللّه عنه) الّذِي أنشدَ في المسجدِ الحرام وهو مُحْرِمِ:

«وهنّ يمشين بنا هميسًا .... إنْ تَصْدُقِ الطيرُ ننكْ لَمِيسًا»)

يواصل حديثه دون أنْ يسمعَ لِي رأياً:

(وما قولك في أنس بن مالك عندما سمع أخاه البراء بن مالك يُغني، فقال له ما هذا؟ قال: أبيات عربية أنصبها نصبًا).

يتابع:

(وما قولك في الصحابي الجليل أبي الدرداء الّذِي قال: «**إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملها**»)

سألتُه:

(أتريدُ أَنْ تنفي حُرْمَةَ الغناء، وهو يُلْهِي عن ذكرِ اللّهِ، ويصفُ جسدَ المرأةِ التي وصفتَهَا أنت بحور الجنان؟)

كان في لسانه طلاقة:

(ألا فاعلم فإنْ وجدتَ شيئاً لا تستطيع وزنه بالجرام، وحساب عدده بالأرقام، وقياس مساحته بالأمتار فهو إمَّا حَسَنٌ أو قبيحٌ، وأمَّا عن اللهو فقد

قال الإمام علي بن أبي طالب: « **احموا هذه القلوب، والتمسوا لها طرف الحكمة فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدانُ، والنَّفس مؤثرة للهوى**»)

يواصل:

(ألا تعلم أنَّ سيدَنَا سليمان عليه السلام، أَلْهَاهُ جمالُ الخيلِ عن الصَّلاةِ حَتَّى غابتِ الشَّمس فعاقبها وقطعَ رقابها، وأَمَّا الترَنُّم فشعراً مكسواً لحناً).

تيقنتُ تمامًا أنّي لا أستطيع مجاراته في النِّقاش، فرأيتُ أن أكف عن المجادلة:

(الاختلاف في الرأي يبدأ بلطف وينتهي بجفاء، فلندع اختلافنا في إجازة الغناء جانبًا، فمن من المغنيين يطربك شعره؟)

أجاب كومض البرق:

(السيّدة أم كلثوم.... السيّدة أم كلثوم):

(ما أحسن ما قلت! ولكن أين بقية أصوات كبار المطربين المشهورين في مسعك؟)

كأنّه أخذ من كلِ العلوم أحسنها:

(الشِّعر غناءٌ ثمَّ استماع.... وليس طربٌ ثمَّ رقص، فالسّيدة أم كلثوم، كانت تُغنّي لنفسها أوّلاً، ثمَّ تترك الجمهور يضع خدّه على يده ليستمع. فهل رأيتَ من رقص ثمَّ طرب في حفلاتها؟)

ولكن دخلَ علينا شقيقه الأكبر فمَا عادَ لحديثِنا مكان.

●●●

كفن الموتى

وفي يوم الجمعةِ، ارتديْنَا ملابسنا، وأخذْنَا زينتنا، للذهابِ إلى المسجدِ العتيق، لأداءِ صلاةَ الجمعة المباركة وشعائرها. وقد كانتْ ملابس الشّاب العلاّمة، في غاية التناسق والهندام.

سألَني سؤال بالغيبِ أشبه:

(أتدري إلى أين نحن ذاهبون؟)

سؤالٌ سهلٌ في ظاهره، فأجبتُه دون تفكير:

(إلى خطبة الجمعة المباركة)

سوّى وعدّل عمامته البيضاء، وسكبَ عليها العطرَ، وقالَ دونَ أنْ ينظر إليَّ:

(كلا.. بل إلى خطبةِ الجوهرة العذراء المطلقة)

حديثُه ضبابي لا يُفهمُ، كحديثِ المريد في أذكار التصوّف، يتمتمُ بلغةٍ وحده يعرفها.

سألته باندهاش:

(كيف يستقيم هذا يا أخي؟)

يجيبُ بلغةٍ أكثر غموضاً:

(أنا الغائبُ الّذِي يرى مَا لا يراه الشّاهد، وأنا الّذِي أنفي ما يُدرَك بالعيانِ)

انعقدَ لساني؛ فلَمْ أجبْ، يواصل في ضبابته:

(يا أخي، أثناء الصَّلاةِ، وأثناء السُّجودِ، وأثناء الخشوعِ سنتعرّفُ معاً على امرأةٍ مطلقة لم تزل عذراء وسأتزوجها بعد ذلك بإذن الله تعالى).

توقفَ عقلي فأجبتُه:

(إنَّ حديثك خارج نَسَق العادة، ولا داخل حتَّى في السحر)

(سأطلبُ مِن الإمام، أنْ يسمحَ لي بإلقاءِ الخطبةِ، ولحظتَهَا ستعرفُ أسحرٌ هذا أم أنك لا تبصر؟)

●●●

ذهبْنا إلى المسجدِ وأنا أضربُ أخماساً في أسداسٍ بما طرق مسمعي، اتخذْنا موقعاً في الصفوفِ الأولى، رَيْثَمَا يأتِي الإمام، ولكن شاءتِ الأقدار الّتي تشبه العَمَد والقصد، أنْ يتأخرَ الإمام عن الحضورِ، فسادتْ حالةٌ مِن الهرجِ داخل المسجد، ووقعتْ مشادات كلامية، واشتدّ اللغط فوقف أحد المصلين مخاطباً:

(مَنْ يأنسُ في نفسِهِ الإمامة، فليتقدم ليؤمّ المصلين)

وبسرعةٍ كالريحِ العَاصِفة، نهضَ الشّاب العلاّمة، فصعدَ المنبر برباطةِ جأشٍ وسكونِ جوارح، فعظّمتُه ورُحتُ أُخاطب نفسي: «هكذا حياةُ العظماءِ إذا صعدوا منصَّات المنابر، أو منصّات المشانق، فالمنصّات، أرجوحة العظماء!»

جذب انتباه المصلين منذ الوهلة الأولى، بصوتِهِ الجهوري، فهزّ به أركانَ المسجد، فانحنى المنبر تحية وإجلالاً، فتساءلَ المصلّون عجباً: مَن يكون هذا الشّاب العجيب؟!

حَمَدَ اللّهَ، وأثنى عليه، وصلّى على نبيه (ﷺ) ثُمَّ بدأ بمقدمة بليغة قصد بها أن تنفذ في قلوب المصلّين كما ينفذ الغيث المدرار في التربة القاحلة.

فخطب:

(أما بعد فإِنَّ رأسَ الخطابة الطبع... وعمودها الدربة...وحليها الإعراب... وجناحاها آية الكلام... وبهاؤها تخير اللفظ.... وتلخيص المعاني رفق... والاستعانة بالغريبِ عجز، والخروج عن هذه الخطبةِ سهاب)

بحثتُ عن المقدمة لاحقًا فوجدتها في كتاب «**البيان والتبين**» لأبي عثمان الجاحظ.

ثم استرسلَ في خطبةٍ ناريّة، لم يألفْهَا أهلُ القرية، شَكَّكَ بها المستبصر، وردّ بها المرتاب.

تحدَّثَ عن الجنّةِ والنّارِ، وأجادَ في شدّة وصفهما، ورسمَ لهما صورةً حِسيّة، مُقَرَّبَة لأذهانِهم، كمَنْ يراها رأي العين، حتّى أنَّ كُلَّ مَنْ كان في المسجد، صار مُرْهِفَاً للسمع، ولم تبقَ له جارحةٌ، إلاّ وهي أُذُن تشربُ.

يواصل:

(كونوا مِمَنْ إِذا مَرَّ بآية فيها ذكر النّار، شهق شهقة كأَنَّ زفير جهنّم في أذنيه، ولا تركنوا إِلى الّذين ظَلَمُوا فتمسّكم النَّارُ وما لكم مِن دونِ اللّهِ

مِن أولياء ثُمَّ لا تُنْصَرُون... ولا تكونوا كالإمامِ الجائر، يُلْقَى فِي نارِ جهنّم فيدور دور الرّحى، يرتطمُ بجمرةِ النَّارِ إلى الأبدِ)

●●●

نهضَ إلى الخطبةِ الثانية، فتحدَّثَ عن ذَمِّ الدُّنْيا، فاشتدّ انتباه المصلين! فاختار كلماتٍ رنَّانَة بإدخالِ الرُّعبَ فِي قلوبِهِم:

(أُحذرُكُم مِن الدُّنْيا، فإنَّها حُلوةٌ خضرة، حُفَّتْ بالشَّهواتِ، فكم مِن واثقٍ بها قد فجعتْهُ... وذي طمأنينةٍ إليها قد صرعتْهُ... وكم مِن ذي اختيالٍ فيها قد خدعتْهُ... وكَمْ مِن ذي أُبّهةٍ فيها قد صَيرَّتْهُ حقيراً... وذي نخوةٍ فيها قد رَدَّتْهُ ذليلاً فِي نفوسهم)

بحثتُ فيما بعد فوجدتُ أنَّها خُطْبَة لقطري بن الفجاءة أحد أبطال الأزارقة (الخوارج).

وختم الخطبة قائلاً:

(واحسرتاه! فقد جعلنا العملَ الصَّالح، تحتَ أقدامِنَا، وزينة الدُّنْيا فوق رؤوسنا، فلبسْنَا فِي دُنْيَانَا الملامةَ، فحذاري أنْ يكون زادنا بالآخرةِ النَّدامة، فيكفينا مِن الدُّنْيا، مِقْدار زاد راكبٍ، وما خلاه هالك. والسلام)

اصطفَّ المُصَلُّون للصلاةِ، ففي الركعة الأولى، قرأَ أواخر سورة آل عمران «**إنَّ فِي خَلْقِ السّمَاوَات وَالأَرْضِ وَاخْتلَاف اللَّيْلِ والنّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ**» وبحلاوةِ صوتِهِ، وحرارةِ نبراتِهِ، اخترقَ قلوبهَم، فقرأ بمقاماتٍ صوتية متنوعةٍ، ففي البدءِ قرأَ بالمقامةِ التي تقعُ فِي الأذنِ

كنغمةٍ حزينة، تسري قشعريرة في الجلدِ، فيشعرُ المُصَلِّي مِن خلالها منذ أوَّل وهلة بالخشوع، ثُمَّ ارتقى إلى المقامةِ الأعلى التي تهيأ القلبَ للتفكرِ في الآية التي تليها بتتابعية منتظمة، فلا يخرجُ المُصَلِّي مِن الصلاةِ بعدها أبداً، فعرَّج بهم إلى فضاءِ عالم الملكوت والمجرّات، فرسَم لهم المجرّات، رسماً حسياً، فشاهدوا آياتِ الكونِ، وعظمةِ اللّه وإبداعهِ في تعاقب الليل والنَّهار، كأَنَّهم كانوا يجحدون بتلك الآيات!

كانت كلماتُ النارِ، تأسرُ أسماعهم، وتلسع أبدانَهم مِن قوةِ لفظها؛ كأنّ المُصَلِّي يشعرُ بِحَرِّهَا.

●●●

وفي الركعة الثانية صَلَّى بآياتٍ بيناتٍ مِن سورةِ النَّملِ» **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ والطّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**» استرسل في القراءة فأطال الركعة ولم يتململ أحد!.أخذَ بخيالِ المصلين، فرأوا مشهدَ الهدهد، ومملكَةِ سبأ رأي العين، ثُمَّ رأوا موكب الجِنِّ، والطير، والنّمل، مشهداً مباشرا يتصوَّر أمامَ أعينِهم، فخشعَتْ قلوبُهم، وسكنتْ جوارحُهم، وكأَنّ على رؤوسِهم الطَّير!

عرج بمقامةٍ أخرى بصوتٍ رهيب، فيها نبرةٌ مِن البكاءِ، وعندما سجدَ في آية السّجدة «**أَلّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الّذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**» أطالَ السجودَ فاختنقتْ الصفوفُ الأولى بالبكاءِ، وناحُوا نواحَ الحزينِ، وأيقنُوا أَنّهم

سجدُوا سجْدَةً صادقةً كأنَّهم لأوّل مرَّة، يسجدون للّه بطمأنينة، فقد كانتْ قلوبهم في مرابطِ مواشيهم، وفي مشاغل الدُّنْيا وزهرتِهَا، فلمْ يتمُّوا ركوعاً، ولا سجوداً، ولكن اليوم أبدانهم تتململ تَمَلْمُلَ السَّليمِ، وجوارحهم منفصلة عن أبدانهم إلى غيرِ رجعة.

●●●

فبينما أنا أتَعَجبُ في أمْرِ هَذا الشّاب العجيب، وَأتساءلُ: كيفَ سأتَعَرّفُ على الجوهرة المطلقة التي سمّاها ونحن الآن في السجود؟

فجأة تَنَاهى صوتُ امرأةٍ في المكان المخصص للنساء، تنوحُ نوحَ الثَّكلى المتوجِّعة، كأنّمَا تنوحُ كُلَّ إيمانها في تلك السجدة لشدّ ما امتلأ قلبها خشوعاً وإيمانا. لحظتها، أوشكَ عقلي أنْ ينفجرَ فرفعتُ مِن السُّجودِ دونَ الإمامِ واستويْتُ جلوساً أُفَكِّرُ في أمر هذا الشّاب العجيب، حَتَّى ما شككْتُ قطّ أَنّه وليٌّ مِن أولياءِ اللّه الصّالحين! ولكن كيف تعرَّف عليها؟ وكيف علم أَنّها امرأة عذراء؟ وأَيْنَ رآها؟

وما أَنْ فَرِغَ الشّاب العلاّمة مِن الصَّلاةِ، حتى اقتربتُ مِنه، فهمستُ في أُذُنِهِ:

(لقد عرفتُها، ولكن كيف اهتديتَ إِلى ذلك الغيب؟)

أشارَ بحركةٍ من يدِهِ أَن أَصْبِرَ ريثما ينتهي مِن الباقيات الصالحات.

●●●

خرجَ المُصلُّون، وقلوبُهم مِن النّارِ وَجِلَة، وأعينُهم مِن الموتِ المتربصِ بهم باكيّة، ودموعهم على خدودهم جارية، فغَابَ السُّرورُ مِن أساريرِهِم، وخيرُ الموعظةِ مِن خطيبٍ مُخلص، وسامعٍ مُنصف.

اصطفَّ كُلُّ مَنْ كان في المسجدِ لنَيْلِ شرف مصافحة العلاّمة الأمين تلج، إمَّا بتقبيلِ يدهُ، أو بتقديمِ الدَّعوة لتناول وجبة الغداء.

في لحظتها، أحبَّته القرية بأجمعها، كحبِّ أمّ موسى لموسى عليه السلام، وأثنُوا عليه خير الثناءِ، وأكرموه، فتبين لهم أنه أخطب الأئمة قاطبة، جمع بين الشِّعر والخُطب، والبيان الحسن والسير الحسان، فهل كنا مغالين، إذا قُلنا إنَّ الشّاب العلاّمة عالمٌ مِن علماءِ القرنِ؟

بعدما عدنا، سألتُه:

(أوشكَ رأسي أنْ ينفجرَ مِن أمرِكَ، باللّه عليك قُلْ لي قصَّة هذه المرأة؟)

أجابَ بطمأنينة:

(يا أخي، لَمْ يبقَ مِن النّبوةِ إلاّ المُبشّرات، وهي الرّؤيا الصالحة. رأيتُ فيما يرى النّائم، أنّي سأؤمّ المصلين في تلك القرية، وسأتزوج امرأة مطلقة عذراء تنوحُ أثناءَ السُّجود، وتكرر هذا المشهد ثلاثة أيّام مُتَّصلةِ منذ قدومِنَا)

●●●

وفي المساءِ، زارنا نفرٌ كريمٌ مِن أعيانِ القرية، فتسامرنا تحتَ أشعةِ القمرِ الفضيةِ. ذبحنا لهم كبشاً، فطبخناه وتعشينا. ثُمَّ أنّهم قدَّموا لنا دعوة، لتناولَ وجبةَ الغداء.

وفي اليوم التالي لبّينا الدّعوة، وأُستُقبل الشّاب العلاّمة استقبالاً عظيمًا يليقُ به كعالم من علماء الأُمّة، فجلسَ في تواضعٍ كعالمٍ مُتَزنٍ...حكيم يبتسمُ عند الضرورة، ويضحكُ بحذر، مُسندًا ظهره على حائط «الكُوخ»، وعلى مقربةٍ منه وُضِع إناءٌ كبيرٌ ممتلئٌ بالحليب، وكان الحليب طازجاً ذا رغوةٍ بيضاء كالقطنِ، يطفو فوقه قدحٌ مُجَوَّف مِن ثمَرةِ اليقطين.

وكان المجلسُ يَضُمُّ التالد القديم، وهم كبار السِّن من أعيان القرية، وأصحاب الحلّ والعقد والربط، والطارف الحديث، وهم من الشباب المنسوبين إلى العِلم والأدب والمُناصحة.

ألقى الشّاب العلاّمة درساً عن قَدَرِ الله ومشيئته، وأنَّه إذا جاءَ، لا يُؤَخَّر لو كانوا يعلمون، وحدَّثني فيما بعد، إنّها كانت رسالة غير مباشرة لأعيان القرية، للإذعان لأمر زواجه منهم.

سأَلَهُ أحدُ المنسوبين للعلم:

(أرى أَنَّك إلى خطيب ثوري أقرب مِنه من خطيب ديني. فَمِن أين لك هذه اللغة الثورية؟)

كرعَ جرعاتٍ مِن الحليبِ الطازجِ حتَّى التصقتْ رغوة الحليب بشاربِهِ؛ فأصبح كالهلال فأجابَه:

(خُطب زياد بن أبيه، وقطري بن الفجاءة، والحجاج بن يوسف الثورية، ألهمتْنِي المعاني فتدفق الكلام)

كرعَ جرعةً مِن الحليب ولعقَ شفتيه، فسأله آخر:

(لو أنَّك وظَّفْتَ موهبتك الخطابية في دنيا السِّياسة، لنلتَ جاهاً عظيماً، وسلطاناً مجيداً، ففي أي جامعةٍ درستَ؟ لعلّها أكسفورد؟)

ضحكَ حَتَّى اهتزَّ جسده، ومسحَ شاربه براحتِهِ ليزيلَ آثار رغوة الحليب، فقال:

(درستُ في الأزهرِ الشريف، وحفظتُ القراءات السبع عن طريق الشاطبية، وكان عقلي يعملُ كماسحات الأوراق، كُلُّ ما أقرئهُ مِن أمهاتِ الكُتُب يظلُّ يَرِنّ في ذاكرتي ولا تطمسه السنين، ولكن النّاشئ فينا في السِّياسة من بني أرومتنا، إذا وَطِئَ مَنْصب الرّيادة، وتزوّج مِنْ أهلِ الفضْل، كان أشدّ إنْكاراً لِقبيلتنا)

سأله آخر بعدما هشَّ الذباب مِن إناء الحليب:

(إنَّك ذو دهاء وعلم وأدب، وأرى أنَّ قريتك ليست بالمنطقةِ الصالحةِ لاستيعابِ عبقريتك الفَذَّة، فلو أقمت عندنا نشرنا علومك، ونخصك بتعليم ولاة أمورنا)،

شفطَ جرعةً كبيرةً مِمَّا تبقَّى مِن الحليبِ في جوفِهِ. فَغُصَ به؛ وسعل سُعالاً متواصلاً، ولم يستطع الإجابة، فأضاف أحد الأعيان:

(وسنقومُ بإنشاءِ «مركز لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه»، لتقديم الدروس الدينية للقرية، ولك راتبٌ عظيمٌ)

وكان الشَّاب العلاَّمة لطيف المزاح، جميل المداعبة، فقال:

(ولكن على أنْ تقتطعُوا لي أرضاً أزرعُها، وتزوجوني منكم، فلا يستوي أن أكون عازبًا ومقرئ للقرآن)

آه... انقلبَ صفاءُ المجلسِ إلى كدَر، فأنكر عليه التالد القديم هذه الفكرة أشدّ النّكران، يرون أنَّهم أصحابُ التَّفاخُر، لهم الأصل الّذِي يفتخرُ به العجمي، ولا تتكره القبائلُ الأُخرى، فكيف يخلطوا أنسابهم، مع ذوي البشرة السّوداء؟ فالزواج منه الفُرقة والتخريب.

قَرَّعَهُ شخصٌ مِن الطارف القديمِ يُدْعَى البلُولة أَشَد التقريعِ:

(ألا فاعلمْ، لا نُزَوِّجُ حرائرنا عبداً، وإن بلغَ علمه الثُّريا)

وكان الشَّاب العلاّمة راجحَ الحلمِ، ساكنَ الجناحِ. مسحَ على وجهه وسادَ صمتٌ مُحرج، فتحمَّل غَلاَظة سَفَهه بصبر.

انتصبَ واقفاً، وقَالَ بلغةِ التصوّف التِي لا يفهمها أَحد:

(يكفي المرء أنْ يقرأ القرآن بالقلبِ، «ليمتزجَ الماءُ بالماءِ، وينال ما يتمنَّى»)

رأى شباب القرية، أَنّهم أولى بشرف العِلم لجيلهم، وأولى بشرفِ ذلك الحسب، فالزواج مِنه الأُلفة والتقريب. فاللعنة على العنصرية أينما حلّت.

فاحتدمَ نقاشٌ بينهم طوال أسبوع، وخلصوا أنْ يُزَوِّجُوه امرأة مُطَلقَة بقايا رجل، ذات خُلُقٍ ودين، حبًا فِي إنشاء المركز.

وكان الشَّاب العلاّمة يعلمُ أَنَّه ما طلبَ شيئاً، إلاَّ وجَنَا ما غلاَ ثمنه.... وثَقُل حمله.... وطابَ مَطْعَمهُ....

وما وطأتْ قدماهُ أرْضَاً، إلاَّ غنِم خيراتها، وسيعلم غداً، بأنّ هذه الزِّيجة ستكشف سرّاً.

يضيف الشّاب زهواً:

(وجدتُها كطفلة قاصرة.... جوهرتها عذراء.... لم يعبثْ بها عابثٌ.... طلَّقَها زوجها على أنْ تكتمَ له سرَّاً بأنه «عِنّين» -**عاجز عن الجماع**- تلك هي المرأة التي كانتْ تنوحُ أثناء السُّجود كما رأيتها في المنام تمامًا).

كان الفرحُ لا يسعه:

(وجدتها كبيضةٍ مكنونة.... طَيِّبٌ ريحُها..... مليحٌ نحرُها..... فيها أنبلُ العواطف..... وأقدسُ المشاعر...... قلبها يفيضُ إيماناً وتقوى...... وفوق هذا وذاك....... دسمةُ الشراب...... لذيذة العناق.....، تذوبُ مع جسدِي، كما يذوب الرصاص الكامن في النَّار الحميم).

أمسكتُ رأسي متعجّباً:

(تاللّهِ لولا أنّ قصتَّكَ تمثَّلتْ أمامِي، لحسبتُهَا مِن نسجِ الخيال)

(يا أخي، لو تطاولَ عليك العنصريون؛ ما عليك إلاّ بحُسنِ الخُلُق والتمسك بالقرآن، فإنَّ اللّه يرزقُكَ أغلى ما يملكون، لاستصغارهم بفضل حُسنِ الخُلُق الّذِي وصف اللّه تعالى به نبيه «**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**»)

أمسكني من ذراعي كأنّه يُلقي محاضرة:

(يطأ العنصريون رقابنا بأقدامهم، ويأْبَى تعظيمنا للقرآن الكريم إلاّ أنْ يرفعَ مقامنا قدراً، كالشُّعلة من النار تضربُها لإِخمادِها فتأْبى إلاّ ارتفاعاً)

التهب عقلي من حكمته فأجبتُه:

(لقد رمُوا لك عظاماً يابسةً لتصيبها، فإذا بك تتذوق أطعم اللحوم البشرية، وتمتص أجودَ العُصارات الجسدية)

●●●

وبِحُسنِ خُلُقِه اندمج الشَّاب العلاّمة بعد فترة، مع كبار السِّن كامتزاجِ الماءِ بالماء، فتسامحت النّفوس.... وماتتِ الضّغائن.... وذهبَ الحسد.... وسكنَ الغضب.... وتعلَّقتْ قلوبُهُم بِهِ، كتعلُّقِ قلبِ نبي الله يعقوب بالنبي يوسف عليه السلام.

●●●

وبعد خمسة عشر يوماً مِن بداية عملية حصاد السّمْسم، بدأنا مرحلة أخرى من الحصاد وهي عبارة عن تجميع حزمتين محزومتين جيّداً، وطَرْق إحداهما بالأخرى بعد جفافها فينساب السّمسم على البِساط، ثُمَّ يتمّ تعبئته في جوالات، وجمعه في نقطة واحدة.

وهكذا تمكَّنتُ مِن الانتهاء مِن عملية الحصاد البدائية آنذاك، وحظيتُ بموسم وفير، وكانتْ الغلّة خمسمائة وخمسين جوال.

تساءلتُ بأملٍ عظيم: «هل قصَّة الشّاب العلاّمة/الأمين تلج ستشبهني يوماً، وأتزوج الجوهرةِ الثانية العذراء التي ترتدي كفن الموتى؟»

●●●

الباب الثالث

«عَمَلِية حَرْق المراحِل»

إيقاع لُغةِ الكيمياء

حَالَما انتهيتُ من عمليةِ الحصاد، عُدتُ في اليوم التالي مباشرةً إلى الجامِعة مُثقلاً بأمراضٍ وأسقام، ولدغاتِ ثعابين وعقارب، واكتسى جلدي بلونٍ داكنٍ ممزوج بعبق السِّمسم والسَّمك الجاف.

وما أن ولجتُ حجرتي، إلاّ وتفاجأتُ بوجود صديق جديد في انتظاري، صديق جميل الطلعة والأناقة وكان هو الفتى عادل.

انكبَّ عليّ وعانقَنِي بشوقٍ وهو يتحاشى النَّظر في وجهي:

(سرني أنك عدت بالسلامة)

رددتُ له السلام بعبراتٍ مفعمة بالعطف والحنان، حمل أمتعتي ووضعها في خزانة الملابس، وجلسنا نتبادل النظرات، تفطّر قلبي من انكسار ناظريه أمامي بعدما أدرك قيمة العفو والتسامح.

عندئذ قالَ بصوتٍ يَنِمُّ عن أسفٍ عميق:

(التهجّمُ عليك، كان جهلاً مِنّي بأخلاقكَ الحميدة، فالآن حشرتني في زاوية ضيِّقة، لا أجدُ إلاَّ أنْ أحْنِي رأسي حياءً أمَام ناظريك)

ربَتُّ على كتفه بلطفٍ بالغٍ ولين، إلى حدٍ جعله ينظر إليّ أخيراً نظرات... ثابتة... مطمئنة.

فأجبتُه:

(يا أخي العزيز. لا تثريب عليك، أنت أعظم شهامة، وأحقّ بالكمال منّي، سيرفعَ الله قَدْرَك بهذه الخطوة، وسيكرمك بصفاء قلبك).

ودعني معانقاً فدسّ يدَهُ في جيبه، وأَخرجَ مِنها حزِمةً مِن المال وحشرها في جيبي:

(خُذْهَا من صديق صافي القلب، وإلاّ احرجتني)

أخذتها شاكراً، وبعدها تَوَثَّقتِ الأواصرُ، وقويتْ الصِّلاتُ بيننا، كَأَنَّنَا نَبَتْنَا مِن تُرْبَةٍ واحدة، واتبع الفتى عادل طريق العقل، وثابَ إِلى صوابِهِ، فجعلني صديقاً عزيزاً، وكان يدعوني كُلّ جمعة دعوة منتظمة؛ لأتناول وجبة الغداء.

ومراعاةً لمشاعره النبيلة، لم أطرق في مسمعه يوماً اسم سلوى حتى تخرَّجنا من الجامعة، رغم ما كان يجري بيننا من حديث عن الطالبات.

●●●

وبعد عامٍ ونيف، طويتُ صفحة الدراسةِ الجامعية بالخُرطوم، وعدْتُ إِلى أهلي في مدينتي الشرقية، لبدءِ حياة جديدة، خالية مِن عالم السِّياسة الآسن. داخلني إحساسٌ بالزهوِ والنُجومية، بحصولي على شِهادةِ البكالوريوس في الآداب، فأنا رجلٌ ذو شأنٍ عظيم، تقدَّمْتُ لشغلِ وظيفةٍ بأحد البنوك، بَيْد أَنَّه لَمْ يتم اختياري لانتشار المحسوبية؛ لكن رغم ذلك، توظَّفْتُ في وظيفة محترمة جداً، فالفتى عادل وحده ساعدني، فقد كنتُ مديناً له بالعفو، وهو ينتمي إِلى أُسرةٍ ذات نفوذ وسلطان، اتصلت به وحكيتُ له حاجتي للعمل، وتوسل إِليّ بجميع أفراد أسرته حتى كُلِّلَ مسعاه بالنجاح.

وبعد حين اتصل بي مُبشراً:

(إنّ لك عندي عفواً لا أنساه، وتسامحاً لا أكفره، هأنذا أرد لك عفوك بوظيفة محترمة، تمّ تعيينك موظفاً بالبنك الإسلامي بفرع مدينتكم)

وهكذا جنيتُ ثمرةَ تسامُحِي بتلك الوظيفة المحترمة.

●●●

بدأتُ حياتي الوظيفية بلهفة التفوق. وجدتُ في العملِ المصرفي سانحةً للتحررِ مِن ذكرياتي الجامعية بأجمعها، خيرها وشرّها، إلاّ طيف معذبتي سلوى رغم زواجها، لا يفتأُ يشتعلُ في ذهني اشتعالاً، لا يهدأ لهيبه، ولا يسكنُ أُوَارُهُ.

وكان طيفها يُنسيني الفريضة، ويُقطعني عن النافلةِ.

ولطالما عانيتُ حنينًا مؤلمًا مِن ذكرياتِها، وحُزناً مضنياً مِن أشواقها.

وما سجدتُ سجدةً، ولا تلوتُ سورةً، إلاّ كلماتها الصريحة، ووجهها الصبوح، وضحكتها الباسمة، تتراءى أمامَ ناظري.

ونسبةً لما تجسَّد في أذهاننا مُنذ الصِّبا، أنَّ بسقوط الأمطار، يُستجابُ الدّعاء، دأبتُ بالتضرّعِ إلى اللهِ سبحانه وتعالى بهذا الدعاء:

«**اللهُمَّ يا مُجْرِي السحاب، ويا مُسبِّب الأسبابَ، ويا مُنْزِل الكتاب، اجمعْنِي بسلوى المعاليك، ولو في عمر الشّيخوخة**».

ولو سألتُ اللّهَ الجنَّةَ مع هذا التضَرُّع، وهذا البكاء، ما حرمنِي أمنيتي، فقد تركتْني سلوى بين نازلتين، أحلاهما مرٌّ، فمجيئها موتٌ حاضرٌ، وغيابها لحدٌ منتظرٌ.

●●●

أه...وعلى حين فجأة، أحسستُ بقناعةٍ تتوغل في نفسي، وسَكينة تنتشرُ في فضاءِ قلبي، ورُويدًا... رُويدًا، بدأتُ أحبُّ حياتِي الريفية، حياة السّكينةِ والهدوء، وحياة التجول في الهواءِ الطَّلْق، وحياة الانفرادِ في الجوِّ النّقي، فإنّها ينبوعُ سعادتِي، وعهدُ صبَاي، فحملتُ نفسي على نسيانهَا، حتّى أصبحت لا أُبالي بمجيئها، فلا أسفاً عليها، ليس ثمة شيءٍ قد يُهيِّجُ شُجونِي، ويستثيرُ كامِن لوعة حُبِّها بعد اليوم، وثمةَ انصراف قد يكونُ أجملَ مِن انتظار.

●●●

وفي عصرِ ذات يومٍ، بينما أنا أمشي مع بعضِ زملائي في العمل، إذ أصابنا فجأةً، مطرٌ وابلٌ، وكأنَّ السَّماء أفرغتْ ما في بطنهَا من مياه، وغمرتِ الأرض، فتعطَّل كُلُّ ما يدُبُّ عليها. وقد كان الخريفُ في أوجِ شِدَّتِه، تتساقطُ الأمطارُ كُلّ يومٍ تقريباً. كان الجوُّ بديعاً، يفوح بعبقِ الأرض النّديةِ، وطبيعةُ المنطقة الخلابة، وخضرتها، وجمالها، وسكونها، وأصواتُ الطيور وأنغامها. ومنظرُها وهي تُحلِّقُ في زُرْقَةِ السَّماءِ زُمراً، زُمراً، أجمل لوحة رسمتها الطبيعة في صفحة الكون آنذاك.

توقَّفَ انسياب حركةِ السياراتِ قليلاً، ريثما تجفُّ الأرض؛ لتعودَ الحياةُ إلى طبيعتها،

إلاّ سيارة ذات أطوارٍ غريبة، مِن طراز كابريس، داكنة اللون، لم تشهدْها المنطقةُ مِن قبل، ظلّتْ تغوصُ في وَحلِ التربة الطينية اللزجة المتماسكة، لجهل سائقها بتضاريس المنطقة ومناخها، ممّا أدّى إلى انزلاقهَا، وتَوَقُّفها أكثر مِن مرَّة. وقد تجمّعَ بعضُ المارة؛ لتقديمِ يدَ العونِ لدفعها، ولكن عند وصولي، تمكّنتْ السيارة مِن الخروجِ مِن مأزقِها، فشقَّتْ طريقها إلى جهةٍ ما، فلم أتمكّنْ مِن رؤية سائقها، غير جزءٍ مِن رقم لوحتها الباهت الّذِي لطّخه الطين.

وبينما أنا عائدٌ إلى البيتِ، وعلى قاب قوسين أو أدنى مِن الدخول، إذْ بالسيارة نفسها تمرُّ مِن أمامِي مسرعة؛ لتتوقف على مقربةٍ مِن منزلِ أحد جيراننا، وعلى متنها رجل وامرأة، فأخذني العجب، أنْ أشاهد نفس السيارة مرَّةً أخرى في أقلّ مِن نصف ساعة! فداخلني فضول قوي لمعرفة مجيئها هذه المرة، ولكن عندما رأيتُ جارنا، يعانق سائقها بحرارة، أيقنتُ أنَّ ابنه الّذِي يعمل في إحدى دول الخليج، قد عاد.

انصرفتُ لشأني، ودخلتُ البيت، وأوصدتُ الباب مِن ورائي؛ وصافحتُ أُمّي وأُختي، فتبادلنا أطراف الحديث، ثُمَّ هرعتُ إلى كُوخي، وألقيتُ نفسي على فراشي، مستلقِياً على ظهري، ومددتُ رجليَّ انظر إلى سقفِ «الكُوخ»، أفكّر في زواجي القادم، وتكاثر ماشيتي، ومشروعي الزراعي. ومحاصيلي المنتظرة.

وإني لكذلك، إذْا بي أسمعُ صوت طارقٍ على البابِ، فأرهفْتُ السّمع، فسمعتُ صوت أنثى تتساءل:

(هل يسكن في هذه الدار شابٌ يُدْعَى أحمد بيلّو؟)

تجيبُ أُمِّي بلُكْنة قبلية ركيكة:

(آآآآي، دا بيتهم. هو ولدي، وأنا أُمو آآآآآي تفضلوا).

ثُـمَّ خرجتْ أُخْتِـي، التـي ذاع صِيتُهَـا بتأويـل الأحـلام، كانـت أبـرع في تفسـيرها، وأعلـم بتأويلاتهـا، وفي كثيـرٍ مِـن الأحيـان تأتـي تأويلاتهـا مطابقـة للواقـع، وتكبرنـي بعامـين ونيّـف، سـمعتُها تقـول:

(على الرحب والسعةِ... على الرحب والسعةِ... تفضلوا قدِمْتُم سهلاً).

ثُمَّ سمعتُ صوتَ رجلٍ، وما هو برجلٍ، يلقي السلام:

(السلام عليكم يا أهل الدار).

نظـرتُ مِـن خـلالِ النّافـذة، فتـراءى لـي أَنَّـه نـزلَ بسـاحتنا ضيفـان رجل وامـرأة. وعلـى عُجالـة، هرعـتُ إِلـى ملابسـي فأسبلتُهَا على جسدِي، وذهبـتُ إِلـى المجلس؛ لإلقـاءِ السـلام علـى الضيـف، فـإذا بشـابٍ جميـل الهيئـة، حسـن الوجـه، مشـرف الأنـف، فصيـح اللسـان، لطيـف الحواجـب مـا أحسـب أَنَّ بؤسـاً مَـرَّ عليـه يومـاً قـطّ، يَمُـدُّ راحتَـهُ ليُصافِحنـي.

عرّفتُه بنفسي:

(يا هلا ومرحبا، أنا أحمد بيلو).

سألني بدهشةٍ مقرونة بفرح كأنَّه سمع عنِّي:

(أأنـت أحمـد؟ يـا فرحتـاه! وأنـا أخـوك الصّغيـر، محمـد عبـد الحليـم المعاليك).

المعاليك؟

اللّه!!!!

والّذِي نصبَ الكعبة بنِية!! لو أنَّ فارساً مغواراً هوى بِكُلِّ ما أُوتِي مِن قُوَّة، بسيفٍ بتّار على مفرقِ رأسي حتَّى بلغتِ الدماغ، ما تقطَّر مِن رأسي قطرة دم، ولما شعرْتُ بِأَلَم لشدّ ما تفاجأْت.

نظرتُ إليه بِكُلِّ حواسي، ذاهِلاً، مشدوهًا، مُنقبِضًا، فتجمَّد الدم في عروقِي. فقدْتُ القدرة على أعصابي، فعلاني الارتبِاك. ولا أعرفُ كيف كان حالي وقتئذٍ.

سألتُه بلا صوتٍ، وبلا نطق، بل بحركة شفتيّ فقط:

(أأنت .... شقيق الجامعة.... وأنا زميل كُنَّا.... كُنَّا سلوى.... كيف أُعبِّرُ لك؟ عفواً... اعذرني...أريدُ أَنْ أقولَ. أأنتَ أخوها؟ ... أنت شقيق سل..سل....لوى).

أيقنَ الفتى أَنَّ ما بيني وبين أخته، حبٌّ يفوق ما كان بين روميو وجولييت مِن عشق.

كانت الفرحةَ تكادُ لا تسعه، وأجابَ بصوتٍ فصيح:

(نعم! أنا شقيقها وجئنا معاً).

يا للفتي الظريف!

يا سفير الهوى!

لقد أحببتُكَ مِن أوَّل لقاء، كما عشقتُ شقيقتك مِن أَوّل نَظْرَة.

آه... كانت العَبَرَات أسرع من الترحيب بالفتى، فسكبتها أمامه، تهالك على السرير وتركني واقفاً فاغراً الفم ينظر إليّ بدهشة.

سادَ بيننا صمتٌ رهيب، لم أنبس بكلمة، فلم أجد بُداً سوى الذهاب إلى كوخي، وأنا أهزُّ رأسي عجباً، بأنَّ حياتي اليوم، في محكٍ حقيقي.

أوصدتُ بابَ كوخي؛ لاستوعب ما سمعتُ أَوَّلاً، ولأحتفل ثانياً بمجيئها المباغت بمفردي، دون أَنْ يشاركُنِي أحد.

صِرتُ أدور في كوخي لا أعرف الثبات، كما يدور الجمل بالطحين، لكِن أحْسستُ أنّ كُوخِي يشاركني فرحتي، ويدور معي، أو ربما رأسي كان يدور وحده.

رحتُ أذرع الكُوخ شوقاً، وأقبّلُ أثاثه شهوةً... أضم هواءه حضنًا.... بدأتُ أنثرُ لها كلماتي:

أَيَا المرأة التِي غرزتْ لواءَ العصيان فِي صدورِ العنصريين، أَقَدِمْتِ؟ قلبي محياكِ

أيا المرأة العظيمة أَحَقَّاً جئتِ بعد انقطاعٍ دام ثلاثُ سنوات ونيّف باحثةً عنّي؟ روحي فداك

يا لكِ مِن امْرَأةٍ للمودةِ حافظة، وللزمالة مُخلِصَة!

ولم أرَ في حياتي لحظةً أجمل، ولا أعظم مِن شقيقها وهو يقول – أنا شقيقها، وجئنا مَعاً.

ورويدا رويدا، بدأتُ أفيقُ مِن وقْعِ المفاجأة. فعُدتُ إلى ضيفي العزيز؛ لأبرهنَ له أنّنِي رجلٌ صلدٌ، لا تصرعُهُ الشّدائد، ولا تهزُّه المفاجآت.

رحت أخاطبه:

(لو علِمْنَا بقدومكم؛ لخرجنا إليكم، وتلقيناكم بفرحٍ عظيم يليق بفرحتنا بكم).

وكأنَّ وجهه نسخة مكررة مِن وجه شقيقتِه كأنّه توأمها، يجيب:

(لقد استقبلتمونا ببشاشةِ وجهٍ، وطيب كلامٍ).

رائعٌ جداً، فأنتَ مشروعٌ لصداقة دائمة، وشقيقتُك مشروعٌ لحياةٍ أبَدِية، ألم تعدني يوماً: «**لَنْ يطولَ انتظارُك**»؟

بلغَ منِي الفضولُ غايته لمعرفةِ دوافع زيارتهما، فتساءلتُ فِي قَلَق:

(لقد سُررنا بكم، ولكن أصدقُكَ القول لقد تفاجأنا حقاً بزيارتكم).

(لقد جئنا لزيارةِ صديقتها فاطمة، فلم نجدها، فجئنا للتعرّف عليكم).

لم تكنْ الإجابة مقنعة رغم أنَّ صديقتها انتقلتْ إلى الخرطوم، فاستنتجتُ أنَّها رُبَّما عادتْ من «**رحلة السّراب**» خائبة، فجاءتْ فِي صرخة اليأس، تُجَرِّرُ أذيال جمالها باحثةً عنِّي، هكذا علَّمَنِي حبُّها، وإذا صدق حدسي فِي ذلك، فقد أقسمتُ مِن قبل، سأصنعُ ما يصنعه المُحِبُّون المخلصون، وأتزوّجها وإن كانت من اللائي يئسن من المحيض.

اقتادتْ أُخْتِي ضيفتها سلوى إلى كوخ القش الخاص بالنساء، لأخذِ الرّاحةِ والمَنام فقدْ كانتْ متعبة، فلم أُحْظَ بالسلام على الزائرة العظيمة فِي ذلك اليوم السعيد.

●●●

وفي صباحِ اليوم الثَّاني، بدأَ النسوة يتوافدن إِلى منزلنا منذ الصباحِ، فقد كان خبرُ قدومِ حسناء مِن دولةِ قطر، حدثَاً فريداً لم يشهدْهُ منزلُنَا مِن قبل. انتشرَ الخبرُ في ثوانٍ، والكُلّ جاء يُمنِّي نفسَه بإلقاء نظرة لمشاهدتها فأحاطوا بها وضجوا حولها، بعدما عرفوا منزلتها.

أنزلوها في حدقات عيونهم، ووصفوها بأحسن ما توصف الحسناء من آيات الإجلال، فبالغوا في إكرامها. وبدأتْ سلوى تتلقاهم بالتحية والمصافحة، والابتسامة، فاستقبلوها بالرحب والسعة في مظلّة حقيرة ولكنّها وارفة الظلال تتكون من مواد بسيطة، فأعمدة ركائزها من أخشاب الأشجار الخضراء، وسقفها من أعواد الذرة الجافة، أما سُورها من الحشائش الملفُوفة.

رغم إنَّ سلوى أبدت اشمئزازها من الآنية المتصدعة، لكنها لم تحمل عليها أي امرأة شيئًا من عجرفة، فكشفن لها أن زيارتها لشرف عظيم لهنَّ فجلسن يحتسين أقداحاً مِن حليب البقر الطازج، المُحلَّى بالزنجبيل مع الزلابية.

كانت المظلّة فسيحة ليست في حاجة إِلى تكييف وتسعُ سِت أسِرّة، فيها عددٍ من مقاعد الجلوس البالية. وتحت كُلّ سرير، كانت دجاجة تحتضنُ بيضها، وأخرى فراخها، وثالثة تدخل على حين فجأة، تستلقي على الترابِ، تغرز ريشها ثم تنفشه؛ فتتطايرُ ذرات الغبار في الهواء على مَرْأًى مِن سلوى.

ثُمَّ قِطّة تتمسحُ بسيقان النساءِ الواحدة تلو الأخرى، هكذا حكتْ لي أختي ما حدث، وعندما اقتربتْ مِن سلوى، سرعان ما رفعتْ قدميها، ثُمَّ جلستْ في وسط المظلّة تلعقُ راحةَ مخالبها بلسانها.

وأطفالٌ يدخلون ويخرجون بانتظام، بأنوفٍ سائبة مبتلة، وملابسٍ متسخة، وطفلٌ آخرُ مُمَزَّق الثياب وأنفه دامية، وآخر حافي القدمين يبحث عن أُمِّهِ، وكم كان اللقاء مُحْرِجاً لنا.

تبادلنا أحاديثَ شَتَّى. وفي ثوانٍ أَلِفُوهَا، فآنسوها وآنستْهم وأحبُّوها كحُبِّ أُمّ موسى للنبي موسى عليه السلام.

●●●

وعندما هدأتِ العيون، ونامتِ الجفون، اقتادتْ أُختي ضيفتها سلوى إلى «الكوخ» لتأخذَ قسطًا مِن الرّاحةِ والمنامِ.

نهضتُ مِن مَطْرَحِي وذهبتُ إليها أحدثها:

(يا أختي، لا يليقُ أَن لا أُلْقِي التَّحية على زميلتي حتّى هذه اللحظة).

(يمكنُكَ الدخولَ، لكن لا تُطِيل الجلوس، لأَنَّهَا مُرْهَقَة كما بدا لي).

أخذتُ شهِيقاً عميقًا وأطْلقته.

أترَدّدُ برهةَ لأستجمعَ قواي، وأتنهدُ تنهيدة، كأنّي أتنهدُ ما تبقَّى مِن عمري.

أغمضُ عيوني، وأضغطُ على إرادتِي وأتقدّمُ نحوها...

ولكن تساءلت:

ألا ينبغي أنْ انتظرَ رَيْثَمَا تهدأُ أعصابِي؟

ألا يحسن بي أن أذهب غداً إلى صالون حلاقة لتشذيب ذقني، واختيار قَصة شعر مناسبة حتى أبدوَ في أحسن أناقة لهذا اللقاء الجميل؟

ولكن لم أرد على نفسي، فقد كانتِ قدماي تتحركان آلياً دون إرادة مِني.

وبخطواتِ الشّوقِ التي تحملُني، وبدقاتِ القلبِ التِي تدفعُنِي.

وبنظراتِهِا التِي تجذبُنِي، وجدتُ نفسي أقفُ أمامَهَا كَأَنِّي ميتٌ مُتجمّد.

آه...! إنّ القلوب، أرقّ ما تكون إذا تلاقت العيون بعد عهدٍ طويل.

أُقَدِّمُ شوقي قبلَ راحتِي.

وقلبي قبلَ لسانِي. ودموعِي قبلَ بصرِي فتتلاقى أعينُنَا، اتأملها وتتأملني، أراها أنضر عودًا، والجمالَ ما يزالُ فَتِيًّاً في وجهها، رغم ما مضى مِن سنين.

كان كُلّ منّا يريد أن يلتصق بنصفه الآخر، فسرعان ما جثوتُ على ركبتيّ تعظيمًا لوفائها في مشهدٍ ... دامعٍ.... مُؤثّرٍ... باكٍ.... حزين.

تمدُّ يَدَها لمصافحتي كأنَّما تمدُّ جسدَها كُلَّه، فأحسُّ براحةٍ تسري في مفاصلي، كتلك الّتي يحسُّ بها الجندي عندما يلقي سلاحه بعد خوضِ غِمار حربٍ ضروس.

أُقبّل راحتها بشراهة وأبللها بدموعي، وتضع يدها اليسرى فوق رأسي وتمسح شعري بلطفٍ وحنان.

تسحب يدي لتساعدني على النهوض في مرمى أبصار أختي حتى وقفتُ أمامها مباشرةً لا يفصل بيننا إلا الثياب.

ينعقدُ لسانِي فلا يكاد يُبين، ويخرجُ صوتِي بصعوبة:

(السلام عليكم).

تجيبُ بنفس عدد كلماتي وحروفها، وتزيد واوًا:

(وعليكم السلام)

أسألُها:

(كيف أنتِ؟)

تجيبُ، بنفسِ عدد كلماتي وحروفها، وتزيد واوًا:

(وأنت كيف؟)

يتمثلُ لِي حرفُ الواو لغةً: العطفُ.... والعاطفةُ.... والإشفاقُ.... والميلُ نحو بعضنا.

واصطلاحاً: ما زالتْ قلوبنا مرتبطة بين إرادة حبي، وعناد سعادتها.

بينَ غمضةٍ وانتباهة، أسألُهَا ثلاثَ أسئلة؛ بلغةٍ مُغْلَقة، هي وحدها تجيدُها، فتلبثُ أختي حائرة، تنظر إِلينا بعينِ الدهشة:

(ما الّذِي صاحبَ «**رحلة السراب**» مِن نتائج؟)

ما زالتْ تجيدُ تطويعَ اللغة، كما تجيدُ تطويعَ عناصر الكيمياء، وتحيلها إِلى مركبات.

تنظر إلى أختي وتجيب:

(Negative)

(وماذا تبقَّى مِن أملي فِي «لن يطولَ انتظارك»).

تنظر إلى أختي وبنفس اللغة تجيبُ:

(Positive)

(وكيف يتمُّ تفاعلُ المركبين؟)

لم تجبْ، كانت أذكى مِن فخاخ الأجوبة الصريحة، وحقيبتُهَا اليدوية، -أو جراب الحاوي-كانت أقوى تفاعلاً مِن تفاعل عناصر الكيمياء.

أدخلت يدها فيها، فأيقنتُ أنها ستخرج أمرًا عجيباً، تخرجُ منها ظرْفًا أنيقاً، وتنشرُه بين يديَّ وتجيبُ باقتضاب:

(يتفاعل باتحاد هذا العنصر الصَّلِب)

أفضُّ غلافه بيدٍ مرتعشة، فيقع بصري على «**قسيمة طلاق**».

ينتهي المشهد فِي ثوانٍ، وينتهي اللقاء بَيْنَ لحظةِ نَظْرتِهَا إليَّ واستردادها، وأنا الّذِي كنتُ أكابد الانتظار بما ينيفُ عَن ثلاث سنوات؛ لأصل لهذه اللحظة!

يا اللّه. ليس لدّي مزيدٌ مِن الأسئلة، سأدخرُ أسئلتي غدًا، حين نلتقي على شواطئ مقلتيها، لأسألها كيفَ نبني عشَّ زوجيتنا قشّة.. قشّة؟

تساءلت، كيف أعود إِلى كُوخي؟، فما أثقلَ هذا الظرف الّذِي أحملُه!، كَأَنِّي أحملُ جبل، اكتشفْتُ لحظَتَها أَنَّ للحبِّ وزناً ثقيلاً.

أغادرُها، وأدخلُ كُوخي فأستعيدُ أنفاسِي التِي لهثتْ.

أُعيدُ النَّظرَ في قسيمةِ الطّلاقِ كَرَّتَين. فينوحُ قلبي.

أتـرك قلبـي؛ لأتحسـسَ عيونـي. فتسـيلُ دموعِـي؛ أتـرك دموعـي وأتحسـسُ روحـي. أتسـاءلُ أيـنَ أجدُ فرحَتِـي؟ أرتمـي علـى السـرير فينـوح قلبـي، وتسـيل دموعـي معـاً، فحبهـا في الحالتـين بـكاء.

مدهـش جـدًا مـا تمثَّـل أمامـي، فهـذه المـرأة تفاجئنـي دائمًـا في صرخـة اليـأس، فقـد كنـتُ أعِـدُّ العُـدَّةَ للزواجِ مِـن بنتِ عمتـي «حبسـة». في الواقـع تسـمى «حفصـة» لكـن جـرى علـى الألسـن مناداتهـا باسـم «حبسـة»

ولكـن بهـذه المفاجـأة، بـدأتْ لِـي قِصَّـة حيـاة جديـدة، مـع امـرأة متجـددة، وبتفاصيـلَ جديـدة، وفي مـكانٍ حقيـر، فالحُـبُّ وحـدُه يصلـح لـكُلِّ الأمكنـةِ والأزمنـةِ. سـأتزوّجُ زميلتـي المطلقـة، ولـن أتـزوّجَ «حبسـة» العـذراء، ولرُبَّمَـا جلبـتْ لـي العـذراء الشَّـقاء، وحسـبي مـن المـرأة المطلقـةِ السَّـعادة.

افترشـتُ قسـيمةَ الطَّـلاقِ وسـادةً، أَتَقَلَّـبُ فوقَهَـا حتَّـى صاحـتْ الديكَـةُ إيذانـاً ببـزوغِ الفجـرِ، تَذَكَّـرْتُ أَنَّ مخدعَهـا لا يفصلـه عـن مخدعـي، سـوى حائـط «الكـوخ».

تخيَّلـتُ أنفاسـها تتحـرشُ بـي، وحفيـف غطائهـا ينادينـي، واستسـلامها للكرى يُغْرِينـي، وأنوثتهـا تسـتفزُّ رجولَتِـي، وتقلبهـا علـى السـرير تُذَكِّرُنِـي بِقِصَّـةِ امـرأةٍ غـابَ عنهـا زوجهـا لشـهور، فأنشـأت تقـول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ ●●● وَأَرَّقَنِـي أَنْ لاَ حَبِيبٌ أُلاَعِبُـهُ
وتاللّه لولا اللّه تخشى عواقبه ●●● لحُرّكَ من هذا السرير جوانبه

●●●

ساق النّعامة ....وساق عاج الفيل

في صباحِ اليوم الثالث، رأيتُ أُختي جالسةً على مقعد خشبي قصير الأرجل فِي الكُوخ الخاص بالنساء، وقد أجلستْ سلوى على الأرض، تُسرّح لها شعرها، وكأنَّها تتلاعبُ بخصلاته وتتبركُ به أكثر مِمَّا تُضَفِّره لها، ثمّ وضعتْ عليها فيونكة حمراء، وسمعتها تقول:

(هذه التسريحة تُسمّى «السودان قفل»).

دخلتُ عليهما، حجبتْ سلوى رأسها بطرحتِهَا، فجلستُ غير بعيد، وتبادلنا أحاديثَ شَتَّى فقالتْ أختي:

(هيّا نصطحبُ سلوى وشقيقها إِلى رحلةٍ بَرِية في ربوعِ قريتنا الريفية، لترى كيف تنامُ الأشجارُ، وكيف تصحو الطبيعة).

حزمْنَا حقائبنا، وتزوَّدْنا بقليلٍ مِن الموادِ الغذائيةِ، ناشدتُ أختي ألا ترافقنا خطيبتي «حبسة»، حتى لا تفسد للرحلة مزاجها.

فرشْنَا أرضية عربتنا مِن طراز لاند كروزر «بيك أب» مكشوفة الخلفية، بوسادة سَمِيكة ومراتب إسفنجية؛ لتتربع عليها سلوى.

وكان أبي يواكبُ باقتناءِ أحدثِ الموديلات لضمان تزويد العَمَالة باحتياجاتِ الزراعةِ في الخريفِ، ولمواجهة طوارئ الأمطار التي تهطلُ على حين فجأة.

وفوق جوانبِ العربة المكشوفة فرشتُ مُشَمَّعَاً مضاداً للمطرِ، وثقبتُ في أطرافِهِ ثقوباً وربطتهما بحبالٍ صغيرة في جوانب العربة لتُظلّل سلوى من وهج الشمس.

توَلَّيتُ القيادة فخوراً، وبجواري جلسَ شقيقها، وظلتُ أنقلُ بصري في المرآة بشكلٍ منتظم؛ لأرى كيف تبدو سلوى، فرأيتها جالسة فوقَ المراتب مُمْسِكَةً بقضبانِ العربة؛ لتحفظَ توازنها.

وعلى الطريقِ شاهدتْ سلوى الطُرق الوعرة، والأودية، والتُربة الطينية اللّزجة المتماسكة، وآثار إطارات الجرارات، وتلالاً مِن الطين تتناثر حول الطريق، ومساحات شاسعة مِن الأراضي الزراعية الخضراء تترامى على مَدِّ البصرِ، وتتماوجُ برفقٍ ارتفاعاً وانخفاضاً.

تقفُ الأعشابُ فتية، لا تسمعُ إلاَّ دَوِي الريحِ تداعبُ سِيقان الذرةِ، وتلاطفُ أوراقَهَا الخضراء فيتردد طنيناً كطنين الذُباب، وسارتْ بنَا العربة تاركةً وراءَها أكوامَاً مِن الطين، وكانت سلوى تحجبُ أنفَهَا بطرحتِهَا؛ تحاشياً مِن استنشاق رائحة الشجيرات النتنة.

وصلنا بعد الظهر، عندما مالتِ الشَّمْسُ عن منتصفِ السَّمَاءِ، ولكن أشعتها الحارقة لاتزال تَلْسَعُ بشرتها اللدِنَة، وكان جسدها ينضحُ عَرَقَاً.

قفزتْ أُختي مِن فوق باب العربة برشاقة، ومَدَّتْ يدَها تساعدُ سلوى على النزولِ، فنظرتْ إليَّ نظرة قاسية بِأَنْ ابتعدَ حتى لا يقع بصري على ما لا يليق أَنْ يقعَ.

كانَ كُلُّ مَنْ فِي الاستراحة يسارعُ لخدمتِهَا، فجاءتْ فتاة ورمتْ فِي يدِهَا ورقة مُقوّية سميكة فاتخذتْهَا سلوى كمَرْوَحة هواءٍ تروِّحُ وجهها وتذبُّ بِها الذباب عنها.

وجاءتْ ثانية تحملُ لها مقتنياتها الشخصية، ووضعتْهَا على مقربةٍ مِنها، وثالثةٌ تحملُ لها حافظةَ ماء وتضعُهَا بجانبِهَا.

حَتَّى شقيقُها كان يحملُ مَظلَّة ورقِية واقِية مِن الشمس؛ إِنَّها أميرة حقاً، تحملُ كُلَّ ما لم يتوقع أَنْ يحمله المرءُ في سفرِهِ

ثم جاءت أختي وأجلستْها على مقعدٍ خشبي قصير فتَكَوَّرتْ أردافُها على حافة المقعد.

رباه!... كان منظرها مِن الخلف باستواء ظهرها، وبردفيها الممتلئين وخصرها الضَّامر، وساقيها البيضاويين الملفوفتين كعاجِ الفيل منظراً يستحق الرؤيةَ، منظراً شهوانياً، مُثيراً بحق.

فكم حاولتْ جاهدةً إِخفاء مفاتنها دون جدوى، فاضطرتْ أَنْ تدخلَ بَيْنَ الأعشابِ؛ لتسبلَ على جسدها عباءة طويلة الذيل؛ لإخفاء زينتها.

وفي لحظتها تكدّرَ صفائي عندما داخلتْني صورةٌ مخالفةٌ صرفاً وعدلاً، تَكْفَهِّرُ منها الوجوه، صورة خطيبتي «حبسة».

تساءلتُ في قلق: أكنتُ في كامل قواي العقلية، عندما خطبتُ هذه المهزولة؟

إِنَّها رقيقةُ الجسمِ، شديدةُ الهزالِ. فأَنَّى لي بفكِّ طلاسم جسدِهَا العجيب؟

جلدها كالشنّ البالي، وساقاها كساقي نعامة طولاً، وعنقها كساقِ دجاجةٍ دقّةً، أين سلامة بصري؟ هذه المهزولة إِذا هوت بكلبتيها على جسدي، ستمتصُ مِن عُصَارة شبابي ولا تعطي. ستجذبُ قوتي وتسقمُ بدني.

لا مندوحة مِن الفرارِ منها. سأدخرُ عُصَارة شبابي لمليحة الجيد والخِصر «سلواي»، التي ستُعطِي بهذا الجسد السماوي بسخاء ولا تأخذ ... إذا أراد ربي أَنْ تكونَ لي زوجاً.

آه.... فمـن ظفـرَ بهـا كزوجـة، فكأنَّمـا عُجِلَّـتْ لـه طيّبـات الآخـرةِ في الحيـاةِ الدُّنْيـا.

ظَلَّ شقيقها يلازمُنِـي كَظِلِّـي، فلـم أجـد متنفسـاً للانفرادِ بهـا، فأعرض عليهـا أمنيتـي أن تزوجنـي نفسـها، أو أهلـك دونه.

ثـم طفقـتْ أختـي تشـرحُ لسـلوى بلغـة ركيكـة نصفهـا راطنـة، فرحـت أُترجـم لسـلوى:

(تتميـزُ حياتُنَـا الريفيـة بالبسـاطةِ والهـدوءِ، وكُلُّ مواردِنـا مصادرهـا مِـن الطبيعـة، فالمياه مِن الآبـارِ الجوفيـة، وثمارنـا مِـن الحقـولِ الزراعيـة، ولحومنـا البيضـاء مِن أقفـاصِ الدجـاجِ والحمـامِ، واللحـوم الحمـراء مِن الخـراف وهكـذا).

ثُمَّ اصطحبتْها إِلـى زرائـب بعـض الأبقـارِ والماشـية وصغارهـا، ومكثـتْ سـلوى جُـلّ وقتهـا في مشـاهدة صغارهـا، وأعـوادُ السِمْسِـم الجافـة تتكسـرُ تحـتَ قدميهـا، وهـي واضعـة يديهـا علـى روادفهـا دون إدراكٍ مِنْهَـا.

تضيفُ أختي:

(اشـتهرنا بتربيـة الأبقـار علـى مسـتوى أفريقيـا، وقليـلٌ مِن الماشـية لسـدِّ الحاجـة، فمثـلاً هـذه العنـزة، تلدُ بطنـاً كُلّ خمسـة أشـهر، وهـي مِن السُـلالات المنتجـة للحليـب بكميـاتٍ وفيـرة، وتُرضـعُ صغارَهَـا لمـدة أقـل من شـهرين).

ثـم انتقلنـا إِلـى مرابـط صغـار الأبقـار التـي ولـدت حديثـاً، وهـي حظيـرة مفروشـة بحصيـر أعـواد سـيقان السمسـم الجافـة، واتفـق لحظتهـا، وجـود بقـرةٍ ولـدتْ بطنـاً قبـل (١٥) يومـاً فجـاء دوري لإظهـار مهاراتـي فسـألتهما:

(هل رأيتما كيف تُحلَبُ البقرةُ؟)

أجابتْ سلوى بفرح:

(في التلفاز فقط، أَمَّا في الطبيعة فلا، ودِدتُ لو أرى كيف يتمُّ ذلك).

تناولتْ عصا، واقتربتُ مِن البقرة لملاطفتها أَوّلاً قبل بدءِ عملية الحَلْبِ:

(هذه البقرة الحلوبة تحلبُ أكثرَ مِن (٢٠) لتراً في المساء، ومثلها في الصباح، فننتفع بألبانها، ونبيعُ ما تَبَقَّى لذوي الحاجة).

وبدأتُ أشرحُ لها كيفَ تَتمُّ عملية الحَلْب ورأيتُهَا مرهفة السمعِ بمتعة كبيرة:

(أَوَّلاً نقوم بربط رجليها الخلفيتين لتسكينها، ثُمَّ نقومُ بعملية تمويه بربط رأس صغيرها في أرجلها الخلفية بعد أَنْ تضربَ صغيرها برأسِهَا في الضرعِ مَرَّةً أَو مَرَّتين لتحفيز الحليب).

وقمتُ بتطبيق ذلك واقعاً وأضفت:

(ثُمَّ نبدأُ بتنظيفِ الضرعِ والحلمات؛ حتَّى لا يتساقطُ الروثُ في الإناءِ؛ فسيؤثر على نوعية الحليب، وعقب ذلك نبدأُ بدلكِ الحلماتِ بالماءِ؛ لفتح فتحات تدفق الحليب حتّى لا تتشقق؛ ولجعل عملية الحلب أكثر سهولة).

تناولتُ إِناءً كبيراً صدئاً أكلَ عليه الدهرُ وشربَ، وبدأتُ أحْلِب:

(وأخيرًا أَضعُ الإناءَ بَيْنَ ساقيّ هكذا، فتبدأ عملية تدفق الحليب في الإناء عبر إغلاق إصبع الإبهام والسبابة بالضغط على الحلمة مرَّة بعد مرَّة، أو باليد الكاملة هكذا وأكررُ ذلك في الحلمات الأخرى).

بعد أن انتهيتُ من الحلب رشفتْ أختي، فقالت:

(أجودُ ما يؤخذُ مِن الحليب ساعة يُحلَبُ؛ فنشربه مباشرةً قبلَ أَنْ يتغَيَّرَ طعمُهُ).

ناولتْ سلوى كَأْساً فاشمأزتْ:

(اعذرِيني لا أستطيعُ استساغتَهُ إلاَّ إذا غُلي فِي النَّارِ).

ثُمَّ تَوجَهْنَا إلى المطايا، وذكرْتُ لها محاسنَهَا، وكيفية تربيتِهَا:

(وهذه النّاقة تَلِدُ بطناً كُلَّ (١٣) شهراً، ويتميَّزُ حليبُهَا بِقِلَّةِ الدهون، وهو لطيفٌ جداً على المَعِدَةِ، ويُعَزِّزُ مِن مناعةِ الجسمِ مِن الأمراض).

لَمْ أَقُلْ لها مثلاً، أَنَّنَا نخلطُ ألبانَهَا مع أَبْوَالِها فنشرب، وهو سببُ قوتنا وصحة أبدانِنَا، وكَمَا نستخدمُ أَبْوَالَها لعلاجِ بعضَ الأمراضِ الجلدية والجروح. لو قلْتُ لها ذلك؛ لَرُبَّمَا اتهمتْنَا بالتخلُفِ وآثرتْ الهروبَ مِنَّا.

وبعد العصرِ عمدْتُ إلى قطيعٍ مِن الأغنامِ، فحملتُ شاةً لحيمة، طرية، كفرخ الحمام، وذبحتُهَا ثُمَّ كشطتُ جِلْدَهَا بمساعدة الخفير.

اصطحبتْ أختي سلوى فجمعنْ حطباً كثيراً مِن المَخْزَن فأوقدنا ناراً عظيمة على المَوْقِدِ، وهي حُفْرة صغيرة مستديرة الشكل حتَّى صار الحطبُ جمراتٍ ملتهبة.

قطعتُ لهما مِن أَطايب الشّاةِ، فأثبتتْ أختي وتِدين على جانبيّ الجمراتِ الملتهبة لِتَحْمِلان الأسلاك، وبدأتْ فِي وضع شرائح اللحمِ فَوْق الأسلاكِ وتُقَلِّبُها باستمرار، فَعَلَتْ ألسنةُ النيرانِ، وسُمع نشيش اللحم، وتَصَاعَدَ الدخان. فاحتْ رائحةُ الشواءِ بسببِ عُصارتِهَا التِي تساقطتْ على النَّارِ. أمَّا سلوى فكانتْ جالسةً على المقعد الخشبي، تُغَذِّي النَّار بأعوادِ الأشجارِ الجافةِ، وتدفعُها فِي الجمراتِ حَتَّى طابَ اللحمُ واستوى. أكلْنَا وأكلتْ سلوى بشراهةٍ كما لو لم تأكلْ مِن قبل.

هي لا تعرف المجاملة ولو كانت ضيفة فتقول لأختي:

(أكادُ أهلكُ مِن الجوعِ، منذ قدمتُ لمْ أتناولُ طعاماً شهياً، معدتي فارغة، لم يعجبني طعامكم).

تُمَزِّقُ شريحةً كبيرةً مِن اللحمِ بأسنانِهَا، تقذفُهَا فِي فمِهَا وهي ساخنة، تمضغُها جيداً ثُمَّ تُهرعُ إِلى الثانيةِ، ثمّ الثالثةِ وبشراهة كبيرة.

كنتُ أراقبها فرأيتها تقضم قضمَةً كبيرةً أخرى، مضغتْهَا بعناية ونظرت إِليَّ فِي انتباه بالغ، ثُمَّ قضمتْ ثلاثَ مراتٍ متتالية، ونظراتها ثابتة فِي وجهي لا تستطيعُ أَنْ تُحيلهما عَنْ نَظَرِي.

يا اللّه.... ما أجملَ أَنْ تُطعمَ مَنْ أَحببتَ!

تناولتْ فخذةً كبيرة، وراحتْ تمصّ عُصَارتها بشهوةٍ ونهم، وأُخرى مُقَرْمَشَة، تأكلُ كالملهوفةِ، واستأثرتْ بها وحدها دونَ أَنْ يشاركَهَا أحد.

التفتتْ إِلى أُختي أخيرًا، وهي تضحكُ بسعادةٍ لا تُوصفُ، وتُلَوِّحُ بالفخذةِ فِي يَدِهَا:

(أتدرين كُنَّا نأكلُ لحوماً ملوثة كيمائياً دون أَنْ ندري؟، أَمَّا هذه، فطعمها لا يقاومُ، وتمنحُ شهية مفرطةً للأكلِ، ولها فائدةً غذائية عظيمة للجسم).

ما كنتُ أحسبُ أَنَّ أُختي تجيدُ لغة العُشَّاق، عزفتْ لسلوى وتراً فِي مفاصل أنوثتها.

أجابت أختي وفمها مليء بقطعةٍ كبيرة مِن الشحم، لا أعلم حتَّى الآن كيف ابتلعتها دفعةً واحدة:

(لذلك تجدين في قوة رجالنا فضلاً، وخشونة أبدانهم بيّنة، فينكحون مثنى وثلاث ورباع).

●●●

بعد مغيب الشَّمسِ استحال الأفقُ إلى لون أحمر كلون الدمِ، وبعد دقائق كسا الكونَ ظلامٌ دامس، وتوهجتْ النُّجومُ ضياءً، وغابَ القَمَرُ في دُجَاه، فعَمَّ الكونَ صمتٌ مخيف لا تسمعُ إلاَّ صوتُ الرِّياحِ تداعبُ الحشائشَ، والشجيرات تتلامس أغصانُها؛ فيخرجُ صفيراً يأتي مِن كُلِّ ناحية.

نظرتْ سلوى إلى السَّماءِ، فارتعدتْ عندما رأَتْ عناقيد مِن النّجومِ تتلألأُ نَشِطَة بسببِ غياب الضوءِ، ونجمة ذات ضياءٍ بهيج تهوي فجأةً نحو الأرضِ فيشعُّ الفضاءُ نوراً ينفجرُ كالبركان.

●●●

وفجأةً تجمعتْ السُّحبُ، واستحالتْ إلى السوادِ، وبدأتْ الأمطار تتساقطُ فوق العربة، لا تسمعُ إلاّ حبّات المطر فوق غطاءِ مُحَرِّكِهَا، فحزمْنَا حقائبنا في ثوانٍ، وقفز كلٌّ منّا فوق العربة كالسنجاب واتخذ موقعاً، وبدأتْ الأمطار تهطلُ بشِدَّة، فقد كان الخريف في أوج ذروته.

أدرْتُ مفْتَاحَ التشغيل، وضغطتُ على دواسةِ البنزين، فأجفلتِ السيارة بدفع رباعي لا تسمع إلاَّ طنين الماكينة، وصوتَ البساتم وهي تَئِنّ، وعلبة التروس الخلفية تصعدُ وتهبطُ، فتشقُّ طريقَ الأرضِ الطينية اللّزجة.

جلستْ سلوى في المقعد الأمامِي هذه المرة مع شقيقها الّذِي جلسَ على مقربةٍ مِني، وتَمْضِي بِنَا السيارة متعثرةً في الوحلِ، تدور وتلتوي مرة، وتفقد توازنها أخرى، فيعلو ضجيجُ المُحَرِّكِ إلى أعلى درجةٍ يمكنُ أَنْ تتحملَهَا السيارة للخروجِ مِن مَأْزَقِ الوحل.

وبعد ساعةٍ مِن الوحلِ، وصلْنَا إلى البيتَ، وقد غَطَّتْ على ظهر العربة طبقةٌ مِن الطينِ، واختفتْ أنوارُهَا تماماً.

أبدلْنَا ملابسَنا في ثوانٍ، وسرعان ما خَلدَ شقيقها محمد إلى نومٍ عميق، وجلس بقيتُنا في الكُوخ المخصص للنساء، فتخرجُ أختي وصويحباتها وتتركني مع قَدَرِي، فأسألها دون مقدمات، لأنّني لم أُحظَ بوقتٍ للانفراد بها مُنْذ قُدومِهَا.

●●●

السخاء المؤجل

(جميلٌ أَنْ تأتي فِي صرخة اليَأْس، والأجملُ أنْ يعودَ طليقك مِن «رحلةِ السرابِ» خائبَاً، هيّا حدثيني عن حياتكِ الزوجية).

هكذا سألتها، فتقول بصراحتِهَا:

(أووه... إنَّها لحياة مؤلمةٌ حقًّا مع رجلٍ سكير، لا يمكنُ أنْ تُمْحَى مِن ذاكرتِي أبدًا، بيديه تَعَرَّضْتُ لضربِ غرائب الإبلِ، حتَّى ظننْتُ أَنَّنِي لا بدَّ هالكة).

تضيف بدمعة:

(طافَ بقلبي، طائفٌ مِن الحزن، فكانتْ ليالـيّ مأتماً، ونهاري شقاءً، فلزمتُ مَخْدَعِي لا أفارقُه أندبُ حَظِّي إني تزوجت رجلاً متأنثًا وسكيرًا)

كانتْ فرحتي بها، أقوى مِن ألم ذاكرتها:

(تكمن قوة الحُبّ، فِي دفع المحبين لقطع المسافات البعيدة والانتظار، ليكون أقوى عند التلاقي).

تُغيِّر مَجْرَى حديثي، فأُختي ما زالت فِي مَرْمَى سمعِنَا:

(لقد أذهلَنِي مشروعُكم الزراعي، وطريقة تصميم الأكواخ، فشكلُها جميلٌ، يسُرُّ الناظرين).

تبتعد أختي، فأعيدُ حديثي إِلى مَجْرَاه الأوَّل:

(حلاوة الدُّنْيا، أنْ يأتيَكَ الحُبُّ مباغتاً كما فِي لحظةِ المطر، ومرارةِ الدُّنْيا، أنْ تنتظرُه حتَّى تحسب نفسَكَ مِن الهالكين كانقطاعِ المطر).

والآن توافق إرادتي:

(لأنَّه يسيرُ دوماً ضدَّ قوانين الطبيعة، ويُرابطُ عن قُرْب؛ ليهطلَ عند اليأس، ولا يأتي إلاّ متأخِراًّ؛ ليكونَ جميلاً؛ لينجحَ الخريف).

يطمئنُ قلبي، فأتعمّقُ في أسئلتي:

(اغفري لي فضولي، متى انفصلتُمَا؟)

(ما ينيفُ عن السنتين).

(وعدتِني بـ«لن يطولَ انتظارُكَ» فكيف مَرَّتْ تِلك الفترة؟)

(أوووه، إنها لقصة طويلة، خشيتُ أن تكتشفَ أمي أنني طلبت الطلاق لأتزوجك، ثمّ انقطاع وسيلة الاتصال بيننا حال دون ذلك، فتركت الأمرَ للّهِ تماماً كما يفعلُ المزارعون).

وكنتُ بصدد سؤالها «إني أريدها زوجًا» ولكن تذكرتُ عواصفَ أمِّها وتهديدها: «**لنْ تصلَ حتَّى إلى أخمَص قدميها، ناهيك عن مصادقتها**» والآن أطلبُ جسدَهَا كُلَّه كزوجة! يبدو أنّي سأخوضُ بحراً مِن الدّماء مَع أمِّها المتعالية عرقيًا، حتَّى أصل إِلى شاطئ الزواج الّذي أصبح مُمْكِناً بعد طلاقها:

(لا أرى أشدّ مني سعادةً، لو تزوجيني نفسكِ الآن. ولكن أُمّك قد تحول دون أمنيتي).

اختصرتْ عليَّ الطريقَ، وأجابتْ بأنه بعد طلاقِها جَرَى الحوار التالي مع أُمِّها:

قالت الأم:

(يا بُنيّتي، لقد أبصرْنَا عاقبة زواجك على عجل، ولن نُزَوّجَك مرَّةً أخرى إلاّ ممَّنَ ترضين، ولكن جاء فلان، وعلان، ثمّ أخيراً جاء أَحدُ أقربائنا يطلبكِ، وهو من أَهلِ الفَضْلِ والنُّبْلِ كعوالي الرماح، فرجاؤنا عندكِ أَنْ توافقي صوناً لنفسِكِ).

أجابتها سلوى:

(يا أمّاه، إنَّهُ لا يصلحُ لِي زوجاً، فقد بلغني عنه أنه سيء الخُلق، وفيه مِن الأَنفَةِ والتّرفُعِ ما يكفي لِنَسْف هذه الزِّيجة في مهدِهَا، فإنَّ كُلَّ زيجةٍ خَلَتْ مِن حُسنِ الخُلُق، زيجةً ميتة).

تتمسك الأمّ بعنادها:

(يا بُنيتي، لا نحتملُ بقاءَكِ ثيِّباً، وقد تحومُ حولكِ الأنظار، فأَنَّى لنا بأحسنِ الرجالِ خُلُقاً؟).

التفتتْ سلوى نحوي وابتسمتْ:

(كنْتُ أقومُ بالتلميحِ بمهارةٍ عنك، مَرَّة بعد مرَّة ففهمتْ أُمّي مَا أَرْمِي إِليه).

فقالت الأمّ:

(يا بُنَيَّتِي، إنَّكِ تجهلين بأصلِ قبيلة هذا الفتى، إنّ الزواج منه يحطُّ مِن منزلتِكِ، وتشمئز منه نفوسُنَا، وقد بلغنا غاية نُصْحَنا لكِ فأنت وشأنك).

تُوَضِّحُ لها سلوى:

(يا أُمَّاه، لكني مسرفةٌ في الصراحة، حادّة الطبع، فَمَنْ يحتملُ مَا جُبِلْتُ عليه غير مَنْ عرفته مُتَخَلِّقَاً بحُسنِ الخُلُق، فلا أريدُ أَنْ أكونَ عُرْضَةً للطلاقِ، إنَّه مبدئي... ولن أعرف مبدأ غير هذا...وإلاَّ فالأفضل أَلاَّ أتزوج أَبَداً... فأيّ عيبٍ أَنْ أَتَزَوَّجَه ما دمتُ أرى فيه صفات مبدئي؟)

تنظرُ سلوى إليَّ، وتقول:

(ما رأيتُهُ فيك مِن حُسنِ الخُلُق مِن أَوَّلِ لقائنا، ما زال آهلاً في قلبي، فداخلتني فكرة للبحث عنك)

سألتها مسلوب الصبر:

(فكيف نمت الفكرة حتى اهتديتِ إلى دارنا؟)

تُجيب بنبرة حزنٍ عميقة... صادقة:

(بعدما أبدت أمّي الموافقة بمبدئ، عزمتُ أن أجود بنفسي للبحث عنكَ في رحلة شاقة أسميتها «**عملية حرق المراحل**» احتملُ فيها المشقَّة، وبُعد المسير..وعزمت أن أحرق كل قرية لم أجدك فيها حتى لا أعود إليها، فاصطحبتُ أَخِي أولاً لأداءِ العُمْرَةِ للتمويه، ظللت أجوب مُتون القِفار طولاً، وأضرب لجُج البحار عرضاً والخوف يمزق قلبي، أركب الفَلَوات شرقًا، اقتحم الوُهْدان غربًا حتَّى منّ الله علينا بالسلامة، وحللنا بداركم ونحن موتى من التعب).

والحقّ، إنّ ما جادت به من مخاطر، حب راسخ الجزور، حب فتق قلبها منذ أول لقاء جمع بيننا.

اثنيتُ عليها فائض الدمع:

(والله ما أدري أيهما أبكي؟ أعلى عظيم وفائكِ؟ أم على حسن عشرتكِ؟ أم على مشقّة سفركِ؟ أم على نشر محاسني لأسرتكِ؟ وتالله لم تأتِ هنا إلاّ لنتزوج)

لقد باعدتْ أُمُّها المسافةَ بيننا، ممّا جعلَ الزواج منها مستحيلاً، وكؤود المطلب. بَيْدَ أَنّه بعد هذه الزِّيجة الفاشلة، أصبح الزواج منها، سَهْل المُلْتَمَسِ، سَلِس المطلب.

فاض بي حزنٌ عميقٌ لفراقِهَا، فتذكرتُ شواطئ تركيا وفستانها الحريري ملتصق بصدرها، وسرعان ما انتابتني نوبة ضعفي تجاهها، فركبتُ رأسي إلى حيثُ لا مردّ له، دنوت منها لألتصق بجسدها الحار، أشمُّ رائحة عرقها، أُدهنُ به جلدي، أُقبّلُ جيدها وأطرافها، ولكنها تقهقرتْ إلى الوراء، التصقتْ على حائط الكُوخ، وجبينها يرفض عرقاً كالجمان.

وفي معشار ثانية، غابت عن وعيها تماماً، فقد برق بصرها، وغاب سواد عينيها فراحت تحدثني بصوت قلبها الكسير لا بلسانها المعتقل:

(رحماك! رحماك! أنا ضيفتُكَ، فأحسن إليّ وأكرمني).

إلهي! فبعضُ الكلماتِ الحزينة برد الرّاحةِ والسلامة على القلبِ. فنظرتُ إليها نظرةَ إشفاقٍ ورحمة...

تفيق من غيبوبتها، وتدسّ وجهها بين يديها فيأتيني الزواج منها بالحلالِ، عفواً، صفواً، بلا مَشَقَّة، وصوتُها الباكي يُداعب أُذني:

(يا مريدي! لمَ تدعونني إلى فراش الزنا، وأنا أدعوك لفراش الحلال؟ فَإِنْ شئتَ.... على سُنَّةِ اللّهِ ورسوله، أفعل بِيّ مَا تَشاء وفي هذه الليلة، وستجد خُلاصة جسدي وجوهره).

أظلُّ مُتَسَمِّراً، فاغر الفم، أجيبُهَا وجسدي يرتجف من سخائها المؤجل:

(لم أتوقع سخاءً منك كهذا يا سلوى، أتقولين خلاصة جسدك وجوهره؟ آه...سأفعل .... وستكونين أشهى بالحلالِ، ويوم التحام أبداننا، أقسم لك سأهددهك في سعادةِ فحولتي، كسعادة الوليد في الفراش)

لم تحرّ جواباً، كأنّما أصابها خَدَرٌ، أو كأنّما أخذها حديثي غشية

●●●

تأويلات الرُّؤيا

حالما غادرتُها، شعرتُ بِأَنَّ الدُّنيا كلها تدورُ، ويدورُ معها رأسي، فلمْ يلمّ الكَرَى جفني منذُ مجيئها، وأكادُ أسقطُ مِن فَرْطِ التَّعَب.

وفجأة استبدَّ بي نُعاسٌ ثقيلٌ كالرصاصِ، هويتُ على أقربِ سرير صادفَني، واستسلمتُ للكرى في ثوانٍ، رأيتُ فيها .... مشاهد مُفْزِعَة... مُفْزِعَة حَقًّاً.

ورغم أنها مشاهد في المنام، إلا إنها وقعت كفلق الصبح المبين لاحقًا عندما فسّرتها أختي.

●●●

(أطلبْ يدي مِن أَبِي، فَلَنْ يَخْزِيك أبدًا هذه المرة)

هكذا قالت سلوى في الرؤيا المفزعة، فأجيبُها منْكِراً:

(إنّي لا أتزوّجُ إلاّ عذراء، فأعذريني أيتها المطلقةُ، لقد فضَّ زوجُكِ جوهرتكِ، وأذابَ جسمَكِ البضّ في نارِه، ورَمَى بِكِ عَظْمًا، وإنِّي لأحِسُ بِمَوْجَة قَرَف مِن آثار جسدِهِ فوقَ جسَدِكِ، وآثار أنفاسِهِ فوقَ خدّيكِ، وأكادُ أتقيّأُ مَعِدَتي).

لطمتْ وجهها، لشدّة ما تفاجأتْ بغلاظَة إِجابتي:

(أحقاً مَا تقولُ فيَّ؟ إنّك لتقتلني بلا رأفة، لقد فطرتَ فُؤادي، ومزَّقْتَ جسدِي أشلاء، لو بعجتَ بطني بسيفٍ لكان أعدل، ورميتَ هامتي بحجرٍ لكان أمثل من أن تُسْمِعُني تلك الكلمات القاسية)

بدأتُ أتلذذُ بتعذيبِهَا:

(سـأقطعُ أوصـالَ حُبِّـكِ مِـن أعمـاقِ قلبـي، وسـأدفنُ ذكرياتـكِ في مقبـرةِ العاشـقين، وسـأحرقُ آثـارَ لقائـكِ، وأنثـره رمـاداً في فضـاءِ الكـون، فمثلـكِ دميـة لا تسـتحقُ ذَرَّةً مِـن الذكـرى).

ضربتُ صدرَهَا:

(ألا تجيـدُ غيـر لغـة العـذاب؟، لقـد ذرفـتُ فيـكَ الدُّمـوعَ الغـزارَ إشـفاقاً، وجئتُـكَ مِـن أقاصـي الدُّنيـا يجرُّنِـي الشّـوقُ إليـكَ جَـرّاً، فهـلْ هـذا جزائـي؟).

تذكَّرْتُ المتعالين عرقياً، فعذبتُهَا واقفةً:

(هـذا جـزاءُ إهانـة أمّـكِ لقبيلتـي، ومـا طلاقـكِ مِـن زوجـكِ، وعيشـكِ بـلا زوج، إلاّ عقوبـة أنزلهـا اللّهُ عليكمـا لتكفيـر ذنوبكمـا).

تقولُ ومـا تزدادُ إلاّ شدّةً في اللطمِ على وجههـا:

(يـا لـكَ مـن ناكـرٍ للجميـل! أَلَـمْ تتأبـط ذراعـي في تركيـا، وتجـذبُ صدري النّاهـد، وتغمزُ خدّي النَّاضِرِ؟).

كُلَّمَا رددْتُ عليها رَدّاً مُوجعاً، انبسطتْ أساريري:

(لَـنْ أَحْفَـظَ لَـكِ سـرًا، وسـيعلمُ الجميـع، أنَّكِ كنتِ في أحضاني بشـواطئ تركيا نائمة).

تقول بقلبٍ قريح:

(أَلَـمْ أَكُـنْ لـك البلسـم الشَّـافي لجرحِـكَ الغائـر؟ وطَـوْق نجـاةٍ لقلبِـكَ الحائـر؟).

عجـزتْ عـن السـيّطرة علـى نفسـها، فرمـتْ جسـدها في مَقْعَـدٍ كان بجوارهـا لتواصـل:

(ليتَ معرفتك لَمْ تَكُنْ، لقد ارتشفتَ زهرةَ شبابي، ثُمَّ لفظتَنِي كَسَقْطِ المَتَاعِ).

●●●

جاء زوجُها على حينِ غَفْلَةٍ منْها، تَناول حرْبة حادة فبعج بها بطنها، فانثنت الحربة وتدلّتْ كالحبل بأسرع من طرف، صنع كصنعيه الأول حتى فعل ذلك مراراً، وفي كُلِّ مرةٍ، تنثني الحربة وتتدلّى كالحبل، لم يجد بداً سوى أن رمى الحربة ولاذ بالفرار.

انقبضَ قلبُ سلوى حسرة، فوضعتْ راحتها في موقع ألمها في بطنها، نظرتُ إليها فلم أتمالكْ نفسي، فتبِعْتُها فِي البُّكاءِ،

ولكنّها نهضتْ واقفة، فدخلتْ «الكُوخ» على عجلٍ، حملتْ مُقْتَنَيَاتها، وخرجتْ تنوحُ بصوتٍ حزين.

ثَقُلَ عَلَى نفسي وداعها، فأيقنْتُ أنّي هالكٌ بعدها همّا وكَمَداً، فتسمَّرْتُ أمامها أنْ تعدّلَ عن السّفرِ. تقولُ والدموعُ تسيلُ فوقَ خديها كالسيلِ المُنْهَمِر:

(سأحتملُ كُلَّ مكروهٍ في الدُّنْيا، ولو الموت الزُّؤام، ولكن لن أبقى في داركم ساعةً مِن نهارٍ).

كانتْ نفسي تُحَدِّثُنِي بشرٍ عظيم مِن سفرِها، وصدقتْ مخاوفي، فبعد ساعة مِن مُغَادَرَتِهَا، ترامت إليّ الأخبار أن سيّارة صالون مِن طراز

كابريس، تحمل لوحة سير لدولةِ قطر، انحرفتْ عن مسارِهَا، واصطدمتْ بشاحنة، فدخلت عجلة القيادة في جسم السّائق ومات في الحال.

وقع الخبرُ، كصاعقَةٍ في رأسي، فاهتزتِ الأرضُ حولي، ودار بيّ «الكُوخ» دورةً، فسقطتُ على وجهي. وصرختُ صرخةً عظيمة، اِرْتَّجَتْ لها الدُّنْيا:

(إِنّها حبيبتي سلوى، إِنّها سلوى.... وآه فَمَا تَبَقَّى مِن حياتِي!)

تراءى لِي «الكُوخ» كَأَنّه قطعةٌ مِن نار، ولَمْ أسمعْ بعدها شيئاً فغبتُ عن الدُّنْيا، وبعد حين بدأتُ أستوعِبُ ما يدورُ حولي، وأحسُّ بوخزات، حتَّى أيقنْتُ أَنّي هالكٌ، وما تمنيّتُ لحظتها شيئًا، سوى أنْ أراها لأكفّرَ عن ذنبي، لقد جازيتُها على مودتِهَا شَرَّ الجزاءِ، فقد جاءتْ مِن أقاصي الدُّنْيا باحثةً عَني فألمتُ قلبَها، بسببِ العنصرية، قاتلَ الله **العنصرية**، ولعنَ الله القبلية.

لعلَّ انحدار الدمع يعقب راحة، فبكيتُ حتَّى جفّت دموعي. ورأيتُ أَنّه لا يطيبُ العيشُ إلاّ معها. فالموتُ أهونُ مِمّا أنا فيه.

ذهبتُ إِلى قبرِها لقراءَةِ الفاتحة على روحها الطيبة، وهأنذا أقفُ أمامَ قبرِهَا، وأَقْسُمُ أَلاّ أُفَارِقُهَا، حتَّى أُدْفَن معها.

نثرتُ كنانتي، وتناولتُ سهماً أصمّ شددتُ بِهِ قوسي، فشققتُ صَدْرِي، فما أخطأتُ قلبي، ثُمَّ بدأتُ أنزفُ دماً غليظاً مخلوطاً بدمِ الحيض والنُّفاس حتَّى نفثتُ أفلاذَ كبدي، ورئتيّ، ثُمَّ تقيأْتُ دَمَاً مُتجمّداً.

وقبل أنْ أموتَ، تَشَخَّصَ لِي شيطاني وبدأ يزجرُنِي:

(لقد أبدلتَ طهرَها بنجاسةٍ تفوحُ برائحةِ القذارة، وحيائها كعذراء في خدرها، بجرأةٍ كامرأة مومِسة، تفوح برائحة الغانيات).

ثُمَّ جاءتْ أُسرتي، فوجدتني ميِّتاً فوق قبرِهَا، فَشقُّوا لي لحدًا في قبرِهَا؛ لِنُدفنَ معاً، ولكن قبرها لفظني، وكُلَّمَا أعادُونِي إِليه يلفظني.

●●●

ثم ماذا؟

سمعتُ هاتفاً يهتفُ باسمي، يأتي مِن مكانٍ بعيد:

(أحمد، أحمد، أحمد).

ثم بدأ يزدادُ شيئاً فشيئاً حتَّى سمعتُ صريخاً، فنهضتُ واقفاً دفعةً واحدة، سألتُ مُستفهِمَاً:

(ماذا جرى؟)

تقولُ أختي:

(كنتَ تَحْلُمُ، وتصرخُ بأعلى صوتك، حتَّى خشينا عليك مِن الهلاك).

نظرتُ إِليها مندهشاً:

(أعوذُ باللهِ مِن الشَّيْطان الرَّجيمِ، رأيتُ حلماً أفزعَنِي، وأدخلَ في نفسي رُعْبَاً، وقد علمتِ يا أُخْتَاه أَنَّ أحلامي معظمها تتحقق)

(قُمْ فصلِّ ركعتين، وسيدفعُ عنك ذلك ما رأيتَ، فاقصص عليّ أحلامك المفزعة لتأويلها لك).

حكيتُ لها أحلامي الواحد تلو الآخر فضحكتْ:

(لا تجزعْ، حتَّى لا تَرى مِنكَ سلوى صفة، قد لا تعجبها).

ثم أخذت في تأويلها بلغتنا غير العربية (Fula):

(أمّا ما رأيته بأنّك أثقلتْ عليها القول حتى لطمتْ وجهها، فإنَّك ستسمعُ قولاً ليِّناً .... وسلامًا بالخدود مع أبيها عندما تتقدم لخطبتها).

أثلج تأويلها صدري وسألتها:

(الحمد للّه، والثانية؟).

(أمّا أنّك شققتَ صدرك بسهمٍ مِن كنانتِك حتّى نفثتَ أفلاذَ كبدك، وتقيّأتَ دماً غليظاً ممزوجاً بدم الحيض والنُفاس، فإنَّ تفسيرَ ذلك هو تلاشي الحقد، والكراهية والعنصرية في صدر أُمّها، وستقربُك إلى منزلةِ ابنها).

انفتحتْ أساريري قليلاً:

(الحمد للّه والثالثة؟).

(أَمَّا أَنَّ قبرها لفظ جسدَكَ حتَّى لا تدفنُ معها، فتأويل ذلك، أَنَّكَ لن تبقى في أرض السُّودان بعد اليوم، وما أراكَ إلاّ مُقيمًا في دولة قطر).

(الحمدُ للّه، والرابعة؟)

(أعفني، فالحياء يمنعني).

(باللّه عليك إلاَّ ما فسّرتِهَا لي).

أطرقتْ بوجهها:

(أمّا قول شيطانك أنّك أبدلتَ حيائها كعروس فِي خِدْرِها، بجرأة كامرأة مومسة تفوح برائحة الغانيات، فتأويل ذلك أنَّ زميلتك المطلقة، لم تزل عذراء)

سألتها:

(وبماذا تفسرين محاولة زوجها بعج بطنها بحربة؟)

أجابتْ بلغتنا غير العربية:

(الحربة فِي المنام هي رمز العضو الذكري للرجل، وانثناؤها يعني أن عضوه الذكري يتدلّى كالحبل ولا ينتصب أبداً، وفِي نهاية بطن المرأة تندس جوهرتها ومنها يتم إتيانها، وتفسير ذلك أن زوجها لم يستطع فضّ جوهرتها، وأمّا رمي الحربة والهروب، أنه طلقها طلقة مستحبة لإزالة الضرر لزميلتك)

لم يأخذْنِي العجب من هذا التفسير العجيب، فقد كنتُ عالماً مُسبقاً بقصّتها مع زوجها، ولكن لشدّ مَا أخذني العجب أنْ تتشابه قصّتي بكل تفاصيلها مع قِصَّة الشَّاب الأمين تلج، أَنْ نكونَ نحن مِن قبيلة واحدة، ونكتوي معًا بنار العنصرية، وتكون المرأتان المطلقتان مِن قبيلةٍ واحدة، وتمّ تطليقهما لنفس السبب، وما زالتْ كُلّ واحدة منهما جوهرتها عذراءً. ولو كتبتُ عن أكثر قِصَّة دوختني فِي حياتي لكتبتُ قِصّتي وقِصَّة الشَّاب عالم القرن الأمين تلج.

●●●

وما لبثتُ إلاّ قليلاً، حتَّى بدأتْ تباشيرُ تأويل الأحلام تتحققُ مرحلة بعد مرحلة كفلق الصّبح المُبين.

دعتني للاتصال بوالدها لطلب يدها رسمياً.

وحكتْ لي ما جرى مع أبيها حديثًا طويلاً ختمته سلوى بما يلي:

(...... لذلك يا أَبِي، بحُسنِ الخُلُق يتفاضل منازل النَّاس، وليس بأعراقهم، فمن عطفكَ وإحسانكَ إلى كريمتكَ الوحيدة، أن تقبله صِهراً، فقد قبلتُ به خطيباً)

الأب:

(لكنّي اخترت لك أعظم صهراً، رأيتُ فيه سعادتكِ التي أحبها لكِ)

سلوى:

(يا أَبِي، لن أنالَ السَّعادة التِي تحبُّها لي، إذا لم أتزوّج ذلك الرجل الّذِي أراه يتخَلّقُ بصفات الفضيلة، فإني أجدُ فيه أعظم راحة)

يلين قلب الأب قليلاً:

(يا ابنتي، لقد أجبتكِ إلى ما تريدين، فليتصل بنا، فلن أسيخ أُذنيه إلا خيراً)

كان حديثها، أول نبأ من السماء للموافقة رسميًا على زواجنا المستحيل.

●●●

رحت أحدّث نفسي:

« لقد أنكرتُم أيُّها العنصريون أصلَ مَعْدِني، عندما أحببتُ ابنتكم الطّالبة، فنظرتم إليَّ عبداً ذليلاً، وعندما أردتها كامرأة مُطَلَّقة، نظرتم إلِيَّ رجلاً عزيزاً، فما أجهلَكُم!

لقد شبهتم أنفسكم بحصنٍ شامخ، صعب المرتقى، منيع الاقتحام، وعر المرام. فأبعدتم ما بيننا قسراً، فاستحالَ البعد القسري إلى حبٍ مِن نارٍ وجوى، فما أعجزكم!

لقد زوجتموها على عجل، لتحولوا بيننا، فإذا بالعناية الإلهية تحفظها، وتجعل زيجتها الفاشلة، جسراً لزواجي منها، لتتوهموا أنكم رميتموها لي عظماً أتلهى به، ما أعظم حكمة الرحمن في ألا أتزوجها إلاّ عذراء، فما أعظم كيدكم وما أوهنه.!

لقد توهمتم أَنّنا خطان متوازيان، لا نلتقي... إِلاّ في الأبدِ السحيق! ولكن بعزيمة الحُبّ التي لا تلينُ، برهنتْ ابنتكم، أنَّ هذين الخطّين، ما هما إِلاّ شريانان مِن شرايين الحُبّ المتشابكة في قلبينا، وعندما التقتْ أمام ناظريكم اليوم، لم تجدوا بُدًّا، سوى الانصياع لإرادة الحُبّ، والالتزام بقوانين العشق، فما أدنى منزلتكم!

لقد ارتكبتُ حماقةً، بمرافقتي لابنتكم فِي شواطئ تركيا مُحبا، وارتكبتم حماقةً بدوركم فأثخنتم فِي جسدي جراحاً، وهكذا الحُبّ، سهم لكم.. وسهم

●●●

الباب الرابع

النِزال الأخير

النصف الآخر

لـمْ تحتمـلْ سـلوى خشـونة مأكلنـا، ومـرارة مشـربنا، وأكلهـا البعـوض أكلاً شـديداً، فلـم يدركهـا غمـضُ اللّيـل، ولا قيلولـة النّهـار، تهيّجَتْ بشـرتُها اللّدنَـة، فأقبلـتْ علـى حكّهـا بصـورةٍ مفرطـة، حتّـى طفحـتْ بُقَعَـاً سـوداء؛ فعزمـتْ أنْ تفـرّ مـن بيئتـا قبـل أن تهـبَّ عليهـا ريـاح المـوت.

قطعَت إجازتهـا السـنوية، لتعـودَ إلـى مقـرِّ عملهـا بدولـةِ قطـر حيـثُ الفـراشِ الليّـنِ.... والملبـس الفاخـر.... والطعـام الطيّـب.... والشـراب الرقيـق.... والشـعب الكـريم.

ودّعتْنِي بالدموعِ والقُبَلِ، وهمستْ في أُذُني:

(سـتلحقُ بـي، ونعيـشُ معـاً لتـرى مَـا أكرمَنَـا اللّهُ بِـهِ مِـن نعيـم دولـة قطـر).

ودعتُها مُصحوبةً بالسلامةِ والمودة:

(في كنـفِ اللّه وحفظـه، مـا أشـدَّ شـوقي إلـى اللحـاقِ بـكِ، ولكـن أُمّـكِ... أُمّكِ لا تطيقُني، فكيف يطيب العيش مع مَن أدركتْنِي بالذلةِ؟) تجيـب بأسـى:

(آه... لقـد خَصّصـتْ لنـا جناحـاً في فيلتهـا، ومـا كانـت لتفعـل ذلـك، لـولا أنـك أصبحـتَ غصنـاً مِـن أغصـانِ أسـرتِها).

ومـا لبثـتُ إلاّ قليـلاً، حتّـى تمّ عقـد القِـرَان وإتْمَـام الزِّيجـة وتلقيـتُ زيـارة عائليـة مـن أبيهـا فتناقشـنا:

(يا سيِّدي العزيز، لو أرجأنا القدومَ شهوراً رَيْثَمَا تجدون لي عملاً مناسباً، لا أريدُ أَنْ أكونَ عبئاً عليكم). قلتُ ذلك رغم إن الشوق يقتلني إلى ابنته، فأجابَ:

(يعجبني قرارك، وسأفرغ مجهودي في هذا الأمر، ولكن إِن جئتَ، سهل علينا مطلبُك).

أخيراً ...بذرة غرس شجرة حُسن الخُلُق في قلوب العباد، تنبت ثمرتها اليانعة في دولة قطر.

●●●

ولمّا تجهزتُ للسفرِ، كان الجو سموماً لا يُطاق، وقُرْص الشمس اللافحة، تلهب الأبدان، فخَلاَ أبَي بِي يُوصيني:

(يا بُنيّ! إنَّ الزواج من ذوي المالِ يُوردُ مهالكَ التسوُّل، ومَنْ تسوَّلَ، فقد رضي بالإهانةِ حَظّاً، وبالذلةِ نصيباً، فكفّ اليد يقرِّبك مِن الغِنَى، ويباعدُك مِنْ الفقر. أفهمتَ؟) أجبته بحماس:

(ما أحسن ما قلتَ!)

(لا تبالي أية مهنة تمتهنها، وتحمَّل ثقلَ الكدِّ حتَّى لا تشربَ مِن كأسِ الذُّلِ قطرة، أفهمتَ؟)

(إِنّها لموعِظة للمتفكرِ يا أبِي!) مسحَ رأسي بلطفٍ، وأضاف:

(وإِنْ جمعَكَ مجلسهم، أمسكَ لسانَك، فإِنَّه أبلغَ مِن كُلِّ خطيب، وإِنْ جمعتكم المناسبات فتخلّق بحُسنِ الخُلُق، فإِنَّه كنزٌ مِن الكنوز، وما اجتمعتْ في رجلٍ خلّتا العفو والإحسان، إلاّ فَتَح الله له باباً مِن الرزق). أجبتُه بدمعةِ الوداع:

(مَا أَحوجَنِي إِلى حكمَتِكَ!)

أمسكَ برأسي وقرأَ عليَّ آياتِ الحفظِ والصونِ، وتفلَ على شعرِي:

(فإنْ عملتَ بوصيتي ملكتَ قلوبَهم، وإنْ أعرضتَ عنها ملكُوا قلبَكَ، وستكونُ أشقى مَن أظلّته السَّماءُ، ولا حولَ ولا قوة إلاّ باللّه)

●●●

حَطّتِ الطائرة فِي مطارِ الدوحةِ الدُولي فِي تمامِ الساعةِ السابعة مساءًا، وكان فِي استقبالي زوْجِي التي عانقتني بشوقٍ وهيام،

ولكن أُمُّها، استقبلتْنِي بابتسامةٍ مصطنعة، مَدَّتْ يدَها بجفاء وهي تقول:

(حمداً للّه على سلامتك)

آه...جفاؤها، أفسد عليّ فرحتي باللحاق بزوجي، لا أحد بوسعه أن يصفَ بالغ حزني، وأنا أرى أُمَّها تمِدّ راحتها بفتور.

أطرقتُ رأسي على نحوِ حزين لا سبيل لإخفائه، أحسّتْ زوْجِي بجفاء أُمُّها نحوي، فتهامستْ معها بلينٍ واحترام وسمعتها تقول:

(ماما، ما كان ليصبح زوجاً لي لولا موافقتكِ، فرجائي أن ترحبي به الترحيب الّذِي يليق به)

بهذه الكلمات الحزينة أعادتْ أُمّها تصافحني بنبرة أكثر لطفاً من نبرتها السابقة:

(حيَّاك اللّه، وقرَّب دارك، وحيّا مزارك).

ثمّ أعرضتْ عني، فخلوتُ إلى تفكيرٍ عميق، فلم أجد لهذا الجفاء معنى سوى العنصرية التي لم تستطع كتمانها. ولكن في سبيل زوْجي، سأكون لأخلاق الكرام مجانباً، لعلّ اللّه يصفِي كدر قلبها، فتشملني بحُسن الأُلفة فيتلاشى التعالي العرقي إلى غير رجعة.

●●●

انطلقتْ بنا سيَّارةُ المرسيدس، وتولّتْ أُمُّها القيادة، وفي الطريق أطلّت علينا مدينة الدوحة في بهاءٍ بالغ، كأنّ ليلها يرفل في أشعة الصباح لشدّة سطوع مصابيح الطرقٍ الزاهية التي تحيط بها من كل جانب. كان كل شيء يبدو في نسق وترتيب وأناقة، وأجواؤها تدعو إلى الطمأنينة والهدوء والتفاؤل.

بدت الدوحة آنذاك في نهضة عمرانية شاملة ذات اليمين وذات الشمال، أمَّا اليوم فقد بلغت ذروة الأبراج الشاهقة، وتنعم ببِنية تحتية عملاقة راسخة، ضاربة أميالاً في صخور الأرض، مما يُوحي بأن المدينة ستظل أبدًا في عالمٍ دائم التغيير.

ولجْنَا مجلس عائلي أنيق، مُزَيَّن بذوق سليم، وتُقيم أُمُّها فِي الدورِ الأرضي مع زوْجها وخادمتهَا، وتُوحي غرفة أُمّها بألوانها الفاتحة، بالراحة والشاعرية. قامتْ بابتكارِ تصميمات معينةً لتتلاءمَ مع مكتبتهِا الكبيرة، وحاجتها للقراءة، وعَلَى جدرانِها، لوحَاتٌ زيتية لكبارِ الشُّعراءِ والأُدباء.

لأوّل وهلة تأكد لي ما ظلّت تحكيه زوجي، بأن أهل قطر يقطنون في الفردوس الأرضي بتمام النّعمة عليهم، ويعيشون عيش الملائكة النّاعم وينعمون بحياة الدّعة والراحة، وسرعان ما تعلّق قلبي بها، وتطلّعتْ نفسي إليها بأن يجعل اللّه لي مقاماً في فردوسه الأرضي. ثُمَّ جاءَ والِد زوْجي، فَحَيَّانِي في كثير من الاحترام والتقدير:

(قد ازداد حضورك عندنا إعظاماً، ففي الرحبِ والسعة).

●●●

بعد هُنيهة، جلسنَا جميعاً في قاعة الاستقبال، وهي قاعة مخصصة للضيوف ذات أثاث نفيس تمَّ انتقاؤه بعناية فائقة، ليتلاءمَ مع جميع الأذواق، وتُزينها طاولةٌ فِي الوسطِ وضُعِتْ عليها أصائص مِن الزُّهورِ وريشِ النعام.

أعدّ أبوها مأدُبة عشاء فاخرة، خروفاً مطبوخاً محشياً أرز بخاري، وهي أشهَر وجبة يقدمها أهل قطر في المناسبات.

ثمّ جِئ بأصناف أخرى من الأطعمة الفاخِرة، وألوان من الأشربةِ الرقيقة.... والروائح العبقة التي ليس فوقها عبق إلاّ ريح الجنة، وجميع ما تستلذ به الحواس من المناظر البديعة، فحمدتُ ربي على تمام فضله، وسابغ نعمه بأن زوّجني مِنْ أُسرةٍ كريمة، فِيها مِنْ الشرفِ والفَضْلِ ما ليس في غيرها ... سأعيش ما تبقى من حياتي في راحة بالٍ...وقِلة نصب...

ومن تمام شكر الله، رأيتُ أن أوصل شكره بشكر من أنْعم عليّ، فنسيان الشكر، أول منازل الكُفْر، فدعوتُ لدولة قطر، ولهذه الأُسرة أن تتقلب في صنوفِ النعمة إلى أبدِ الدهر، وأن يؤمنها الله من الخطوب، ويُحصنها من نوائب الدهر! فبقاء هذه النعمة على الدولة، هو بقاء النعمة عليّ وعلى زوجتي.

ولكن..... كانت العنصرية متربصة بي.... كنتُ أُراعي حركات أُمها، وأُراقب مخارج كلماتها الجارحة، وأتلقى نظرات نفور...واشمئزاز...

كانت عيونها تطوف حولي، فلم تستطع سلوى أن تقول شيئاً سوى أن تجذب أنظارها بإلقاء نِكات مُضحكة، أو طرح أسئلة متواصلة، وما كانت تلك النَّظرات أن تفوت عليّ وسرعان ما استحال الخروف المطبوخ الفاخر إلى جيفةٍ نتنة...

ولكن مهلاً..... أليس حُسن الخُلُق يوجب المودة؟ والانبساط يوجب المؤانسة؟ والصدق يوجب الثقة؟

رحتُ أحدث نفسي: «وتالله ما اجتمعت تلك الصفات في رجلٍ، إلاّ ملك قلوب العباد»

وفي ثانية، ثبتُ في المائدة ثبوت العير الكليل الحسّ، لم تتغير ملامحي، بل انبسطتْ أساريري كأني الوحيد الّذي لم يرَ شيئاً، فأقبلتُ في التهام الأطعمة الفاخرة كأني التهم لعاب الأفاعي، والأشربة الرقيقة كأني احتسي قيئَ كلبٍ قذر، فتقيأتُ ما أكلته بداخل معدتي!

تحدثنا طويلاً، أفضى الحديث بنا إلى أُسرتهم التي يُظَلِّلُها الوئام، ويسودُها الترابُط والسلام، ومالَ بنا الحديثُ إلى ابنهم محمد الّذي هاجرَ إلى أمريكا طالباً للعلمِ، ثُمَّ أوصاني والِد زوْجي بالصبرِ والأناةِ لتحويلِ الزيارة إلى إقامة، ومِن ثَمَّ البحث عن العمل المناسب.

في هدأةِ مِن الليل، بعدما انفضَّ المجلسُ، وجدتْ زوجي صعوبةً في دعوتي إلى الذّهابِ نحو مخدعنا، فكسرتُ حاجز الصمت:

(أثقلَ النومُ جفني، وأجهدَني الجلوسُ، فلنأخذْ لنفسينا قسطاً مِن الراحةِ). قلتُ ذلك لأخلو بها، وبعد لأيٍ أجابتْ:

(هيّا إلى مَخْدَعك لتأخذَ المَنَام). ارتقينا دَرَجَاً ذا بساطٍ مَخْمَلي إلى الدور الأوَّل حيثُ مَخْدَعنا، وما أنْ فُتِحَتْ الشقة، إلاَّ وبُهِتٌّ مِمّا

رأيتُ. تتكون الشقة مِن غرفة معيشة أنيقة، أعدَّتْها للقراءة والاسترخاء، وحُجْرَة نومٍ كبيرة كُسِيتْ جدرانُهَا بتشكيلاتٍ خشبية مُبَطَّنَة ذات طُرُزٍ حَمْرَاء، وعلى مقربة منها، حوض استحمامٍ مرتفع، وأُسْبِلَتْ على نوافذِها ستائرٌ مِن السِتان اللامع، ويتوسط الحجرة سريرُ نومٍ نحاسي كلاسيكي فخيم، وإضاءات خافتة بألوانٍ زاهية.

وفي كُلِّ زاوية مِن حجرةِ النومِ، فواكهٌ مجففة، وأكوابٌ مِن زجاجٍ شفاف بداخلها شمعاتٌ كبيرة، تحترقُ وتوشكُ أنْ تذوبَ، وأرضيتُها مُزَيَّنَة ببلاطٍ مِن سراميك، وفي جوانبها مناضدٌ، وقطعُ أثاثٍ متنوعة مِمَّا أضفى لمساتٍ سحرية، سلبتْ عقلي، وأدخلتْ في نفسي فوضى في الحواسِ والأذواق.

توقفتْ ورائي خلسة، فلاحت مني التفاتة، رأيتُ رأسها مطرق كعنقود العنب، نشرت بين يديّ عبوات من العطور وهي تقول بحياء شديد:

(أغسل بدنك جيدًا بهذا السائل، وضمّخ ثيابك بهذا العطر، وأدهن جلدك بهذا الطيب، والحقني في مخدعي)

تخاذلت أعضائي من دعوتها، ومن فرط شدّة فرحتي للانفراد بها، لم أفعل شيئًا مما أمرتني، بل لحقت بها. وجدتها في انتظاري كالبدر ليلة التمام....

●●●

دفنتُ وجهي بين محيط نهديها، وراحت تفلي لي شعري الخشن، وأناملي تعبث بشعرها الناعم فرحت أحدّثها:

لقد أصبحتِ مِلْكاً لي،

فمنْ يأخذُكِ منّي بعد اليوم أيّتُها الوردة الصّبية؟ لقد اتفقنا مُنذ الأزل، أنْ تكوني لي، وها أنتِ ذي أمامي مستسلمة، فأينَ المهربُ من قَدَري، بَلْ أيْنَ الإفلات مِن بأسي؟ هل بإمكاني التحدُّثَ إليكِ باطمئنان، وأنامُ معكِ بأمان، دون أن تغرز أُمّكِ أظافرها في وجهي؟ ولكن لماذا هذا الارتباك؛ ما دُمْتِ لي؟

ما هذا الارتباك وأنا الّذِي تعوّدْتُ أنْ أدثركِ تحت غطاء حبي في شواطئ تركيا، كحورية مبللة بماءِ الزهر؟

بين ثغراتِ بسمتكِ سَأُولدُ، وعلى وسادة شعركِ سأُدْفَن، وبين أحضانِ صدركِ الدّافئَ سيكون مَخْدَعي، فما أجملَ حياتي!

ولولا أنّني كنتُ أتباهى لكِ افتراءً، بأنّني ابن البادية، الّذي لَمْ تهزّه الشدائد، ولم ترهبه النّوائب، لبكَيتُ بين صدركِ كَمَنْ لا عهد لَهُ بالبكاءِ!

أشعرُ اليوم، كأنّي أقفُ مع امرأة أُخرى، بمواصفات أُخرى، غير تلك المرأة، الّتي كنتُ أقفُ معها في الجامعة، كيف كنتُ أجهل هذا الشعور؟ أم أنّه شعورُ الزوجية، فما أجملَ صفاتِك الأنثوية، وأنتِ في عُشِّها!

منذ ولدتُ لم التهمْ وجبةً دسمة، ومنذ نشأتُ، لم أرتوِ بماءٍ زلال، وعوَضاً عن حرِمَاني سألتهمُ أنوثتكِ كوجبةٍ دسمةٍ في الليلِ، وسأرتَشف رضابكِ كقهوةٍ مُنعِشَةٍ في الصباحِ...

إنّي أتساءلُ منذ ملكتُكِ، أيُّهما أسرع كَسْرَاً، جسمكِ البضّ تحت أحضاني، أمْ السرير الفولاذي الّذي سيحملُنَا؟ لا أريدُ منكِ إجابة، فإني أعلم أن كلانا احتراقاً واشتعالاً.

فَمِنْ أيِّ زاوية تريدين أَنْ أبدأَ التهامَ جسدك قطعة.... قطعة حُبّاً لهذا الجسد، كما تَلْتهِم الهِرّة صغارها لشدّة حبّها لهم؟

أَمـنْ زاويـة خـدّك الأسـيلِ، عندمـا تتوهجـين مـع أشـعة الشّـمسِ عنـد البكـور، أمْ مـِن ناحيـة صَدركِ النّافـرِ عندمـا تكتملـين بـدراً عنـد العشـيات؟ .... أسـاءكِ؟

●●●

قربتها إلى نفسي لألتهمها فصدتني قائلة:

(ليـس بيننـا حشـمة بعدمـا أصبحنـا نسـب فـراش، هـذه الليلـة لـك وحـدك لتختبرنـي في أنوثتـي، ومـن الغـد سـأختبرك في فحولتـك لأسـقيك وعـدك الـذي وعدتـك).

ارتجـف جسـدي حـدّ المـوت ...كأنّمـا صُـب علـى ظهـري دلـوٌ مـن زمهريـر مـن جرأتهـا. فوثبـتُ عليهـا وثبـةَ أسـد علـى فريسـة، فمزَّقْـتُ أنوثتَهـا ألـذ ممـزق، منحتهـا أنضـر مـا في شـبابي مـن شـدّة وبـأس ومنحتْـي جوهـرتها الـتي لَـمْ يعبـث بهـا عابـث، ولـم تمسـها يـد، وتلحفـتُ بحريـرِ الجنـة... ولـم أتلحّـفْ أكفـانَ المَوْتَـى.

●●●

تذكرتُ مقولتها في أول لقاء في الجامعة عندما ابتدرت المناظرة بيننا قائلة:

(لتعلم قوانين الطبيعة أنّي أعطي الدُّنّيا شكل إرادتي!)

فقـد أعطـتْ الدُّنّيـا شـكل إرادتهـا بـأنْ تظـلّ ثـلاث سـنوات ونيّـف امـرأة عـذراء تحـت عصمـة رجـل... أجبتُهـا يومهـا بلحـظ الغيـب:

(أنـا نصفـكِ الآخـر، ولـنْ تَكْتمِـل حياتـكِ إلاّ بـي) فهـل كنـتُ مُحقـاً في مقولتـي؟، وهـل كانـتْ محقـة في مقولتهـا؟

●●●

إيقاع صوت الجسد

وفي صباح اليوم التالي، أطلق الكرى جفني متأخراً، بعد ليلةٍ مُذهلة، أخذتنا فيها جنون اللذة، لذة ممزوجة بشبق أنثى لا ترتوي من فحولتي... وشراهة جماع لرجل لا يشبع من أنوثتها....

قَدَّم كُلٌّ مِنَّا عُصارةَ شبابَهُ للطرفِ الآخرِ. كان كُلٌّ منّا يبرهنُ أَنَّه يُعطي خُلاصة الجسد وجوهره ولا يأخذ شيئاً، ويجود بالكل دون البعض، ويحتمل طول صبر البدن، وصبر البدن في الفراش، لأشدّ ألماً من صبر النَّفس على المكاره، فصبر البدن بالإضافة إلى الألم، يجود بالكرم والسخاء.

كانت لا تزال تغطُّ في نومٍ عميق، منعمة بلذيذ المنام، متكوِّمَةً تحتَ غِطاء أخضر، ضاربٌ في لون قشرة الليمونِ. وبحركةٍ كالهِرّة، نزعتُ نفسي مِن تحت غطائها الدافئ بِلا حراكٍ، ودلفتُ إلى الحمام برؤوس أصابعي لأُغَيّرُ هيئتي. وبعد هُنيهةٍ عُدتُ، فأيقظتُهَا:

(هَيَّا. انهضي يا عزيزتي! لقد أزفتْ الساعة الرابعة عصراً). أيقظتُها مَرة، مرتين، ثلاث مرات، ولم تستردْ صحوها إلاَّ بعد كثيرٍ مِن الاهتزاز، وكانت أشبه بالمخدَّرَةِ، وكَأَنَّ جسمَها تفكَكَ عظماً... عظماً، وتَحِسُّ بوجعٍ في جميع مفاصلها، بِسببِ مَا بَذَلتُه مِنْ سَخَاء، ثم إنَّ بُرودة الحجرة قد بلغ منها العظام. وبعد لأيٍ خَرَجَ صوتها مِن تحتِ الغطاء خافتاً لا يكاد يُسْمَع:

(مساءُ الخيرِ، أرجو ألاّ يكون وعثاء السفر قد نال منك كُلَّ منالٍ).

ثُمَّ قامتْ من رُقادها مُكْرَهَة، والنوم يملأ جفنيها. جلستْ قليلاً فوق السرير تَتَمطّى وتتثاءب، ابتدرت يومي بابتسامةٍ رقيقة، وبعيون ناعسة، وخدٍّ ريان. كانت سعيدة بليلتها، مغتبطة بحياتها معي. ربطتْ جدائلَ شعرهَا كضفيرةٍ واحدة، ورمتْها خَلْفَ ظهرها. وقامتْ بإعادة ترتيب السرير الّذِي كان مبعثراً بفوضى عارمة.

كانتِ الملاءة التي تستلقي عليها، كأَنَّها نُزعِتْ مِن جَوْفِ بَقَرة.

وبعد وقتٍ يسير، قادتْني إلى حجرةِ المعيشةِ، وهي حجرةٌ مُصممة على طرازٍ فندقي، تتَزَيَّنُ بتشكيلات خشبية على شكلِ أقواسٍ ذوات أزهارٍ بنفسجية. وغُطِيَّتْ جدرانها برسومات جميلة، وأثاثها يناسبُه فخامة. وشاشةٌ مسطحة مِن ماركة توشيبا مثَبتة على جدرانها تبُثّ أخبار قناة الجزيرة عصراً.

جلسنَا نرسمُ ملامحَ حياتنا الزوجية القادِمة، وما ينتظرُنِي مِن نعيم.

وبعد تناولُ وجبة الطعام، أقبلتْ على إعادة ترتيبِ خزانة الملابس، ثُمَّ رأيتُها تتفحص ثيابي بعناية فائقة، تشمُّها ثُمَّ أطلقتْ عَطْسَة قوية فوضعتْهم جانباً كأَنَّما تولاها نفورٌ واشمئزاز.

عادتْ تهزُّ رأسها عجباً لتسألني:

(أَليسَ مِن الأَخْلَق مصارحتك بعدما أصبحنا زوجين؟)

وثبتُ وثبةً واحدة فجلستُ انتظرُ مصارحتها الجارحة التِي ستنهالُ على ظهري كالسِياطِ:

(ما أحبّ إِليّ إِلاّ مُصَارحتِك)

قالت وهي مستلقية على السرير وممسكة بريموت كنترول تُقلّب القنوات الفضائية:

(سترافقني في المنتديات الأدبية التي تُنَظِّمُها أُمِّي، لاستقبال أهل العِلم، وكما ستكون مع أَبِي في أَيَّام الجُمَعِ لزيارة أصدقاؤه القطريون، فيجب أَنْ تتعلم أسلوب الإتيكيت، والتعامل مع الضيوف بشكل لبق حتى تخصك أُمّي بالمنزلة، ويزيدك أبي في الكرامة). تنفست الصعداء أنها لم تجرح مشاعري فأجبتها:

(هذا جميل، ويسرني جدًا تعلم ذلك). بدأتْ سياطها تنهال على ظهري:

(ولكن ينبغي عليكَ أولاً، أنْ ترمي بملابسكَ هذه في صندوقِ القُمَامَة). القُمامة؟ يا لكِ مِن جاحدةٍ للنِعَمِ! طارَ سوطُ الغضبِ قانعاً مِن قلبي فأجبتُهَا مُنْكِراً:

(ليتكِ تعلمين كم ألمَني حديثك، وأَيمُّ الحقّ، لقد اشتريتُها قبل قدومي بساعات). تجيبُ ببرودٍ كَأَنَّهَا تُحدِّثُ صخرة:

(ولكنها رخيصةُ الثمن، باهتة الألوان، رديئة الأَصنافِ، لا يرتديها حتى مِن يَفِلُّ الحديدَ). قتلتُ نفسي صبراً فأجبتُها:

(رفقاً.... رفقاً يا ابنةَ الأكرمين، لِمَ تستقبلينِني بهذه الكلمات المؤلمة؟). نهضتْ من سريرها، جلستْ معي لتقول بأسف:

(ما قصدتُ إيذاءَك قطّ، بَلْ أُزجِي لكَ نُصحِي، ما ظننتُ أَنَّ إهمالك لِهندامكَ، بلغَ منِك ما أَرى)

لا بأس من صراحتها طالما أَنَّها تَكِنُّ لشخصي الاحترام... وليس نفوراً واحتقاراً. تضيفُ بمعلوماتٍ كنتُ أجهلُهَا:

(أريدُ أن أثبت لأمي، أَنَّك أعظم شأنًا من ذلك الرجل الّذي لطالما تمنتّه زوجاً لي، ألا ترى كيف كانت نظراتها في المائدة؟، كانت تقارن بينك وبين ذلك الرجل هلاّ فهمتَ؟ سأملأ جيوبك مالاً لتعتني بهندامك، وترفع منزلتك إلى منازل أزواج صويحباتي). إنَّها صادقةٌ، صدقٌ متناهٍي، ولكن صدقها مُرٌ لا يُطَاق. قرصتُها في خدّها:

(رُحمَاك...ألا تقارني بيني وبين ذلك الرجل، ولا بطليقكِ فرجائي أنْ تَرْأَفي بشعوري، إنني رجل بسيط في الحياة، ومتواضع إلى أبعد حدود التواضع). تضيفُ بغير مبالاة:

(ما أعظم تواضعك إذ لم يتجاوز حدود التواضع، لكنّك أفرطت فيه، والإفراط يخرجك من التواضع، ولا يدخلك في المودة... بل يورثك المذلة، ومن لم يتقبل النُّصح في مواقع الفقر، لم يتقبّل النُّصح في مواقع النعمة). رأيتُ ليس من أصل الأدب ألاّ أقبل نصيحتها، ويجب أنْ أكون عاقلاً مُسدداً، فسألتُهَا:

(وما هي بقية وصاياكِ المؤلمة؟)

(خَصِّصْ لنفسكَ مِنْشَفَةً وصابونةً خاصةً بك، وعطراً ومزيلاً للعرقِ، لشدَّ مَا دَوَّخَتْنِي لَيلة البارحة بـ (صُنَان) إبطيك). تبّاً وسحقهاً لها، صراحتُها استحالتْ إلى مَذَلَّة، سألجمُ لسانَها وأعودُ إلى حيثُ قَدِمتُ، انفجرتُ في وجهِها:

(أفيقي إلى نفسك، إنَّك توجهين إليَّ إهانةً لا أغفرها لك أبداً). خففتْ مِن لهجتِهَا، وقَالَتْ بِلغةٍ فيها روح المصالحةِ:

(ما أردتُ بما قلتُ، إلاّ إصلاح حياتك، وتقويمك لما ينتظرك من نعيم، أغفر لي صراحتِي أنَّ الجوَّ حرٌ لا يطاق، فأخشى أنْ تفوحَ رائحتُكَ أمام أبي و .....) نظرتُ إليها بحدَّة فَأَلْجَمْتُ لسانَها:

(لا تجيدين غير لغة الإيلام، أقْصِري من كلامك، وإلا قطعت لسانَكِ). كانت تعلم، أنّي أبعد من يَقْدِم على ذلك، تتابع ولا تأبَهُ بتهديدي:

(كما لا يجدرُ بك البقاءُ في المنزلِ، فليكن الرأي عندي، خروجك مِن البيتِ قبل خروجِي إلى العملِ، وأوبتك بعد أوبتي فإن الفراغَ مَفسدة)

(أووه. هذا لا يُطاق، أَبداً لا يطاق، وعَلامَ هذا العذاب كله؟). قضمتْ تفاحةً كانتْ في يدِهَا، ومضغتْها بُرْهَةً، ثُمَّ أجابت:

(حتى لا تكون مُضْغَة للأفواهِ ببقائك في المنزل، وانتظارك لخادمة تَمُدُّك بطعامٍ وشراب، أريدُ أَنْ تكونَ قريباً من مَدْح أمِّي، وبعيداً عَن ذمّ أبي، فإنَّه فخرٌ لك وفخرٌ لي، وما أوصيكَ، إلاّ بما قد أخترته لنفسي، هه؟). طالما لا ينتقصُ ذلك مِن احترامِي شيئاً، أجبتها:

(صدقت حتَّى لا أحقِّر نفسي). ناولتْنِي صفّاً مِن عناقيدِ العنبِ، ثُمَّ عادتْ تُعَذِّبُنِي:

(ألا فاعلمْ، إنَّ أنذلَ الرجالِ مَنْ تُخرج زوجته للعمل وتتركه يمكثُ في مَخْدَعِها حتى تعود، فإن أغفلتَ وصيتي، جاءتك الذلة بعد الذلة من أُمّي). إِنَّها عظيمة. وستكونُ أعظم لو خففتْ قليلاً مِن وطأةِ صراحتِهَا.

(ما أعظمَ صراحتَكِ! سأفعل، وكيف أكسب رضا والدكِ؟). فَكَّرَتْ ملياً وأضافت:

(وإنّ مِنْ أوثق الصلة به، أنْ يراكَ في الصف الأوّل قبل كُلّ صلاة، فذلك صلاح معاشكَ، ورسالة بنقاءِ سريرتكَ، ليأخذك بالثقة، وإلاّ نفر منكَ كنفور الموت). ما أعظمها من وصيةٍ فأجبتها:

(لا أجد مشقة في ذلك، فنحن نحرص على الصلاة رغبة في الثواب قبل كُلّ شيء). فجأة صاحتْ:

(لا تشعرْ أَبَدَاً بأنَّ زوجتَك لها فضلٌ عليك بمالِها، إنَّما يجب أَنْ تُشْعِرَهَا أَنْتَ أَنَّك زوجها، وأَنَّكَ مَنْ يحميها) ..... إنَّها ملاك...حقاً... حقاً.... إنَّها ملاك! لكن لن أطأطئ رأسي وأوافقها بكّلِّ ما تقول، يجبُ أَنْ تعلمَ أَنَّ للزوجِ سُلطاناً، وأَنَّ للسلطانِ قوة:

(إنَّ لي أمراً كزوج، أنْ تحيطيني عِلْمَاً بِكُلّ جهةٍ تتوجهين إليها، وإذا صددتُكِ، ما عليك إلاّ الطاعة وتذعنين لأمري). أجابتْ دون تفكير:

(لن أدبّر أمراً دون أنْ تكونَ أنتَ صاحب الرأي فيه، ولن تتمّ الزيارة إلاَّ بِكَ لأَنَّك مَنْ سيرافقُني في حِلِّي وتَرْحَالِي). يا للفرحةِ! ما أسعدَ الأزواجَ الّذين يكرمهم اللهُ بزوجةٍ صالحةٍ مثل زَوْجِي! إنَّها ينبوعُ الفرحِ والسَّعادة.

●●●

وعند خِتام صلاة المغرب، أحسستُ بيدٍ ناعمة، تحتضني بلطفٍ وتؤدة وتقول:

(إن لِكُلّ نفسٍ، نفساً توافقها فتأنس لها، وتَسْتَكِين إليها، كُلّما تَذكرتُ أَنْتَ زوجِي اشتدّ فرحي، فالمودة التي بيننا هي نتاج حُسُن خلقكَ). يا للطمأنينة! ارتسمتْ أمارات الفرحةِ على وجهينا فتعانقنا. دسّتْ وجهها وكشفتُ سر سعادتها:

(جعلتني امرأة سعيدة حقاً.... سعادتي كان ينقصها فحل).

●●●

في بحـر الأسـبوع الأول، تمتعنـا بشـهر العسـل في شـقتها، وفي كل مسـاء، تعارضني برائحة حطب الدخان...دخان الطلح، الّذِي يفوح مِن جسدها، ويملأ مَخْدَعَنا، مسكٌ وشذى. أتراها تهيّئُني لأتلقفها؟ إنَّ مثلي ليس بحاجةٍ إلى تهيئة! فخلاصة غذاء الطبيعة، والألبان الطازجة مِن ضروع الأبقار والمطايا، والسمن، والعسل، مصدر فحولتي وبأسها. يداخلني شعورٌ جميل، بأنَّها سعيدة معي، فتقدّم جسداً مكنوناً لا يرتوي، وأقدّم فحولةً عارمةً لا تشبعُ.

ولطالما هي عانتْ، مِن إخفاقاتٍ متكررة... مُوجِعَة مِن طليقها السابق. تنفجرُ أنوثتها المتراكمة داخل رجولتي الكامنة، فأخورُ فوقَ صدرِها كثورٍ مذبوحٍ.

أمّا هي، فتأخذها غشية، تغرز أسنانها الحادة في جلدي، وتبدأ تلتوي بين ذراعيّ كأَنَّها تمتزجُ مع روحي وما هي بممتزجةٍ، وكأنّها تنفصل عن بدني وما هي بمنفصلة، فأروي جسدها شهوةً ولذّةً، أنهضُ عنها وجسدي يتصببُ عرقاً. أتركُ شعرها مُتَبَّلاً بالعرق ويرتسم على جبينها كحبَّات اللؤلؤ، أدنو منها فأجففُ جبينها بطرفِ راحتي، فتعبّر صفحةُ وجهها الجميل عن خجل، فتسبل ثوبها على وجهها بسببِ مَا ندَّ منها مِن صراخٍ وعويل!

صراخٌ بصوتِ الاشتهاءِ أشبه... وعويلٌ لصوتِ اللَّذة أقرب.

وكُلُّ ليلةٍ أجملُ مِن التِي سبقتها...كأَنَّ الليالي تتنافسُ أيِّ ليلةٍ كانتْ أجمل؟

وكُلُّ صرخةٍ، نبرتُها كانت أحزن..... كأَنَّ أصواتَها تتناغمُ أيّ صرخةٍ كانتْ أعذب؟

في أيّ ليلـةٍ ستتشـيّعُ هـذه الفتـاة رجولتـي؟ وفي أيّ ليلـةٍ سـأفصلُ أنوثتهـا عـن جسـدِهَا؟

أوليـسَ الإفـراط مُهْلِكَاً؟ كان كلاً منّـا أخـف وزنًـا بـين يـديّ الآخـر، نـروح في مجاعـة شـهوانية، لا أحـد يشـبع مـن لـذّة الآخـر. كأننـا في شـوطٍ طويـل للسـباق تنقطـع دونـه الأنفـاس.... فيخـرج صوتُهـا مِـن داخـلِ غطاءِهـا كأنَّهـا غارقـةٌ في خَـدَر، تقـولُ برقـةٍ وحنـان:

(أااااخ.... أرهقتنـي، دعنـي آخـذُ قسـطاً مـن المنـام، لكـي لا أنـام أمـام أمـي)

كنّـا وحشـين جميلـين، أقسـمتُ ألا أُهـزم، وأقسـمتْ ألا تستسـلم، تهالكـت علـى سـريرها النحاسـي منهوكـة القـوى ناشـرةً أطرافهـا بـلا حـراك.... كلؤلـؤة طرحهـا شـاطئ.

نظرتُ إليها فعلمتُ أني انتصرت.

●●●

مِسْكُ الرَّوْث

وبعد انقضاء ليالي شهر العسل الحمراء خرجتْ زوْجِي لمباشرةِ عملها الوظيفي في إحدى المُستشفياتِ الحكوميةِ، فلا سبب للبقاءِ في الشقة مع الخادمة بعد اليومِ. من ساعته، بدأتُ أعيشُ على نفقتي لا على نفقتها، وأتناولُ طعامِي مِن عرق جبيني لا بعرقِ جبينها. ولشهرين مضت، نزلتْ بي نكبةٌ مِن النكباتِ المالية، فعزمتُ ألاّ ترى أُسْرَتُها أنّي رجل متسول كما أقسمتْ أمها من قبل.

أقسمت ألا يروا منّي إلاَّ طيب الكلامِ، والصدق، وعِفَّة اليدِ واللسانِ. وبررتُ بقسمي برَّ التقي المؤمنِ فلم أطلب مالاً من زوجي، فصمّتُ أيّامَاً وليالِيَ. ولكن حين اشتدّت بي ضائقةُ العيشِ، دعاني والِد زوْجِي في صَدْرَ حُجْرته الخاصة. وهي حجرة صغيرة ذات نوافذٍ ثلاث، تطلُّ على حديقةٍ غناء، يُسمع فيها شدو العصافير وحفيف الأوراق. وكان لا يراني إلا منبسطا لا أشكو أبداً، ولكن في الواقع كان جسد كريمته سروراً يداوي قُرح همومي، ولمَّا مَثَلْتُ بينَ يديه، كنتُ على تلك الصورة المنشرحة بسام الثغر، فأدناني وأخذ بيدي يسألني بلطف. أجلسني قبالته يحدثني برجاء. فأكرمني أضعاف ما أكرمتني زوجي. أمدني بصبابَةٍ مِن المالِ فأبيتُهَا، فألَحّ عَليَّ لأخذها، وصممّتُ عليه مُمْتَنِعَاً:

(أطالَ اللّهُ بقاءَكَ يا سَيِّدي، فإنَّي أنعمُ بفاضلِ نعمتِكَ، وأتظللُ تحتَ كنفِ ابنتك). يمدحني:

(أنتَ نبيلُ نفسٍ، وحسنُ تربية؛ فخذْهَا). ترددتُ في أخذِهَا:

(إنَّنِي في يُسرٍ ونعمة، إذا طافَ بِي ضيقٌ في المالِ؛ سآتي إليكَ أطلبُ سابغَ فضلِكَ). رَمَاهَا في يدي بتوددٍ شديد ولطفٍ بالغ:

(خُذْهَا يا بُنيّ، ولا تردّ يدي). أحرجني فأجبتُه:

(إنّك حَمَّلْتَنِي جميلاً لا طاقةُ لي بشكرِه، دُمتَ سعيداً سيدي العزيز). يزيدني مديحاً:

(لقد أغناني الله بابني، فقد آنستُ إليك سريعاً، فأنتَ قاضي ديني، ومُحي ذكري، ومخلصاً لي في الدعاء بعد موتي، لا يخامرني شك في ذلك قطّ). ولمّا حضر وقت الصلاةِ، طلبتُ الاستئذانَ:

(هلاّ سمحَ لي سيدي بالذهابِ، ومتى طلبتني، ستجدني أسرع إليك من الريح المرسلة؟)

نهضتُ واقفاً، وصافحتُه وتلاطفتُ بيديه وقَبَّلْتُ رأسَهُ، وتركتُه في حَيْرَةٍ عُظمى.

●●●

بعدها، وجد التسلية في حديثي، ثم رويداً... رويدا، أخذني بالثقة، فعقب كُلّ صلاة صبحٍ، يُجلسني بجواره لمذاكرة القرآن الكريم وتجويده. وفي ذات صباح، أخذ بيدي وسلم بالأمر الّذِي لطالما كبته طويلاً:

(يا بُنيّ، لقد مددتُ إليكَ يديَ وضربتك، فوالله ما زلتُ أشعر بثقلها كلما صافحتكَ، لقد خُدعتُ بكثرة ما تلوك به الألسن عن قبيلتكم آنذاك، وحملني ذلك سرعة الغضب)

كم ألمتني نبرات حزنه، فقيدّت نفسي ألا أُجيبُ بكلمةٍ جارحة، سأكونُ للنعمِ شاكراً، وللمصاهرة راعياً، فإنّي في نعمةٍ سابغة بفضله، فكريمته هِي الّتي حَببتْ إليّ الشُكْر، وخصتني بِمودتها، لن اجعل الكفر بديلاً عن الشكر. اكتفيتُ بتقبيل رأسه. فقال:

(بعدما تصفّحتُ أخلاقك، وتأملتُ شيمك، عرفتُ أن النَّاس يتفاضلون بحسن خلقهم، لا بأعراقهم، فإنها أقرب وصلة تؤنس بين القلوب)

●●●

أثناء بحثي عن العمل، كنتُ أتناول فطوري في المولات الفاخرة بالثمن المُوجع، وغدائي بالغلاء الفاحش، ربما أخرتُ وجبة أو وجبتين مخافةَ أن تنضب صبابة مالي. وعندما أجهدَني البحثُ، لَمْ أجدْ أَمَامي إلاَّ أَنْ عملتُ سرّاً حمَّالاً في حظائر البهائم، لأسدَّ رمق جوعي، فلَمْ أحترفْ مهنةً أخرى أصيبُ بها مالاً غير تربية الماشية والزراعة. لكن زوْجِي علمتْ بمهنتي، فقد تعطَّن جسدي روثاً، ورائحةٌ كريهةٌ تفوحُ مِن ثيابي، وتزكمُ أنفَها رغم أني كنتُ أمُرُّ بمسجد أغتسل فيه، وعلى عطارٍ أدهن رأسي وجلدي بطيبٍ نافذ كنتُ قد اشتريتُه من مولٍ تجاري. تسألُني بِأَسى:

(إنَّك تُحمّلُني حُزنك، منظرك تعافه النُفوس، ويندي له الجبين، لمَ لا تطلب مني مالاً وتتركَ هذه المهنة الرذيلة؟). أجبتُها بعزّةِ النفس:

(يا عزيزتي، ليس في الدُّنْيا رذيلة، غير طلب المعونة مِن الزوجة). تنفجر عاطفتُها، فتسيل دموعُها فتقول:

(فوالله، لبسط يدك لزوجك، لأشرف لك مِن هذه المهنة). تزيدني دموعها كبرياءً:

(وتالله، لكف اليد عن الزوجة، والعمل لحمل شاة بكتفٍ، ونحرِ ناقةٍ بسيف، لهو سبيلُ الفضيلة). تقول بحكمة:

(نحنُ نَسَبُ مودَّة، ونَسَبُ فِراش، وما جرى في ظنّي، أنّك ستجعلُ المالَ حاجزاً بيننا). أطيِّبُ خاطرها:

(إن كنتِ لا بدّ فاعلةً، فبدلاتٌ رسمية للمناسبات غاية مطلبي).

●●●

واصلتُ عملي بافتخارٍ، وصَبَرْتُ عَلى هَذهِ المِهْنة مَا أمْكَن الصبْر. أصبحتُ أتوارى عن نظر والديها، مخافةَ أنْ تَقعَ أعينهم على هيئتي، فيحطّان مِن قدري، وأعودُ تحتَ ستار الظلام وأدخلُ شقة زوْجِي بالبابِ الخلفي، وما أكادُ أبينُ، حتَّى تُطوقني بذراعيها، وتستقبلني بشوقٍ وهيام، فأحسُ بدبيبِ النشوة تمشي في مفاصلي، وتملأُ قلبي راحةً وسكينة. فأدلفُ إلى الحمّامِ لأزيلَ رائحتي النّتنةَ، فأجدُ ثياباً جديدةً معطرة، مرتبةً بعناية فائقة، أغتسل وأسبلُها على جسدي. وأدفنُ أحْزاني وتبطُّلي عن العمل في جسدها الحار. أخاطبها في سرّي:

يا فتاتي..... أو لسنا وحدنا؟ فلِمَ هذا النّهَمُ لِمَ، وأنا بين يديكِ مبذولٌ؟ إنْ كنتُ حزنتُ في تبطّلي عن العمل، فَلِمَ لا أفرحُ بسخاءِ أنوثتك؟ فلئن كانتِ الدُّنْيا تَسْلُبُ بيَدٍ، وتعطي بيَدٍ؛ أَلَسْتُ أغنى الأزواجِ عطاءً؟

يـا حياتـي... لِـمَ تتمسـكين بشـخصي، وأنـا الّـذِي أشـكو جوعـاً وعطشـاً، وجسـدي يفـوحُ روثـاً وعَـرَقَـاً؟ أوجدتِ سعادتك فِي فقـري المدقـع، بعدمـا فقدتِهَـا فِي ثـرَّاءِ طليقـكِ الفاحـش؟ أسـألك؛ وأنـتِ مَـنْ عرفـتِ الـزواج قَبْلِـي؟ مـا أصدقَهـا مِـن عبـارةٍ غابـتْ عنّـي، واكتشـفتِها أنـتِ فِي فراشِـكِ. ودليلـي، قـراري المفاجِـئُ لـكِ بالعـودةِ إِلـى الوطـنِ، فناشـدتنِي الرحمـن ألاّ أفعـلَ:

(فـواللّه مَـا هنَّأنِـي اللّهُ بسـعادةٍ بعـدَك). ثُـمَّ اسـتدركتِ صراحتـكِ، وأضفـتِ بـذكاءِ أُنثـى:

(لشـدّ مـا تتـوقُ نفسـي أنْ تتنفسَ نسـمةَ الأمومـةِ فِي أحشـائي، فهـلاّ عدَلْـتَ عَـن السـفرِ؟)

أدركتُ بغزيرتـي، أنَّـكِ تنظرين إِلـيَّ بِأَنّـي أنفسُ مِن الدُّنْـيا وزهرتهـا، فأغدقتِ علـيّ سـعادةً لا ينضـبُ معينهـا. كنتُ مُحِقّـاً إذن عندمـا اعتـرض أبـي الـزواج مـن امـرأةٍ مطلقـة، فأجبتُـه:

«يـا أبـي، حسـبي مِـن المـرأة المطلقـةِ السَّـعادة، ورُبَّمَـا جلبـتْ لِـي العـذراءُ الشَّـقاءَ». وكنـتِ مُحِقـةً عندمـا مازحتِنـي يومـاً فِي الجامعـةِ عـن مواصفـات زوجـكِ:

(وأمقتُ زوجي أشـدّ المقت، لـو يتزَيَّن بزينتي، أريـده صلـدًا، صخـرًا، يابسًـا كالحطـب، عندمـا أضربـه براحتـي يسـقط مـن جسـده «دُرابـة») ..... فهـل تناثـرت لـكِ مـن جسـدي الأحجـار؟ أسـألكِ

●●●

وفي المنتديات الأدبية الّتي تنظّمُها أمّها للأدباء والمثقّفين، أرتدي بدلاتٍ رسمية مُقَلَّمَة برباطِ عنقٍ كلاسيكية حمراء، تلك التي توفرها زوْجِي. ينشرح قلبي، فأسألها:

(يا ترى بماذا سيهمس الأدباء عندما يَرونكِ تتأبطين ذراعي؟). تجيب ممازحة:

(سيقولون حتمًا، الصقر خَطَفَ الجِبْنَة). أعجبني مزاحها فسألتها:

(وبماذا تجيبين يا ترى؟). يأتي والدها على نحوٍ مفاجئ خارجاً من قاعة الاستقبال، يجيبُني ويمضي:

(ستجيبُ إنّها بك لفخورة)

●●●

أعطيتها ذراعي ومضينا لنتوسط الحضور، ونستقبلَ أصحابَ المقاماتِ الرَّفيعةِ بالمصافحةِ والابتسامةِ، بعدما حملت لقب السيدة «بيلّو» في مجال عملها مع الأجانب...تقدّمني لهم بكلِّ فخرٍ وإعزاز:

(أقدّم إليكم جميعًا زوجي الأستاذ أحمد «بيلّو»)

هكذا دأبتْ تُقدمُني لضيوفها بعدما عظمتُ في عينيها، حياتي معها موشّحةً بحسن صفات الفضيلة في جنتنا الصغيرة.

تعرفتُ في المنتديات الأدبية على أديبٍ قطري أخذني بالثقة، وعملْتُ معه في بيئة العقارات فصادفتُ نجاحاً في مهنتي المؤقتة، أصبتُ عمولةً كبيرةً مِن بيع عقار فحملتُ لزوْجِي وأمّها تشكيلات حُلِي جميلة فقالتْ بفرحٍ:

(أشكر لك لفتتك اللطيفة، إِنَّها لأغلى هدِيّة نتلقاها في حياتنا). أجيبها باطمئنان:

(أليس هو الواجب على الزوجِ، لابُدَّ مِن الوفاءِ به وإِنْ كان مُعْدَمَاً؟)

ثمّ أصبحت زوجي الثرية تعيش بعرق جبيني.... لا بعرق جبينها..... همست في أذنها:

(يا فتاتي، إنفاقي عليكِ بفقري المدقع هو رزق واسع...وراحة عظيمة، وعزة لنفسي المطمئنة.......

(آه.... إنك كل يوم تهزمنا في النِزال بنسمات صفات الفضيلة) هكذا أجابت..... وهي مُرسلة ناظريها إلى أمّها.

●●●

حُسن الخُلق وحده يبقى....!

في صباحٍ يومٍ من الإصباح، وأنا على وشك أن أمضي بزوْجي إلى السودان لزيارة أهلي، ترامت إلينا الأخبار من المطار بأن عمّي، تعرَّض لوعكة صحية، جراء جهد جهيد بذله في العمل.

ذهبنا إلى مستشفى خاصّ يُقدّم أرقى الخدمات الطبية انصدعت زوجي لحالة أبوها، كان يتمدد في غيبوبةٍ كاملة، كأنّ الموت يحاول نفخ الحياة في جسدهِ من جديد. تمّ إدخال قسطرة إلى قلبه، عبر شريانه العضلي، للوصول إلى البطين الأيسر من القلب، فلم أجد بداً سوى الانصياع للقدر، والمكوث معها حتى تستقر حالته الصحية. جاءتْ والِدة زوْجِي تخاطبني برفقٍ بالغ:

(يا بُني لقد تمّ إجراء فحص بالأشعة السينية لعمّك، فتبين انغلاق بالشرارين بسبب السُّمنة المفرطة، مما أثر على مجرى الدم، فما زلنا في حاجة إلى التبرع بالدم، لمواجهة أي طارئ). نعتتني بابني لأول مرة.

ومن حسنِ الطالع أن فصيلتي مماثلة لفصيلته، انفطر قلبي حزناً لحالة عمّي، طابتْ نفسي بطلبها، وتوافق ذلك مع حوجتهِ إلى الدم فقلت:

(جُعلتُ فداكم، سأتبرع حالاً).

تمّ نقل دمي إلى جسده، وتلك من الأقدار العجيبة لتتخالط دماؤنا، فيجري دم القبلية في عروقِ النسب، لتمتزج الأرواح، لتصفو النفوس، وليموت الضغن إلى الأبد. كنتُ ملازماً إياه، وأقوم بتلبيةِ طلبات والِدة زوْجِي من وإلى المنزل، لم أفارق عمّي غير أداء الصلوات المكتوبة.

جلسنا جميعاً كأننا في مناحة، ننتظر ريثما يفيق من سباته العميق، وكلما أفاق أمسك بذراعي يتشبث بها، ثمّ يغيب أخرى، مكثنا زهاء الأسبوع، وعندما أفاق كاملاً، واستردّ وعيه، تقربتُ إليه، وقبلَتُ رأسه:

(أبقاك الله سالمًا في جسمك، مُعافًا في بدنك، مسرورًا في أيامك، وجعل ما مضى كفارة وأجرا، وما بقِي عافية وشكرا). قالت زوجه باعتزازٍ وفخر:

(أتعب نفسه فيما يسرنا، فليبارك الله من حُظينا بشرفِ خدمته). كان متشنجاً، كمن فقد الإحساس بالقدمين والأصابع، مدّ أصابع مرتعشة لا حياة فيها. غمغم بكلمات بوجهٍ قد شحب تماماً، فلم يتمالك نفسه، فانخرط في بكاء على نحو بالغ:

(ما أعظمك يا بُني! إن هذه الدموع لفرط حسرتي على الإساءة إليك، لقد ازددت في نظري شهامة). أجبته:

(يا سيدي، إنما قضيت فرضاً يلزمني فيه غاية الشرف لخدمتك). راحت والِدة زوّجِي تتأملني بتقدير واحترام، كأنّي ولدها المنحدر من رحمها، فالمعاملة الراقية التي سخرتها لعمّي، نفذت إلى قلبها الحنون ناشرة فيه المحبة والألفة. وضعتْ يدها فوق رأسي برفقٍ ولِين، فلم تستطع كبح الحقيقة:

(يا بُني أبصرتك بعد عمى، مظاهرك الخارجية، تؤويها إنسانية صادقة، لقد أبديتُ أسفا كثيراً من اكتشاف أصل معدنك الداخلي أخيرًا، يا بُنيّ لقد أصابت ابنتي في اختيارك زوجاً لها). وهكذا بدأت تتلاشى العنصرية رويداً... رويدا، وكُلّ يومٍ يمضي تقربني إليها، وتكلفني بأمر، وبدوري أثبتُ لها أنّي أهلٌ للثقة .... وعندما يتناسى المرء الأسى، تبدو الحياة جميلة....

خرج والِد زوْجِي من براثن الموت بقدر، واكتفى بشللٍ نصفي شاكراً ربه ...ألْقَى ناظريه يمنةً ويسرةً، فلمْ يَجِد مَنْ يَقُوم بِرِعايته إلاّ شخصي.... أعرض صفحاً عن خدمة الخادمة، أقبلتُ في خدمته كمريضٍ في حاجة إلى مساعدة، لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرا. أصبحَ يتوكأ على عصا عجراء بيده اليسرى، ويستند على ساعدي بيده اليمنى التي انهالت عليّ يوماً صفعا في وجهي.... انتابته حكمة مفاجئة: «**عندما نمرض نشفى من العنصرية بسواعد من أسأنا إليهم يومًا**».

ثمّ أصبح لا يستطيع أن يقضي أمراً، دون أن يكلفني به، جعلني أمينا لأمواله، فأسند إِليّ مهماتٍ خاصة لأعماله بالخارج، وقضاء حوائجه بالداخل، وكعهدي أقومُ بتنفيذ ما أُوكل إليّ بصدقٍ وعزيمةٍ لا تعتريها كلالة. تغيّر مذاق الحياة عنده، فلا أمل تبقى من الدُّنْيا غير العمل للآخرة، فوجهني إلى بعض الوجوه في أفريقيا، لإنشاء آبارٍ جوفية، والإنفاق على الفقراءِ والمرضَى حتى أغناهم عن سؤال.

●●●

كان هذا شأننا، إلى أن بدأتُ الدُّنْيا تتغير شيئاً.... فشيئاً في أمر هذه الأسرة العظيمة، إلى أَنْ دارتْ دورتُهَا كاملةً. فعمّي لم يزل يشكو مِن أمراض القلب... والموت إِليه أسرع، حتَّى شَكَى ذات مساء شكاةٍ فِي الشرايين، فَلَقِي حتفه. أمّا ابنه محمد، فقد حاد عن الطريق في الغربة، فلم يعد منذ هاجر إلى أمريكا طالباً للعلمِ.

آه... أما والِدة زوْجَي التِي أَفْنَتْ عمرَها مُحِبَّةً للأدبِ، أصبحتِ الوحشة مؤنسها، والسرير قيدها، فلا تجد مَن يبكي لبكائها، ويعطف لمرضِها إلاّ شخصي، للّه فِي خلقِه شؤون! لقد أقسمتْ يوماً، بأنّي لن أصلَ حتَّى إِلى أخْمصَ قدم ابنتها، فهأنذا زوجها، وربّ بيتها، ومدبر شؤونها. ولم تزل تزيدني فِي محبتها فِي كُلِّ يوم، ومع كُلّ محبة عاطفة، حتى استحالة عاطفتها إلى ثقة فوضعت مفاتيح أملاكها بيديّ أضعها حيث أشاء! يومها، اكتشفتُ أن الدُّنْيا، لا تعرف للأكابر قدراً، ولا لصاحب المال منزلة، تُنكّسُ المراتبَ فتعيد تسويتها من جديد، فيحظى مثلي بإدارة ثروة من كانوا يرونني أخسّ أهل الأرض منزلة!

●●●

وما هي إلاّ شهورٌ قليلةٌ، حتَّى ثَقُل عليها المرضُ، ونالتْ مِن أسْقَام السِّمْنَة، وأوجاع الأورام الخبيثة أوفرَ حظّ، حتَّى أصبحَ سريرها بابَ قبرِهَا. وأصبحتْ تلجأُ إِليَّ فِي أوقاتِ الشّدَّةِ لأَسْنِدَها، وكنتُ أحملُ بين جوانحي العطفَ، والرّحمةَ بها، فسخرتُ عصارةَ عضلاتي، وماءَ شبابي لخدمتها، فقد حان وقت ردّ الجميل، فإن شكر اللّه، موصول بشكر من كريمتها، أحبتني بصدقٍ منذ أول يومٍ التقينا فِي الجامعة. وشكر كريمتها صلاح ديني، وتمام آخرتي...

وفِي كُلِّ هدأةٍ مِن الليلِ، أترقبُ دعوتها، فيأتي صوتها منادياً:

(يا بُنيّ إِلى الحمام خُذْنِي). تدعوني ولا تدعُ ابنتها، ولا تدعُ خادمتها، فأنّى لهما بإِسنادِ امرأةٍ تزيدُ عن (١٢٠) كيلو جراماً من الدهون؟ ... وبعد برهةٍ تدعوني: (يا بُنيّ إِلى مَخْدَعي ارجعْنِي).

أرجعُها برأفةٍ، وأسند رأسها في سريرها برحمة، وفي ذاتِ ليلةٍ، ضمَّتْنِي في صدرها ضَمَّةَ الأمّ لابنها.

أدارتْ وجهَهَا؛ لتغالبَ دمعةً كانتْ تتدحرجُ مِن مقلتيها، ولكنها بكتْ، بكتْ بكاءً جادتْ فيه بالدَّمعِ، بما لم تَجُدَ به عينٌ، وعندما التقتْ عينانا، لم تستطعْ لحظتها، أنْ تطيلَ النّظرَ فِي وجهي، فآثار أظافرها ما زالتْ فِي خدّي، ترسمُ كدوشاً وخدوشاً، وتنطقُ ألماً، كأنّها تسيلُ دماً.

آهٍ مِن انكسارِ نظرها، وإطراقِ رأسِها، وانفطارِ قلبِهَا، وهي تتحاشى النَّظرَ إلى وجهي!، وكأنَّ لسانَ حالها يقولُ: «أيّ شيطانٍ ركبي لقذفِكَ، بابن الزنا؟»

وما أضيقَ الدُّنْيا فِي عينيها! وممّا يزيدها إيلاماً، إشراقُ وجهي، وتقبيلُ رأسِها، وإسنادها كطفلة وبها مِن الأسى، ما الله به عليم! وعندما أُلبّي نداءها كُلّ ليلة، أدعوها دائماً بـ «أمّي»، فتنتفضُ انتفاضةَ المذبوحِ:

(يا أمّي! خدمتُكِ أمنية يتمُّ بها سُروري). لا المال يسعدها اليوم، ولا المرض يبكيها، ولكن إحساني إليها يعذبها، ويفسد عليها مذاق حياتها المترفة. تُجيبُ بدمعةِ حزنٍ:

(إِنَّك لتعذّبُنِي بإحسانِكَ إليّ، أكثر مِمّا يعذّبُنِي مرضي، فهلاّ غفرتَ لأمِّك زلَّةَ لسانها؟ فإنَّ أمَّك لمْ ترَ الراحةَ منذ لحظتها). رباه! أتُسمّين قذفي بابن الزنا زَلَّة؟ إنَّها أَجَلُّ وأكبرُ، إنّها قذف المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ!

لـم أسـألها أيـة زلّـة تقصديـن؟ وإلـى أيـة لحظـة تشـيرين؟ فكيـف أنسـى مَـنْ تشـكّك فـي شَـرَفِي، ورَمَانِـي بابـن الزنـا، وأنـا ابـن أَبِـي، الّـذي أَتَمَّ حفـظَ القـرآنِ منـذ الصبـا، وأمّـي، مؤمنـة تذكـرُ ربّهـا قيامـاً وقعـوداً؟

إنَّـه جُـرحٌ لا يندمـلُ، وربَّ كلامٍ أَقْطَـعُ مِـن حسـام. ولعلَّهـا قـرأتْ هـذا البيـت، فكيـفَ غـابَ عنهـا؟:

وقد يُرجى لجُرْحِ السّيفِ بُرْءٌ ●●● ولا بُرْءٌ لما جـــرحَ اللِّســـانُ

ابتسمتْ وأجبتُها بابتسامةِ العفو:

(كيـف لا أسـامحُ أمّـي التـي أكرمتْنـي بدرتِهَـا المصـون التـي أنعـم بكنفهـا؟). أجابـتْ بفـرحٍ، وناولتْنـي مظروفـاً:

(الحمـدُ للّه! لا أريـدُ أنْ أُعـدَّ مِـن المفلسـين الّذيـن يأتـون يـومَ القيامـةِ بحسـنات كالجبـالِ، ولكنهـم قذفـوا هـذا، ولعنـوا هـذه). واختنقـتْ بالبـكاءِ، فتوقفـتْ عـن الحديـثِ. تُتابـع:

(أرسـلَ هـذه الهديـة حـالاً إلـى أَبيـكَ، الّـذي أحسـنَ تربيتَـكَ، ليحـجّ إلـى بيـتِ اللّـهِ الحـرامِ). أيقنـتُ، بـأَنَّ أعظـمَ شـيءٍ فِي الوجـودِ، هـو إحسـانُ المعاملـةِ لمَـنْ أسـاءَ إليـك، والعفـو عمَّـن ظلمَـكَ، والابتسـامةُ فِي وجـهِ مَـنْ صَفَعَـكَ، وإلاّ فكيـف كنـتُ فِي دارهـا ضيفـاً سـعيداً، مُنْشَـرِحاً، وهـي فِي دارهـا مُتَحَسّـرَةً، مُنْقَبِضَـةً؛ بسـببِ قـذفِي بابـن الزنـا؟ نـادت ابنتهـا:

(يـا بُنَيَّتِـي، هـا هـي ذي السَّـعادة التِـي كنـتُ أنشـدُهَا لـكِ منـذ ولدتُـكِ، ووجدتُهـا فِي هـذا الخُلُـقِ الحَسَـنِ ــ وأشـارتْ إلـيَّ). وناولـتْ زوجـي مظروفـاً آخـراً، فآوينـا إلـى مَخْدَعِنَـا، فأسـندتْ رأسـها فـوق صـدري،

وفضّـتِ المظـروفَ، فوقـعَ بصرُهَـا علـى «توكيـل»، ينـصٌّ علـى أَنَّ أُمَّهـا، أوكلتها للتصرُّف في جميع أملاكها مَا بين عقارات وقناطير مقنطرة لا تسعها الخـزَنُ، والتوقيـع علـى الأوراق الماليـة نِيابـةً عنهـا.

غابتْ عنّي هنيهة، وعادتْ بفمٍ بارد مُعطّر بعود القرنفل، فأطفأتْ السّراج، وبدأتْ رحلة البحث عن الإنجاب بأي شكل كان، قبل أن تكون من اللائي يئسن من المحيض، فمن يرث ثروتهِا المفاجئة إلا من يخرج من أحشائها؟

●●●

في ذاتِ مساء، وأنـا لجالسٌ في الشُّرفَة، أحـادثُ نفسـي: أنَّـه طالمـا آلمني عدمُ السفر إلى أهلي، ولكن بقائي برقٌ يلمعُ في حياة أُمِّها، ولعلَّ ببقائي وإحساني إليها يُفتَحُ لي باباً مِن أرزاقهم كما أقسمَ أَبِي. وإنّي لكذلك، إذْ أحسُّ بزوْجِي تعبثُ بشعرِ رأسي، وتطلب مني أن أمثل بين يدي أمها. قالت الأم:

(يا بني، أنتَ منّا ونحن منك، لقد طلبتُ من ابنتي أن تأسس شركةً ناشئة مِن توكيلي لتديرُ لها أملاكَها). سيطر الصمت بيننا، أضافت:

(أنت مسؤول عن هذه الأملاك أمام الله، ومحاسب على ما خولناك من أمانتنا، فضعها في مواضعها في الدُّنْيا والأخرة، لا تصرفها في المعصية، وما أوكلناك إلا بما اختبرناك وعلمنا من صدقك، والصدق يُوجب الثقة). مازال الصمت مسيطرٌ علينا فتواصل:

(توكل على بركة الله حتى يأتي ابني محمد لتساعده في إدارتها). أخيراً أجَبْتُها:

(يا عمّتي، اقتلاع الجبال الراسيات من قواعدها، أهون عليّ من تحمل الأمانة، أرى أن ابنتك سلوى، أحقُّ بإدارتها منّي). أجابتْ سلوى بحزن عميق:

(مالي ولهذه الأملاك! آه.... والله ما تمنيت مثل طفلاً يبكي بين حجري فيعزيني، ويبتسم في وجهي ويسليني، ...آه ما أقسى حرمان الأمومة).

فكم كنتُ بدوري أتمنّى أن أغرس في رحمها الطاهر ذرّية كريمة، بيضاء كالثلج، يربطني فخراً بأسرتها الكريمة. أخرجتْ مِن حقيبتِهَا، سجلاً تجارياً، ونموذجاً للمخوَّلين بالتوقيعِ نيابةً عن الشركة، ويظهر فيها اسمها ويليه اسمي. وفجأة أحسستُ بحلاوة الإيمان تسري في قلبي، بهذه الوظيفة الدائمة، وتَمَثَّل لي أبي يحادثُني عبرَ الأثير: «أَلَمْ أقسم لك يا بُني، بَأَنَّ حُسن الخُلُق كنزٌ مِن الكنوز! وأَنَّ الإحسانَ والعفو بابان مِن أبوابِ الرّزق؟ «أجهشتُ بالبكاءِ، مِن حلاوةِ الإيمانِ. فما أغربها مِن قِصَّة!

ربَتتْ زوجي على كتفي فقطعتْ عَنّي تأمُّلي حلاوةَ الإيمانِ:

(ما الّذِي يُبْكِيكَ؟). أجبتُها:

(الإيمانُ!). لاذت بالصمت بتراكم الحزن على قلبها بحالة أمها، واستكمال الغموم في جوفها بتأخر الإنجاب، بعدما تجاوزتْ الخامسة والثلاثين عاماً. نظرتْ تتطلع إليّ بنظرة حزينة تسيل اعترافاً بأنها ورثتْ من أُمّها عدم الإنجاب إلا بعد الإياس.

بعدها.... أقبلتْ في إجراء الفحوصات الطبية، ولم يظفر الإنجاب بأدنى أمل، استسلمتْ للقدر، عزفتْ نفسها عن الزينة، فتركتْ جمالها للفطرة، نذرتْ ما تبقى من حياتها للنسك والعبادة، أكْثَرتْ منْ أعْمال الخيّر والصدقة، دفنتْ يأسها في طول السجود، بعدما يئستْ من المحيض.

لم تتغير زوْجِي يوماً، نظرتْ إِليَّ نظرةً ملؤها العطف والرّحمة عندما عملْتُ حمَّالاً، ثُمّ نظرتْ إِليَّ نظرةً أخرى ملؤها الاحترام والتبجيل عندما أسستْ شركتها، وأوكلتْنِي لإدارةِ أملاكها، فمنحتْنِي حناناً دافقاً، وسخاءً مُتَّصِلاً.

●●●

رغم أنّي أصبحتُ قُطْباً مِنْ أقطابِ العقارات بمعجزةِ صفات الفضيلة، إلاّ أن الاعتناء بِصحّةِ أُمّها أهمَّ أوْلَوياتي اليومية، دأبْتُ على ذلك، بصبرٍ، لا يعتريهِ كلالة، إِلى أنْ بلغَ سهم المنية المقتَلَ فكان أشقى أيام حياتي.

حملني الكلف وردّ الجميل، والمُروة، والشُكر لتخليد ذكرى أُمّها، وتشييد عِلْمُها، فشيّدتُ لها مسجداً بمنطقتِي الريفية لتكون صدقةً جارية لروحها الطيبة.

نصبتُ علامة في قبرها لعلّ ابنها يأتي يوماً يبحث عن قبر أُمّه:
«هُنا قبر المرحومة الدكتورة: أسماء الشاذلي التُهامي بلّلَ اللّهُ ثراها برحمتِه».

فقد أكرمتني بإمرأةٍ عظيمة، نظرتْ إليَّ ببصيرةِ قلبها، وأَمَّا عيناها فتركتهمَا للزينةِ وللجمال!

،،،،،،انتهى،،،،،،

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر